

الدين .. والدجل
(١٩)

التنويريون والمؤامرة على الإسلام

مقالات تبين الأهداف الحقيقية وراء المشاريع التنويرية

د. نور الدين أبو لحية

هذا الكتاب

يحاول هـذا الكتـاب بمقالاتـه المتنوعـة أن يوضـح للقراء الكرام ذلك التطرف الجديـد الـذي لبس لبـاس التنوير، وراح لا يكتفي بمواجهة التطرف الديني، وإنمـا يقابلـه بتطـرف لا يقـل عنـه خطـرا، وهـو التطـرف التنـويري، الـذي يهـدف إلى تفريـغ الإسـلام من جميـع محتوياته، وقد قسمته إلى أربعة أقسام:

القسـم الأول: التنويريـون.. والمـؤامرات العالميـة: وقـد تنـاولت فيه بعض الحجج والـبراهين والوثـائق الدالـة على عنايـة بعض الـدوائر العالميـة بتشـجيع هـذا النـوع من التنـوير، لبث الشـبه والفتن والتشـكيكات بين المسـلمين، حـتى لا يبقى لهم من الإسلام إلا ذلك الشعار المفرغ من كل معنى.

القسـم الثـاني: شخصـيات .. ومشـاريع تنويريـة: وقـد تنـاولت فيـه نمـاذج عن شخصـيات مختلفة من الحـداثيين والقرآنـيين وكـل من تعلـق بهم ممن يدعون التنوير.

القسم الثالث: التنويريون.. وهـدم القيم: وقد تناولت فيه بعض مظـاهر الهـدم للقيم الإسـلامية، والأسس التي تقوم عليها، وأول ذلـك الإسـلام نفسـه، والذي حوله هؤلاء التنويريـون إلى معـنى هلامي يمكن أن يتحقق من دون رعاية لشرائع وعقائده وأخلاقه.

القسـم الرابـع: التنويريـون .. وتمجيـد الملاحدة: وقد تناولت فيه ما دفعني إلى كتابته، وهـو ذلك التمجيد الذي ارتبط بهوكينغ، والترحم عليـه، على

الدين.. والدجل

(19)

التنويريون ..

والمؤامرة على الإسلام

مقالات تبين الأهداف الحقيقية وراء المشاريع التنويرية

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

1439 . 2018

مؤسسة العرفان للثقافة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

بدأت قصة هذا الكتاب بعد وفاة الفيزيـائي [سـتيفن هـو كينغ]، وما صـحبها من حملـة كبـيرة على صـفحات التواصـل الاجتماعي، بل حتى في الصحف والمنابر المختلفة من الثنـاء عليـه، والبكـاء على فقـده، باعتبـار الخـدمات الكثـيرة الـتي قدمها للعلم، وللبشرية.

ولم يكن ذلك كله ليستفزني، ولو أني أعلم أن [سـتيفن هو كينغ] ليس سوى فرد من آلاف العلمـاء والبـاحثين الـذين قاموا بما قام به، بل كانت خدمات غيره أكبر بكثـير، وألصـق بحاجات أفراد الناس من الخدمات التي قدمها إن صح اعتبار مـا قدمـه خـدمات للإنسـانية ذلـك أن تخصصـه في الفيزيـاء النظرية لا علاقة له بتلك الحاجات.

ولكن الذي استفزني أكثر هو إدخال الدين عند الحـديث عنه، سواء من المتطرفين الذين راحوا يزجون بـه في جهنم، ويشمتون بموته، ويضمنون له النيران، وما معهـا من أصـناف العـذاب، أو أولئـك الـذين يزعمـون لأنفسـهم أنهم متنـورون، ولـذلك راحـوا يضـادون تطـرف من سـبقهم بـالترحم عليـه، وإسكانه الفسيح الأعلى من الجنـان، بـل إن بعضـهم ــ مثـل شحرور ـ جعله مع الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين.

والذي آلمني في كـل هـذا، وخصوصـا من أولئـك الـذين يتصورون أنهم متنورون هـو تلـك الجـرأة الكبـيرة على اللـه، وهم يرون رجلا يستغله الإعلام أبشع اسـتغلال لنشـر الإلحـاد باسم العلم.. واعتبار الله خرافة.. واعتبار كل حقائق الوجـود وهما.. ثم يعتبرون كل هذا، وكأنه لا شيء.

وقـد رأيت أنهم يفعلـون ذلـك من بـاب رد الفعـل على المتطرفين السـابقين، مـع أنهم لم يقـرؤوا لـه.. ولم يعرفـوا مـدى تـأثيره.. ولم يعرفـوا في نفس الـوقت أولئـك العلمـاء الكبار ممن هم أكثر منـه علمـا في مجـال تخصصـه، والـذين

تجـاهلهم الاعلام المنحـاز بسـبب إيمـانهم أو بسـبب علميتهم التي لم تدخلهم في متاهات الملاحدة.

وقد جعلني هـذا أغـوص أكـثر في أعمـاق الأفكـار الـتي يطرحها هؤلاء التنويريون، فاكتشـفت العجب العجـاب.. فقـد رأيت أنهم من خلال طروحاتهم، لا يكتفون فقط بنقد التراث، ولا التنبيه إلى عيوبه لتصحيحها، وإنما ينتقدون المقدس أيضا، بـل يفرغـون الإسـلام جميعـا من محتـواه، ليتحـول إلى دين هلامي مميع لا ضوابط تحكمه، ولا شـرائع تضـبط المنتسـبين إليه.

وفـوق ذلـك كلـه رأيت أن رعايـة خاصـة تـدعمهم، ومن نفس الجهـات الـتي دعمت قبلهم المتطـرفين والإرهـابيين.. لتبدل التطرف السابق بتطـرف جديـد.. أو لتضـيف للتطـرف القديم تطرفا جديدا.

وكان ذلك داعية لي، أن أنتقد هذا المنهج، والأطروحـات المرتبطة به، مثلما انتقدت قبله ذلك التطرف القديم.. لأنه لا يصح أن نكيل بمكاييل مزدوجة، فنرمي طرفـا، ونسـكت عن آخر.

***

وبناء على طبيعة هذه المقالات والأغـراض الـتي تهـدف إليها، فقد قسـمتها إلى أربعـة أقسـام على الـرغم من كونهـا متداخلة فيما بينها، لأن الهدف منها جميعـا هـو تنـوير القـراء، وتوضـيح مـا يحـدث في الواقـع بدقـة، حـتى نعـود للاعتـدال والوسطية والقيم الرفيعة التي جاء بها ديننا كما هي من غـير أي تدخل منا، وهذه الأقسام هي:

القسـم الأول: التنويريـون.. والمؤامرات العالمية: وقد تنـاولت فيه بعض الحجج والـبراهين والوثـائق الدالـة على عنايـة بعض الـدوائر العالمية بتشجيع هـذا النـوع من التنـوير، لتفريـغ الإسـلام من محتــواه، وبث الشــبه والفتن والتشــكيكات بين المســلمين، حتى لا يبقى لهم من الإسلام إلا ذلك الشعار المفرغ من كـل

معنى.

القسم الثا**ني: شخصيات .. ومشاريع تنويرية:** وقد تناولت فيه نماذج عن شخصـيات مختلفـة من الحـداثيين والقرآنـيين وكـل من تعلق بهم ممن يدعون التنوير.

القسم الثالث: التنويريـون.. وهـدم القيم: وقـد تناولت فيـه بعض مظـاهر الهـدم للقيم الإسـلامية، والأسـس التي تقوم عليها، وأول ذلك الإسلام نفسه، والذي حوله هؤلاء التنويريون إلى معنى هلامي يمكن أن يتحقق من دون رعايـة لشرائع وعقائده وأخلاقه.

القسم الرابع: التنويريون .. وتمجيد الملاحــدة: وقد تناولت فيه ما دفعني إلى كتابته، وهو ذلك التمجيد الـذي ارتبط بهوكينغ، والترحم عليـه، على الـرغم من إلحـاده الـذي صرح به، بل دعا إليه.

وأحب أن أقول للذين عاتبوني كثـيرا عنـد نشـري لهـذه المقـالات، وتصـوروا أني بـالغت كثـيرا في التحـذير من ذلـك الموقف من هوكينغ، بأن أصحاب النظـرة البسـيطة يـذكرون هذا، ويتمنون مني ومن أمثالي أن نثـني على الرجـل، ونقـدر جهـوده وتحديـه، ونصـوره بصـورة العـالم العبقـري القـدير.. ليتأثر العـوام ومن ليس لديـه الحصـانة الكافيـة بالرجـل.. ثم يذهب ليبحث في كتبه وأفكاره، بعد أن يصير متخما بالتقــدير الزائف له.. وحينها يجد المستثمرون في هوكينغ فيه القابليــة لكل مـا يملونـه عليـه.. وحينهـا تبـذر في عقلـه بـذرة الإلحـاد والخروج من كل القيم النبيلة.

لــذلك فــإن في هــذه المقــالات القصــيرة أنواعــا من التحصينات والتحذيرات الـتي لم اكتبهـا الا لوجـه اللـه.. وقـد كتبت قبلها ـ بحمد اللـه ــ سـبعة كتب في الـرد على الالحـاد الجديد، بما فيها طروحات هوكينغ نفسها ـــ.. ولكـني أعلم أن تلـك الكتب لن يســمع بهــا أمثــال هــؤلاء الــذين لا يهتمــون بالإيمان، بـل يحتقرونـه، ويعتـبرون اخـتراع مصـباح كهربـائي

أفضـل من غـرس الإيمـان في القلـوب أو القيم الرفيعـة في السلوك..

وفي الأخير أقول لأولئك الذين غضبوا مني بعد أن كـانوا يعتبرونني تنويريا مثلهم بسبب مواقفي من التطرف الــديني، ولهـذا تصـوروا أني سـأفعل مثلمـا فعلـوا: أنـا أؤدي واجـبي الشرعي.. وسأظل أكتب حتى يجف قلمي.. وأعـذر الى اللـه بأني قد أديت ما علي من واجبات.. ولا يهمني من يرضــى أو يسخط.. لأن كل من فوق التراب تراب.

ورحم الله الإمام علي عندما قـال: (مـا تـرك لي الحـق من صديق)

القسم الأول

التنويريون.. والمؤامرات العالمية

هؤلاء هم التنويريون الجدد.. فاحذروهم

لم أتعــود أن أحــذر من جهــة من الجهــات، حــتى من المتشــددين والمتطــرفين والملاحــدة والحــداثيين.. بــل كنت أكتفي فقط بعــرض أطروحــاتهم ومناقشــتها، ثم أدع للقــارئ بعد ذلك أن يتخذ الموقف المناسب رفضا أو قبولا..

لكــني رأيت أن التعامــل مــع هــؤلاء التنــويريين الجــدد يختلف مع أولئـك جميعـا.. ذلـك أنهم لا ينطلقـون من حقـائق ثابتة، ولا من معايير دقيقة يتحـاكمون إليهـا، وإنمـا ينطلقـون من هــوى مجــرد يمكن أن يطلــق عليــه لقب [النقــد لأجــل النقد]، أو [الرفض لأجل الرفض]، فهم يرفضـون كـل شـيء، ويتمردون على كل شيء، حتى لو دلت كل الأدلة عليه، فــإذا ما ناقشـتهم لم تجـد الجهـة الـتي تناقشـهم من خلالهـا، لأنـه ليس لـديهم معـايير ثابتـة، ولا مصـادر محـددة مضـبوطة، ولا قيما معقولة، ولذلك فإن النقاش معهم جدل، والحديث معهم لغو.

هم يعرفونك ويحترمونك فقط إذا مـا رفضـت وانتقـدت وتمــردت.. ويرفضــونك بمجــرد أن تبــدي أي لين أو قبــول.. وكأن الرفض مقصود لذاته.. وكـأن النقـد هـو الأصـل وغـيره تبع.. وكأننا لم نؤمر بالعدل والحكمة.. العدل الذي يأمرنــا أن نشـهد بالحقيقـة لنـا أو علينـا.. والحكمـة الـتي تجعلنـا نأخـذ الحقيقة ولو من أفواه أعدائنا.

ومن خلال متابعتي لبعض هـؤلاء يمكنـني أن أضـع بعض الأمارات الدالة عليهم:

وأولهـا احتقـار علمـاء الـدين والسـخرية منهم في نفس الوقت الذي يتهافتون على غـيرهم، بـل حـتى على الملاحـدة منهم.. فيلعنــون المؤمــنين، ويســخرون منهم.. وفي نفس الوقت يترحمون على غيرهم ممن لم يؤمن باللـه.. بـل ممن

عاش حياته كلها محذرا من اللـه.. ومضـللا الخلـق عنـه وعن سبيله.

ومن الأمثلة على ذلك تلـك الصـلوات والأدعيـة الكثـيرة التي أقيمت على أكبر دعاة الإلحاد في العصر الحـديث.. بـل أكـبر فيزيـائي في التـاريخ حـاول أن يسـتثمر تخصصـه في الدعوة للإلحاد، وهـو [سـتيفن هوكينـغ] والـذي لا يختلـف عن كل الفيزيائيين قديما أو حديثا في مجال تخصصه، بـل إن من الفيزيائيين المعاصرين من هم أكـثر منـه علمـا، ومـع ذلـك لا يسـمع بهم أحـد، لسـبب بسـيط، وهـو أنهم لم يصـرحوا بإلحادهم، أو لم يقوموا بالدعوة إليـه، ولـو فعلـوا لاسـتقبلهم هؤلاء التنويريون بالأحضان.

ومن أمثلة تلك الدعوات قول بعضهم في تأبينـه: (اللهم ارحم العـالم الفيزيـائي الكبـير سـتيفن هوكينـغ، واغفـر لـه وادخله جنتك الواسعة)، وقول آخر ـ وهو عدنان إبـراهيم كمـا في موقعه الإلكتروني: (افتقدت البشرية هذا اليـوم.. وحظي تاريخ الخالدين بعالم فذ، لا يجود الزمان بمثله إلا قليلاً، عـالم ضرب أروع مثال على طموح العـالم الحـق وشـغفه بكشـف أسرار العالم وفك مغالق الطبيعة، كما في المثابرة والنضـال ضـد المـرض وصـور المعانـاة الناجمـة عنـه على مسـتويات شتى، مُبرهِناً على أن الروح الإنسانية لا تُقهَر.. ونحن إذ نُعلِن مع العالم عن هذا النبأ الأسيف بوفـاة سـتيفن هوكينـغ نـدعو الله الرحمن الرحيم أن يتولاه برحمته ومغفرته، وإنّا لله وإنّـا إليه راجعون)

وقد خصصته بالعتاب لأنه يعلم تماما أن كـل أطروحـات هوكينـغ العلميـة لا تخـدم سـوى الإلحـاد، وأنهـا مجـرد نمـاذج للهروب من الإيمان، ولا تدل على عالم فـذ، ولا عبقريـة، وإلا

كانت العبقرية في الإلحاد نفسه [1]..

ومثل ذلك قـول آخـر عن بعض المخـترعين: (رحم اللـه [ويليس هافيلاند كارير]، وغفـر لـه وجـزاه خـير الجـزاء، هـذا الرجـل العبقـري الـذي اخـترع لنـا المكيـف الهـوائي، الـذي نسـتعمله ونسـتمتع بـه أيمـا اسـتمتاع في بيوتنـا وسـياراتنا الفاخرة في حر الصيف، كما يستمتع به حجيجنا الميـاميم في حجهم، ولولاه لأصـبح ذلـك الحج جحيم لا يطـاق.. وأنـا أنصـح كـل من يحتج على هـذا الـترحم على هـذا الرجـل المخـترع الكبـبر، أن يسـتحي من نفسـه ويتوقـف على الفـور على استعمال المكيف الهوائي بكل أنواعـه، في منزلـه وسـيارته، وأن يقدم اعتذار عن كل لحظـة قضـاها بجـانب المكيـف في كل مكان)

ولسـت أدري مـا علاقـة اسـتعمال المكيـف الكهربـائي بالدعوة لصاحبه بالرحمة، أو بضمان الجنة.. فالله تعالى وضع لرحمته وللجنة شروطا، وهو صاحب كليهما، والأدب مـع اللـه يقتضي احترام مراد الله، قال تعالى: ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِـهِ مَنْ

---

[1] () بل أنه هو نفسه اعتبره مخادعا، فقد قال في خطبته التي خصصـها لهوكينـغ قبل وفاته: (كما قلت وبدأت – الرجل مُراوِغ، وهذا أمـر عجيب، مـع أن طبعـاً إعاقتـه الجسمية الكُلية الشاملة – مُصاب بمرض الأعصاب الحركي، جعلت الناس يتعـاطفون معه بلا شك وربما هذا يُوحي بالنزاهة التامة والمُطلَقة، لكن النزاهة التامة والمُطلَقـة مسألة أخلاقية مُختلِفة عن النشاط العلمي، لماذا؟ لأن في كتابه الشـهير جـداً [تـاريخ مـوجز للـزمن] قـال في الفصـل الثـامن منـه دُعيت سـنة 1981 إلى مُـؤتمَر نظَّمـه الكاثوليك بالفاتيكان، والبابا نفسه كان حاضراً، والكنيسة الكاثوليكية أخطأت في حـق العلم والعلماء بالذات من أيام جاليليو، وجاءت الآن بعـد أكـثر من 300 سـنة لتعتـذر، جاءت تدعو علماء الكونيات الكوزمولوجيين لكي تستشيرهم في القضايا الكونية وهذا الشيئ الطيب، وبعد أن قدَّمنا أوراقنـا وأعمالنـا تشـرَّف المُشـارِكون باللقـاء مـع بابـا الفاتيكان، ثم قال البابا لنا أو للمُشارِكين: جيد، أنه من الحق أن نبحث في الـبيج بـانج في الانفجار العظيم الذي كوَّن الكون لكن من حيثية تطوّر الكون بعد البيج بـانج، أمـا أن نبحث في لحظة البيج بانج لحظة الانفجار العظيم فهذا لا يجوز لأننا بهذا نبحث في شيئ من عمل الله هذا عمل لله، وصعب أن يستوعب الذهن هـذا، ثم يقـول سـتيفن هوكينج مُعلِّقاً مما سرني يعني أن البابا لم يفهم كلمتي – أي أن البابا لم يفهم الورقة التي ألقيتها لأنه ليس عنده معلومات علمية دقيقة، طبعاً ما علاقة البابـا بهـذا العلم – لأنني ذكرت في كلمتي أن الكـون وإن كـان مُتناهيـاً إلا أنـه ليس مُحـدَّداً، ليس عنـده حدود)

أَشَــاءُ وَرَحْمَتِي وَسِــعَتْ كُــلَّ شَــيْءٍ فَسَــأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُــونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156) الَّذِينَ يَتَّبِعُــونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْــدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـاهُمْ عَنِ الْمُنْكَـرِ وَيُحِـلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْــرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِـهِ وَعَـزَّرُوهُ وَنَصَـرُوهُ وَاتَّبَعُـوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [الأعــراف: 156، 157]

فالله تعالى حصر الفلاح فيمن توفر فيه تلـك الشــروط، فكيف نعقب على الله، ونتدخل فيمـا لا حـق لنـا في التـدخل فيه.

والمشكلة ليست في الدعاء، وإنما في التهوين من أمــر الإيمان باللـه والقيم الدينيـة، حيث يصـبح المعيـار هـو خدمـة البشر خدمة مادية، لا تحقيق أمر الله بـالالتزام بدينـه.. وهـذا معيار خطير جدا، ومخالف لكل الأديان، وأولها الإسلام.

وثانيها احتقـار المصـادر المقدسـة وخصوصـا القـرآن الكريم.. فإذا ما ذكرت لهم آية من القــرآن الكــريم تنهى عن الاســتغفار للمشــركين، وهم أقــل خطــرا من الملاحــدة.. والاسـتغفار أقـل قيمـة من الـترحم.. ذلـك أن الـترحم نتيجـة للاستغفار.. والاستغفار مقدمة له.. قامت قيامتهم وذكروا لك أنك لا تفهم القرآن ولا تستوعبه.. وأن في معانيه من الرموز ما لا طاقة لك بفكه.

فــإذا طلبت منهم آليــات يفســرون بهــا قولــه تعــالى ـ مخاطبا نوحا عليه السلام وناهيا لـه عن الـدعاء لابنـه بسـبب عدم إيمانه ـ: يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَـالِحٍ فَلَا تَسْـأَلْنِ مَـا لَيْسَ لَـكَ بِـهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُـكَ أَنْ تَكُـونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ [هود: 46]

وقوله ـ على لسان نوح عليه السلام خضوعا لأمر ربه ـ: رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَـا لَيْسَ لِي بِـهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِـرْ

لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: 47]

وكيف أن هذه النصوص واضحة لا تحتمل الجدل.. وبلغة واضحة ليس فيها كناية ولا استعارة ولا مجـازة.. تجهمـوا في وجهك، واكتفوا بـالتجهم.. وتصـوروا أنهم بتجهمهم يمكنهم أن يقنعوك بأن هوكينغ أفضل من ابن نوح.. وأنه يمكننا أن نركبه في السفينة التي لم يركب فيها ابن نوح عليه السلام.

وهكـذا إذا ذكـرت لهم أن قصـة آدم عليـه السـلام في القرآن الكريم تتناقض مع نظرية التطور.. ذكروا لك ــ خلافـا لكل ما تدل عليه المصادر العلمية ـ أن نظرية التطور حقيقـة علميـة، وأن على القـرآن أن يقبلهـا، ولـو بتحريـف معانيـه وألفاظه، وإلا لُفظ القرآن من أجلها.

وهكذا تراهم يحتقرون السـنة المطهـرة، فيصـفون كتب الحـديث بمـا لا يتناسـب مـع جلالـة قـدرها، حـتى أني رأيت بعضهم يطلق على بعض كتب الحديث وصـف [الأسـطورة].. ولسـت أدري مصـدر هـذه الجـرأة لكتـاب ضـم الكثـير من أحـاديث رسـول اللـه ﷺ المتفـق عليهـا عنـد الأمـة جميعـا.. وخلافنا مع بعض الأحاديث لا يعني طرح الكتاب ولا غـيره من الكتب، فكـــل كتب الســـنة في أي مدســـة من المـــدارس الإسلامية محترمة لا يجوز إهانتها ولا تحقيرهـا، ويكتفى معهـا بالمناقشة العلمية الهادئة التي تنطلق من التحقيق العلمي لا الرفض المزاجي، والهوى المتبع.

وثالثها رفض التراث جملة وتفصيلا.. وهذا وهم كذلك.. فالتراث لا يرفض لذاته، وإنما يُرفض منه ما يستحق الـرفض بناء على منهجية علمية، ومعايير ثابتة، لا على الهوى المجرد.

ففي تراثنـا بحمـد اللـه الكثـير من المعـاني الطيبـة المستفادة من المصادر المقدسة، وفيه الكثـير من التجـارب البشـرية النافعـة.. وفيـه فـوق ذلـك كلـه خـبرات أسـلافنا واحتكاكهم بالأمم الأخرى.. فكيف نلغي كل ذلك، ونحتقره.

والمنهج السليم والعقلاني البديل لذلك هـو وزن الـتراث

في موازين الشريعة المقدسة، فنقبل ما تقبله ونرفض ما ترفضه.. أما أن نحكم على جهود عشرات آلاف العلماء بالإلغاء والإعدام والإقصاء.. وتحقيرها ونبزها بأبشع الصفات.. فهو مما لا يتناسب مع الحكمة والعدالة.

وهو لا يختلف عن ذلك الذي يقبلها قبولا كليا بحلوها ومرها وخيرها وشرها.. فالعاقل هو الذي يميز الطيب من الخبيث.. لا الذي يرمي الطيب مع الخبيث.

ورابعها.. رفض التاريخ الإسلامي جملة وتفصيلا.. والاهتمام بجلد الذات في نفس الوقت الذي يُلمع فيه تاريخ الآخر ويُزين رغم جرائمه الكثيرة.. وكأن المسلمين لم يكونوا بشرا، ولم يكن فيهم الصالحون، ولا الأولياء، ولا العلماء.. وكل هذا غير صحيح.. فتاريخ الأمة كان أسود في الناحية السياسية فقط كما أخبر رسول الله ﷺ.. لكنه كان مملوءا ببياض كثير وأنوار كثيرة في الجوانب العلمية والاجتماعية والحضارية والدينية.. بل كانت الأمة الإسلامية ولا زالت خير أمة أخرجت للناس.. فالتخلف لا يخرجها من هذه الخيرية.. فنحن بحمد الله لا نزال نحتفظ بالكثير من القيم التي فقدت في الغرب، والقيم هي الأساس لا التقدم المادي والحضاري الذي بنته جميع الأمم وشاركت فيه.

التنويريون .. وصفقة القرن

قد لا يكون ما سأذكره الآن هو الحقيقة المطلقة، ذلك أنه من الصعب أن يدعي أي إنسان لا يستند لسند غيبي معصوم أنه يصف المستقبل كما سيحصل بالضبط.. ولكني أحاول استشرافه من خلال معطيات كثيرة، أصبحت بالنسبة لي على الأقل واضحة جلية، ولذلك أذكرها من باب الثبوب لا من باب الإثبات.. ومن باب النصح لا من باب التحقيق العلمي المتين المؤيد بالأدلة القطعية.

وخلاصة هذا الاستشراف تكمن في أن الساسة الذين استعملوا في الماضي ما يسمونه بالإسلام السلفي والحركي لتحقيق بعض مآربهم السياسية التي تخدمهم أو تخدم الصراع السياسي العالمي بين الأقطاب الكبرى، قد اكتشفوا أن هذا الخيار قد حقق أغراضه، وانتهى دوره، واحترقت أوراقه.. لهذا بدأت تصريحاتهم تنطلق من كل جهة تتبرأ منه، بعد أن اعترفت أنها هي نفسها من دعمه لخدمة أمريكا وحربها الباردة مع الاتحاد السوفيتي.

والبديل لذلك ـ كما يراه المتآمرون ـ هو إسلام آخر أكثر انفتاحا على الغرب، وعلى أمريكا خصوصا، بل حتى على إسرائيل.. حتى يهيئ الأجواء لما يسمونه [صفقة القرن]، وهي صفقة لا تشمل السياسة ولا الاقتصاد وحدهما، بل تشمل الإنسان أيضا.. فالإنسان هو الأساس في كل مشروع يراد تنفيذه صالحا كان ذلك المشروع أو فاسدا.

وصفقة القرن تقتضي الانفتاح الكلي على الغرب وإسرائيل وزوال كل الحواجز النفسية والاجتماعية والثقافية بحيث يصبح المسلم إنسانا مدنيا يفكر بنفس الطريقة التي يفكر بها الأمريكي والأوروبي والصهيوني.

وهي تقتضي زوال كل الخصوصيات.. فالإسلام بالمفهوم الجديد هو تحقيق القيم الحضارية.. ولا يهم

الشريعة التي نلتزم بها أو الطقوس التي نؤديها.. فيمكننا اعتبار المسيحي واليهودي مسلما إن حقق قيم التنمية الحضارية.. وقدم خدمات للبشرية.. بل هو أكثر قيمة من المسلم الصوام القوام، لأن الله تعالى ـ بحسب هذا المفهوم الجديد ـ لم يخلقنا لنتعرف عليه، ونقيم الصلات بيننا وبينه، وإنما خلقنا لنخترع الكهرباء والمواصلات، ونوفر من الصحة لأجساده ما لم يوفر لنا الجهاز البيولوجي الذي خلقنا عليه.

وهي صفقة تقتضي أن ينظر للأمم باعتبار تطورها الاقتصادي، وإنتاجها العلمي.. ولذلك فإن العاقل هو الذي يقيم الصلات والتحالفات والعلاقات مع أمثال هذه الدول.. ولذلك لا حرج في إقامة الصلات مع إسرائيل.. ذلك أنه يمكن اعتبار اليهود مسلمين في حال اعترافهم فقط بأن محمد ﷺ رسول من الله.. دون أن يكلفوا أنفسهم بعد ذلك باتباعه.. بالإضافة إلى أننا يمكننا أن نستفيد من العقل اليهودي في السياسة والاقتصاد والعلوم المختلفة.. بالإضافة إلى أنه يمكن أن نتحالف معهم عسكريا لنواجه المشروع الإيراني [القذر] كما عبر عنه عدنان إبراهيم.

وفي سبيل تحقيق هذا المشروع احتاج القائمون عليه عن البحث عن الشخصيات التي تمثله، والتي لها من الجاذبية ما يمكن أن تنفذه في الواقع، وبأقل تكلفة.

وحسب رؤيتي البسيطة القاصرة، فقد رأيت أن الأنظار موجهة خصوصا لعدنان إبراهيم ومحمد شحرور وغيرهما من الذين وفر لهم الإعلام كل وسائل الشهرة، ولست أدري هل يعون ذلك أم لا.. لأن الكثير للأسف من الأدوات لا يعرفون أنهم أدوات، حتى ينتهوا من أداء أدوارهم بكل دقة، ثم يلفظون في الأخير كما تلفظ كل الأوراق المحروقة.

وأول الأسباب التي جعلتهم يختارون هذه الأدوات هو أنها استطاعت أن تجتذب جماهير كثيرة لشخصها لا لمشروعها، حتى تصور الكثير أن ما يطرحونه هو من بنات أفكارهم واجتهاداتهم.

وثانيهما هو أن طروحاتهم اتسمت بذلك الانفعـال الـذي تمـيزت بـه الطروحـات السـلفية والحركيـة.. والمتـآمرون يعجبهم المنفعلـون، ذلـك أنهم يهـدمون أكـثر ممـا يبنـون، ويفسدون أكثر مما يصلحون.. ولذلك لم نر لعدنان إبـراهيم ـ مثلا ـ كتابات علمية وبحوثا رصينة موثقة، بل كـل مـا طرحـه خطابـات وتصـريحات تحـاول جـذب العامـة أكـثر من جـذب المثقفين والمفكرين والباحثين.

وخطورتها ليست في ذواتها.. ذلك أن الكثير مما طرحه كان قد كتب فيه المؤلفات الكثيرة، وكان دور عدنان فيه هـو حفظ لبعض ما ورد، ثم عرضه على الناس بطريقته الخاصة.

وخطـورة هـذه الطريقـة هي توليـد الجـرأة في النقـد الهدام لعوام الناس.. حتى أصبح الكـل ينتقـد كـل شـيء من دون بحث ولا نظر ولا أسـس علميـة.. حـتى أن البعض صـار يرد الأحاديث الصحيحة المتواترة من غير أي حجة ولا دليل..

وكما اتسمت الظاهرة السلفية والحركية بذلك الانفعـال مع كل ما يختلفون معه حصل مثله مع هذه الظاهرة الجديدة التي لا أسـتطيع أن أجـزم بـأن عـدنان أو إسـلام البحـيري أو غيرهما قصدها.

لقـد صـار الكثـير يسـخر من صـحيح البخـاري أو كتـاب الكـافي أو كتب الصـحاح والمسـانيد والسـنن في المـدارس المختلفة.. وكأن كل ما فيها دجل مع أن الأحـاديث المـردودة فيهـا أحـاديث محـدودة، ولم يردهـا العلمـاء إلا بنـاء على معطيات كثيرة.. وليس على مجرد نزوة الرد.

لكن عـدنان إبـراهيم وزملاءه من التنـويريين كـانوا يختارون نموذجا من النماذج، ثم يرمون كل شيء، ويهـدمون كل شـيء، مثلمـا كـان يفعـل السـلفية حين يختـارون شـيخا منحرفا من مشايخ الطرق الصوفية ليرموا بـه جميـع الطـرق الصوفية، بل جميع الصوفية في جميع فترات التاريخ.

وكـل هـذا سـببه الكسـل عن التحقيـق العلمي، وعـدم

الورع عن التقول على الله، أو على المسلمين بما لم يثبت.

وقد ذكرت في كتاب [التنويريون .. والصراع مع المقدس] الكثير من الأمثلة على تلك الجرأة على نصوص مقدسة عليها نور النبوة، ولكنهم يردونها لكونها تصطدم مع مزاجهم.

وفي نفس الوقت نرى ذلك الانبهار بكلمات أي فيلسوف أو عالم غربي.. حتى أنه أصبح من الموضة عندهم أنهم في كل درس أو خطبة أو مقالة يزينون كلماتهم بما قاله فلان أو فلان من الغربيين مع الثناء عليه، واعتباره عملاقا من عمالقة الفكر.

لا يمكنني في هذا المقال المختصر أن أورد أدلتي على ما أخاف أن يقع في المستقبل، لكني أذكر بأن هذا الطرح الجديد هو تهديم للإسلام ابتداء من مصادره المقدسة.. فالقرآن عندهم مؤول، والسنة عندهم مكذوبة، والعلماء عندهم دجالون، والغرب عندهم عبارة عن مجتمع من المفكرين والفلاسفة والعباقرة، والمسافة بين الأديان غير موجودة، فكل الأديان يمكن أن ندين بها.. ولا خوف من العذاب والعقاب ذلك أن رحمة الله وسعت كل شيء.. بل حتى الملاحدة سيكونون أول أهل الجنة.. ومثل ذلك الأخلاق.. فالأخلاق تقتصر على الأخلاق الاجتماعية.. أما غض البصر والبعد عن الفواحش.. فذلك تراث قديم، ومفاهيم خاطئة، والعلاقة بين الرجل والمرأة يمكن أن تنفتح مثلما حصل في الغرب.

وهكذا يصبح الإسلام بهذه النظرة إسلاما آخر.. بعيدا عن كل ما ورد في النصوص المقدسة.. وبذلك ما المانع أن نتواصل مع أمريكا، ونقيم صداقات معها، ونبني لها الكنائس في مكة والمدينة.. وما المانع أن نبكي على حائط البراق مع اليهود، ونبحث معهم عن البقرة الحمراء أو الصفراء.. وما المانع أن نقيم علاقات استراتيجية معهم لنقضي على اليد الإيرانية في اليمن وسوريا وكل البلاد.

هذه رؤيتي التي أتمنى ألا أكون صادقا فيها.. ولكن كل الواقع يدل عليها.

ونصيحتي هي أن نعرف أن هذا الأمر دين.. فلذ نبحث عن أهل الورع من الصادقين الذين لا يطلبون مالا ولا جاها، لنأخذ عنهم ديننا.. فأولئك وحدهم المؤتمنون عليه.

أما الذين وضعوا أيديهم في أيدي قتلة أطفال اليمن، أولئك الذين خربوا سوريا وليبيا، وأعطوا بالمجان آبار البترول لأعداء الأمة، فإن أيديهم قذرة وهي أنجس من أن تفهم المعاني المقدسة لكلمات الله، فكلام الله ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: 79]

التنويريون.. والمصافحات الآثمة

عندما نقرأ التاريخ قراءة اعتبار وتـدبر نجـد أن أكـثر مـا حدث فيه من مآس وآلام هو نتيجة مصافحات آثمة بين رجال العلم والدين والثقافة مع رجـال السياسـة والسـلطة، أو مـع رجال المال والاقتصاد، أو مع رجال الجاه والشهرة.

فتلك المصافحات لا تمتد لليد فقط، بل تمتـد قبـل ذلـك وبعـده للقلب والعقـل؛ فينغلقـان انغلاقـا كليـا عن الحقـائق والقيم، وينفتحـان انفتاحـا كليـا على الأهـواء والأغـراض والشهوات؛ فيصبح عقل المفكر خادمـا لهـواه، وهـواه خادمـا لمن يوفر له رغباته.

وقـد أخـبر القـرآن الكـريم عن النمـوذج الممثـل لـذلك ببلعم بن بـاعوراء، ذلـك الـذي ﴿أَخْلَـدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَـعَ هَـوَاهُ﴾ [الأعـراف: 176]؛ فترك موسى عليه السـلام، وراح إلى صـف أعدائـه، لأنـه لا يرضـي أهـواءه وطمعـه وشـهواته إلا كنـوز أعدائه.

ولا يمكننا هنا أن نعدد المصافحات الآثمـة الـتي حصـلت في التـاريخ، وتأثيراتهـا على عـالم الأفكـار والأديـان والقيم؛ فذلك مما لا يعد ولا يحصى، ولكنا سنقتصر على هـذه الأيـدي الممدودة من التنويريين لجهات كثيرة مشـبوهة، لم نـر منهـا خيرا في الماضي، ولن نرى منهـا خـيرا في المسـتقبل، ذلـك أن كل تلك الكنـوز الـتي وهبت لهـا لم تسـتفد منهـا إلا عتـوا وغلظة وضلالة.

تلـك الجهـات الـتي صـافحت في عقـود سـابقة أيـدي المتطـرفين والإرهـابيين لتحـول منهم أداة لخدمـة المشـروع الأمـريكي والغـربي، ومواجهـة القطب الثـاني ليبقى المجـال فسيحا أمام القطب الأول ليمارس كبرياءه كما يشتهي.

وعندما استنفذت أغراضـها من المتطـرفين والإرهـابيين

راحت تتبرأ منهم، وتمد يدها للمتطرفين الجدد، أولئـك الـذين يعتبرون أنفسهم متنورين.. ولا حظ لهم من التنــوير إلا حجب الحقائق والتلاعب بها، وإتاحة المجال لكل رويبضة أو صعلوك أو جاهل ليتحدث في الـدين كمـا يشـتهي، بـل يضـع فيـه من الاجتهادات ما لم يسبقه إليه أحد، ومن غير أي دليل أو حجة.

ليس من عادتي أن أذكر الأسماء.. ولكنها واضحة جـدا، فكل يد تمتد لمصافحة قرن الشيطان يمكننا أن نخاف منهــا، أو نحسب لها ألف حساب.

ولهذا يمكننا في هذا الـوقت بالـذات أن نخـاف من اليـد التي يمدها هذا القرن المشؤوم لأولئـك التنــويريين، ليعطيهم من الفرص ما أعطاه سابقا للمتطرفين والإرهابيين.. ليقضي هؤلاء المتطرفون الجدد على مـا بقي لـدينا من قيم وحقـائق جميلـة.. ويجعلـوا من الـدين كـرة تتـداولها الأيـدي والأرجـل، ويتفــرج النــاس على العبث بهــا، وهم في قمــة الســعادة والسرور.

التنويريون .. وجرائم فرنسا

لا شك أننا سمعنا جميعا هذه الأيام بالدور القذر الذي تقوم به فرنسا في اليمن، حيث أنها أرسلت قواتها بعدتهم وعتادهم، ليحاربوا ذلك الشعب المستضعف الفقير الذي ابتلي بأسوأ جوار عرفه التاريخ.

ولا شك أننا سمعنا قبل ذلك بتلك الإمدادات الكثيرة من الأسلحة التي بيعت لدول العدوان، مع علم فرنسا أن تلك الدول دول مستبدة جائرة لا تعرف الديمقراطية ولا تسمع بها، ولا تؤمن بها، ومع ذلك أرسلت لها كل أنواع الأسلحة، لتنشر الديمقراطية، وتمارس من خلال نشرها هوايتها في القتل والجريمة، ولتنزل تلك الأسلحة الفرنسية مطرا من النيران على رؤوس الأطفال والشيوخ والنساء.

ولا شك أننا سمعنا، ورأينا دور فرنسا القذر قبل فترة قصيرة في ليبيا، وكيف أنها خانت عهدها مع الرئيس السابق، بعد أن نالت منه ما نالت من الرشاوى، ثم راحت لأعدائه تتزلف إليهم، وتنال من عندهم رشاوى جديدة، لتمارس دورها الإجرامي الذي تعودت عليه، ولا تستطيع العيش من دونه.

ولا شك أننا نسمع كل حين عن الاضطرابات والانقلابات التي تحصل في إفريقيا، وعندما ندقق في البحث، وعبر وسائل الإعلام الدولية المعتبرة نجد أن لفرنسا يدها طولى في كل ما يحصل.

وقبل عقود قليلة كانت فرنسا تستعمر دولا كثيرة في العالم، وكانت تسرق خيراتها، وتستعبد شعوبها، وتمارس معها كل أنواع الظلم والاستبداد والعدوان.

وقبل عقود قليلة أيضا كانت فرنسا في الجزائر، والتي استمر ظلمها لها أكثر من قرن من الزمان، وقتل بشر كثير، وسرقت خيرات كثيرة، ولم تترك جريمة في الدنيا إلا

ارتكبتها، حتى أنها كانت تجري تجاربها النووية في الصحراء الجزائرية، ولا يزال تأثير إشعاعاتها مستمرا إلى اليوم.

ومن شاء أن يستمع للذين عاشوا فترة الاستعمار الفرنسي؛ فسيحدثوه عما رأوا بأعينهم من قسوة الجندي الفرنسي، وطمع المستوطن الذي كان يغتصب الأرض، ثم يحول أصحابها عبيدا يحرثونها ويزرعونها رغم أنوفهم.. ويحدثونه عن ألوان التعذيب التي قاساها الشعب الجزائري المظلوم، حيث كان المساجين يستنطقون من خلال الكي بالتيار الكهربائي، أو يحرق كل جزء من أجسامهم في الوقت الذي يجد فيه الضباط والمشرفون على التعذيب متعة كبيرة، وهم يضحكون ويسخرون..

هذه نقطة من بحر جرائم فرنسا التي لا يمكن إحصاؤها، ومع ذلك لم نسمع منها اعتذارا، ولم نر لها توبة، بل هي تتبجح بجرائمها، وتفتخر بها، وتستمر في ممارستها.

وكيف لا تفعل ذلك، وكل ما حصل لها من تطور ورفاه لم يكن ليحصل لولا عرق ودماء أولئك المستضعفين الذين بذلوا دماءهم في سبيل نهضتها وتطورها، بل كانوا جنودا إبان الحرب المفروضة عليها.. وبعد أن انتهت الحرب، وطالبوها بأن تعيد لهم حريتهم التي سلبتها راحت تبيد خضراءهم، وتذيقهم من ألوان النكال ما يذيقه المخادعون المارقون الذي لا يعرفون شيئا عن الإنسانية والرحمة والأخلاق.

ونحن لا نلوم فرنسا، كما لا نلوم الذئاب والثعالب وكل الحيوانات المتوحشة، فهي تمارس ما تمليه عليها طبيعتها التي اختارتها بنفسها.. ولكنا نلوم أولئك التنويريين الذين لا يزالون يضربون لنا النموذج بفرنسا، ويتغنون بها، ويسمونها بلاد الجن والملائكة، ويريدون منا أن نغمض أعيننا لنسير خلفها حتى نكسب ودها، ونتطور في سلم الرقي الحضاري.

والأخطر من ذلك هو مطالبتهم لنا بالتمرد على مصادرنا المقدسة، والقيم النبيلة التي جاءت بها، لنستبدلها

بالمقدسات الفرنسية والقيم الفرنسية.. وهذا ما ينقضي منه العجب.. فمنذ متى كانت لفرنسا أي قيم أخلاقية أو تنويريـة، وهي أم المجرمين، ومنطلق الإجـرام في القـديم والحـديث، واليمن خير شاهد على ذلك.

لكن مـع ذلـك نـرى التنـويريين لا يزالـون يسـجدون ويركعون لها، ويجثون على أقدامهم كل ما ذكـرت، ويكـادون يسـبحون بحمـدها.. وحـق لهم أن يفعلـوا ذلـك، فهم ليسـوا سوى نتاج للحرب الفرنسية الثقافية على الإسـلام ومصـادره والقيم النبيلة التي جاء بها.

فجـرائم فرنسـا لا تقتصـر على تلـك الحـروب الـتي مارستها على الشعوب المستضعفة، ولا على سياسـة الأرض المحروقة، ولا على الإبادات الجماعية، ولا على كـل الجـرائم العنصرية، وإنما لها جرائم أخرى لا تقل خطـرا، وهي لا تـزال ترسل إلينا عـبر منـدوبيها من التنـويريين، وعـبر تلـك الثكنـة الجامعية التي كانت مدرسة نهل منها التنويريون كل المنـاهج الـتي يضـربون بهـا الإسـلام.. ثكنـة [السـربون] الـتي يتصـور الكثير من المغفلين أنها جامعة للبحث العلمي، بينمـا هي في حقيقتها ليسـت سـوى وسـيلة من الوسـائل الـتي اسـتعملتها قديما، ولا تزال تستعملها حديثها في حروبها المختلفة.

ومن العجائب أن تفتح جامعة السـربون فرعـا لهـا قبـل فترة في الإمارات العربية المتحدة، عاصمة الحداثة العربيـة، تلـك الـتي تمـون كـل مشـاريع الحداثـة، ويسـكن فيهـا كبـار الحداثيين، ويظهر من قنواتها كل الخطابـات الـتي تـدعو إلى إلغـاء المقـدس ومناقشـته والتلاعب بـه، ابتـداء من شـحرور وانتهاء بعدنان إبراهيم الذي أشاد بحاكمهـا، واعتـبره نموذجـا للحكم الراشد.

ومن العجيب أن فرنسا التي تحرص على الدعوة للغتهـا تساهلت مع طلبة فرع جامعة السربون في الإمارات العربيـة المتحدة، وقد ورد في خبر بعنوان [الفرنسـية ليسـت شـرطاً

للقبول ودورات التقوية عامل مساعد للطلبة][1] هذا النص الذي يمكننا من خلاله أن نفهم الدور الإجرامي الجديد الذي تقوم به فرنسا في منطقتنا: (توقع الدكتور دانيال أوليفير مدير جامعة السوربون أبوظبي أن يلتحق بالجامعة مئات الطلبة من داخل الدولة وخارجها ومن مختلف الجنسيات، لكونها أول فرع لجامعة باريس السوربون خارج فرنسا، وتحديدا في منطقة الشرق الأوسط، حيث توفر التعليم العالي باللغة الفرنسية، مشيرا إلى أن الفرع الجديد سيتبع نفس طريقة ومفهوم التدريس التي تميزت بها الجامعة الأم، وموضحاً أن اللغة الفرنسية لن تكون شرطاً للتسجيل حيث ستوفر الجامعة دورات تعليم لهذه اللغة مدتها ابتداء من 6 شهور، كما ستمنح الجامعة كل الشهادات بدرجاتها العلمية المختلفة البكالوريوس والماجستير والدكتوراه. وأكد أن توافر الشروط الأكاديمية المطلوبة لدى الطالب من أهم شروط الالتحاق بالجامعة، لافتا إلى أن الجامعة ستركز على نوعية الطلبة بغض النظر عن أي اعتبارات تتعلق بالجنسية أو الدين طالما توفرت فيهم شروط التميز الأكاديمية التي حددت.. وأوضح مدير الجامعة أن إنشاء فرع شامل ومتكامل في أبوظبي جاء بعد استكمال مفاوضات ناجحة استمرت قرابة العام أجراها الجانب الإماراتي مع وزارة الخارجية الفرنسية بغرض إنشاء حرم جامعي لها في الإمارة، يكون مطابقا للحرم الجامعي الفرنسي، لافتا إلى ان ذلك يأتي وفقا لرؤية صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان رئيس الدولة ـ حفظه الله ـ بضرورة وضع استراتيجية للنهوض بالتعليم بجميع مراحله)

ولست أدري هل أمتنا بحاجة إلى الجامعات المتخصصة في العلوم الكونية والتقنية، والتي هي الأساس الذي ينطلق منه التقدم الصناعي والاقتصادي، أم أننا بحاجة إلى هذه

[1] انظر مقالا بعنوان: فرع السوربون بأبوظبي يعزز مكانة التعليم في الإمارات، البيان، التاريخ: 12 يوليو 2006.

الجامعـات الـتي تعلمنـا المنـاهج الغربيـة في التعامـل مـع المقدس والقيم المرتبطة به.

ولم يقتصـر دور السـربون على هـذا الاخـتراق الخطـير لبلادنا، ولا على هذه الفترة، بل إنـه اخترقنـا في كـل العقـود السابقة.. فهو الذي كان يستخدم شهاداته العليا المعترف بها عالميا ليمرر من خلال أطروحاتها ما يشاء من مشاريع.

فقبل فترة طويلة تبنى [طه حسين] الـذي أطلـق عليـه فيمـا بعـد [عميـد الأدب العـربى]، لا لكونـه كـذلك من حيث مهاراته الأدبية واللغوية فقط؛ فقد كان له منافسون كثـيرون في ذلـك، وكـانوا يفوقونـه في قـدراتهم ومنجـزاتهم، وإنمـا أعطـوه ذلـك اللقب وبـوؤوه المناصـب الرفيعـة، لمواقفـه التشكيكية في المقدسات، والـتي تجلت في كتابـه المشـهور حول الشعر الجاهلي، والذي نشره سنة 1926م، والذي ذكر فيه أن الشعر الجاهلي كتب بعد الإسلام، ونُسب لشـعراء مـا قبـل الإسـلام من الشـعراء الجـاهليين، وأنـه لـذلك لا يصـور الحيـاة الجاهليـة كمـا هي، وهـو بـذلك لا يشـكك في الشـعر الجـاهلي فقـط، وإنمـا يشـكك في قيمـة المصـادر المقدسـة نفسها، لأنه يوحي بذلك التشكيك بـأن الشـعر الجـاهلي كـان على نسق القرآن الكـريم وهيئتـه ونظمـه.. وهـو بـذلك أتـاح الفرصة للتنويريين ليستمروا على هذا المنهج، فيشـككوا في المصادر المقدسة نفسها.

وقد كان قبل نشره للكتاب قد حصـل عـام 1919 على الدكتوراه بدراسته حول ابن خلـدون فى جامعـة السـوربون، والتقى فيها بزوجته المستقبلية [سـوزان برسـوا]، وقـد كـان من آثار ذلك الزواج، وآثـار تلـك الشـهادة العليـا مـا كتبـه في كتابه التنويري الخطير [مسـتقبل الثقافـة في مصـر]، والـذي دعا فيه بكل صراحة إلى (أن نسير سيرة الأوروبيين ونسـلك طريقهم لنكون لهم أندادا، و لنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها و شرها، حلوها و مرها، و ما يحب منهـا و مـا يكـره، و

ما يحمد منها و ما يعاب..)[1]

وهي نفس الصيحة التي لا يزال التنويريون يرددونها، غافلين عن جرائم الاستعمار الفرنسي، ومآسيه التي جرها على البشرية.

وعلى خطى طه حسين قام السربون، ومن رائه المعسكرات الفرنسية بتربية الكثير من الجنود الذي أدوا أدوارهم بدقة في التشكيك في كل المقدسات، والدعوة إلى الحضارة الغربية والقيم الغربية، واعتبار الإسلام والعقل المسلم هو الحجاب الأكبر الذي حال بين المسلمين وبين التطور، من غير إشارة إلى أن ما قام به الإجرام الغربي في حق الشعوب الإسلامية هو السبب الأكبر في تخلفها، لا الإسلام، ولا قيمه، ولا مصادره المقدسة.

ومن أبرز هؤلاء [محمد أركون] ذلك الذي رباه الاستعمار الفرنسي على عينه[2]، وأتاح له أن يدرس في السربون، ثم يتخرج منها، كمفكر إسلامي في الظاهر، وكمستشرق تنويري في الحقيقة والباطن، ليؤدي دوره في تطبيق المناهج الغربية على المصادر المقدسة للمسلمين، وخصوصا القرآن الكريم.

ومن العجيب أن يفعل ذلك، وهو يذكر أنه لا يعرف اللغة العربية جيدا، ولذلك كتب كل كتبه باللغة الفرنسية، وقد قال عن نفسه: (كل من استمع إلى كلامي ألح علي أن تقدم كتبي بالعربية، بل أن أكتبها مباشرة بالعربية لتكون الفائدة أتم للغة العربية والناطقين بها. لم يتسع لي الوقت مع الأسف لأقوم بعملين مهمين مجهدين في وقت واحد وهما:

---

(1) مستقبل الثقافة في مصر، ص 39.

(2) ورد في سيرته الذاتية أنه عند [الآباء البيض]، وهم كما هو معلوم تنظيم تنصيري مكَّنَتْ له فرنسا بعدَ احتلال الجزائر في 1830، وكان أغلب نشاطِه في منطقة القبائل التي وُلِد فيها أركون، وقد ركَّزت هذه الإرساليَّة على تلك المنطقة وحاربتِ الإسلام واللغة العربيَّة بضراوةٍ..

متابعة التيارات العلمية المختلفة في العلوم الإنسانية والاجتماعية بالاطلاع على جميع ما يصدر من كتب باللغات الغربية؛ ثم إيجاد المصطلحات اللازمة لنقل أجهزة المفهومات المتجددة والمتحولة من كل لغة من اللغات الأصلية (الإنجليزية والفرنسية والألمانية خاصة) إلى العربية) (1)

وهكذا كان عند زيارته لأمريكا يتكلم بالإنجليزية، ويكتب بها، وفي إقامته بفرنسا يكتب بالفرنسية، ويتحدث بها، أما عند زيارته لموطنه في المغرب العربي، فقد كان يحاضر ويفضل الحوار والتكلم مع الآخرين باللغة الفرنسية.

وليته كان يفعل ذلك لنفسه ويكتفي به، بل كان ينشر في كل محل يذهب إليه قيم الغرب ومناهج الغرب وطريقة تفكير الغرب، ويعتبر العربية تخلفا ورجعية، ويقول عنها: (يستطيع القاريء أن يدرك أسباب الفوضى الدلالية السائدة اليوم في اللغة العربية فيما يخص التعبير عن الحداثة الفكرية.. لهذا السبب لم نوفق بعد إلى إيجاد مصطلحات وافية سليمة للدلالة الفكرية الكاملة على مفهومات.. ولا يعني ذلك أبدا أن اللغة العربية غير قادرة على تأدية المعاني التابعة لتلك المفهومات؛ وإنما يعني أنها كسائر اللغات لها تاريخها الفكري الخاص، أي منظومتها الخاصة من الدلالات الحافة المرتبطة بالنزاعات الايديولوجية بين القوى الاجتماعية وأنها بحاجة إلى تطوير وتجديد.. ولا يعود هذا إلى أن اللغة العربية قاصرة عن ذلك... لقد قام الدكتور هاشم صالح باجتهاد مثمر في هذا الميدان وساهم مسامة جدية في إثراء اللغة العربية والفكر الإسلامي بتلك الأجهزة من المفهومات والاصطلاحات التي أشرت إليها كأجهزة لازمة لمن يريد التعرف النقدي على الفكر الإسلامي لا في مراحله التاريخية فحسب، بل أيضا في الممارسات المعاصرة المتعددة بتعدد الحركات الاجتماعية والسياسية التي تقدم

---

(1) تاريخية الفكر العربي الإسلامي لمحمد أركون، ص: 7..

نفسـها في معـاجم وتصـورات إسـلامية... لقـد ألححت على هاشم صالح حتى يكثر من الشروح والتعليقـات في هـوامش الصـفحات لكي يسـاعد القـاريء على الفهم الـدقيق وينقـذه من سـوء الفهم والتـورط في أحكـام سـريعة على أشـياء لم يعرفها حق المعرفة)[1]

وليت موقفـــه اكتفى بالعربيـــة كوســـيلة من وســـائل الاتصال، بل إن موقفه راح للمصادر المقدسة نفسها، يطبــق عليها كل المناهج الغربية، ليفرغها من مضمونها.

بل إنه راح يسخر من الفرنسيين الـذين درسـوا القـرآن الكـريم بصـدق، وراحـوا يـذكرون شـهادتهم في ذلـك، ومنهم الطبيبُ الفرنسي [مـوريس بوكـاي] صـاحب كتـاب [القـرآن والكتاب المقدَّس والعلم]، والذي ألفـه في أواخـر سـبعينيَّات القـرْن العشـرين، والـذي عـرض فيـه الكتُب السـماوية على الحقائق العلميَّة والذي وصل من خلاله إلى أنَّ التحريف طال التوراةَ والإنجيل، بينما تتوافق الحقائقُ القرآنية مع المنتجـات العلمية ولا تتعارض معها.

وكان الموقف الأصلي الذي يتخذه كل باحث صادق، هـو أن يذهب إليه، ويستفسره عن هذا الموقـف، لكن أركـون لم يفعل ذلك، وإنمـا راح يسـخر منـه، على الـرغم من الشـهرة الكبيرة التي نالها الكتاب وصـاحبه، والـتي لم تعجب أركـون، بـل علـق عليهـا بقولـه: (إنَّ بوكـاي ألَّف هـذا الكتـاب تزلُّفًـا للمسلمين)

ولم ينس أنه هو من يؤلف كتبه تزلفا للفرنسيين، بل قد صرح بذلك مرات كثيرة في كتبه، فقد قال يتحدث عن نفسه في سيرته الذاتية: (يقولون ـ أي الغربيين ـ لي مسـتغربين أو مدهوشين: كيف يمكن لشخص مسلم مثلك أن يتحدث بهـذه الطريقة؟ ياله من شيءٍ رائعٍ وباعث للأمل؛ أن نسمع مسلماً ليبراليّـاً أو متحـرراً مثلـك .. ولكن لا يمكن أن تحظى بصـفة

---

[1] تاريخية الفكر العربي الإسلامي،ص:8-9.

تمثيلية في بلادك، أو بين أبنـاء دينـك، فخطابـك يمشـي على عكس التيار، أو عكس الإسلام)[1]

وقد كان جزاؤه من الدوائر التي استنبتته، تلـك الشـهرة العظيمة التي نالها، والتي لم تجعل منه مثلما جعلت من طـه حسـين عميـدا للأدب فقـط، وإنمـا جعلتـه مجـددا ومفكـرا إسلاميا عريقا، مع كون كتاباته، وخاصة بلغتها الأصـلية تحمـل كل ألوان الإلحاد والتبرؤ من الدين ومقدساته[2].

ومن العجيب أن نجد في بعض الصحافة السـعودية بعـد وفاتـه أمثـال هـذه التعقيبـات الـتي أوردتهـا كـبرى الجرائـد السعودية جريدة [الشرق الأوسط][3] ، والتي جاء فيهـا قـول بعضهم: (أعتقد دون مبالغة أن أركون المجدد الأكبر للإسـلام في عصـرنا الـراهن.. وأن أركـون أحـد حكمـاء المسـلمين الكبار)

وفي جريد [الوطن]: (أركون من الكبار الذين كانوا يجاهدون في بث النور، وإحلاله محل الظلمة الكالحة في عالمنا العربي)[4]

وفي جريدة [الرياض]: (أركون أول من قدم نقدا للتفكير الخرافي المعارض للمعرفة، وبدد هيمنة الأسطورة

1() قضايا في نقد العقل الديني؛ لمحمد أركون (22)، ترجمة: هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، ط أولى، 1998م.

2() من الأمثلـة على تلاعب المـترجمين لـه بالعربيـة وفي (قـراءات للقـرآن) بالفرنسية جاء عنوان الفصل الثـاني كالتـالي [le problème de l authenticité divine du Coran" ; p27]، لكن عربه هاشم صالح بـ [موقـف المشـركين من ظاهرة الوحي] [القـرآن من التفسـير المـوروث...ص 93]، مـع أن الترجمـة العربيـة الأقرب للعنوان الفرنسي هي : (معضلة توثيق نسبة القرآن الى الله)

3() الشرق الأوسط، 16، 17 أيلول 2010.

4() الوطن، 18 أيلول 2010.

في العقل العربي-الإسلامي)[1]

وفي جريدة [الحياة]: (عمل محمد أركـون طـوال أكـثر من نصـف قـرن على تقـديم قـراءة جديـدة للإسـلام، قـراءة تستند إلى مرجعيات ومناهج علمية)[2]

وهكذا لا تـزال الجرائـد والمجلات والمـؤتمرات والإعلام العربي يثني عليه، في نفس الوقت الـذي يصـب جـام غضـبه على ضحايا الإجرام الفرنسي، سواء من أولئك المستضعفين المظلومين، أو من أولئك المحتقرين من المثقفين والــذين لا يهتم بهم أحد إلا إذا خلطوا كلامهم بلغة المسـتعمر، وطريقـة تفكيره.

1() الرياض، 16 أيلول 2010.

2() الحياة 16 أيلول 2010.

احذروا القنابل الصوتية

يتصـور الكثـير أن القنابـل الخطـيرة هي تلـك القنابلـة النووية أو الهيدروجينية أو الذكية، تلك التي تمتلكهـا إسـرائيل وأمريكا وجميع محور الشر.. وينسون أن هنـاك قنابـل أخـرى أكثر خطرا، تدخل كل بيت، وتحاول الوصـول إلى كـل عقـل، لتفعل فيه ما لا تفعله القنابـل النوويـة نفسـها، لأنهـا لا تقتـل الجسد فقط، وإنما تقتل الروح أيضا.

ومصادر تلك القنابل هي نفس الدول التي تشن حملتهـا على المستضعفين في اليمن وسـورية وكـل بلاد اللـه.. وهي نفسـها الـتي تنعت المقاومـة في فلسـطين ولبنـان والعـراق واليمن بكونها مليشيات إرهابية.. وهي نفسها التي تصـدر لنـا كـل ألـوان العهـر والفجـور والمجـون، لتقضـي على أخلاق شبابنا كما تقضي على عقولهم.

وخطرها يتجاوز بكثير خطر تلك القنابل الصوتية البدائية التي كانت تصدر لنا التطرف والعنف والإرهاب.. ذلك أن تلك القنابـل أمكن تفكيكهـا ومواجهتهـا، وهي الآن خـردة قديمـة أمام هذه القنابل الجديدة.

فالقنابـل الجديـدة لا تسـتعمل الـدين مطيـة للتطـرف والعنف وقض مضاجع الأنظمة، وإنما تُستعمل لتخريب الـدين نفسه.. ووسيلتها إلى ذلك بسـيطة جـدا، فهي تغـازل بلطـف أنانية الإنسان وكبرياءه ومحبته للتميز والظهور، لترضـي كـل ألوان غروره.

فهي تجعــل من كــل من هب ودب مجتهــدين وفقهــاء ومفسرين ولغويين ومحدثين وما شئت من الألقاب، من غـير ممارسة قراءة، ولا تعب تأمل، ولا بحث ولا اجتهاد ولا نظر..

بـل يكفي فقـط أن يضع عقلـه عنـد محمـد شـحرور أو عدنان إبراهيم أو إسلام البحيري أو غيرهم كثير من الذين لم يتركوا شيئا إلا انتقدوه وناقشوه.. ليخرج بعد ذلـك، ومن غـير

بحث ولا عناء ولا تأمل أستاذا في فن النقد والهدم والتدمير.

لتفاجأ به يناقش كل شيء، ويحشر أنفه في كل مسألة؛ فإذا ما قيل له: هل قرأت شيئا؟.. أو كيف وصلت إلى هذه الفكرة؟.. أو كيف اقتنعت بهذه القناعة؟.. أخرج لك تسجيلا صوتيا، أو قنبلة من قنابل اليوتيوب الكثيرة، ويذكر لك أن هذا هو مصدر أفكاره.

فإذا ما قلت له: الأمر أخطر مما تتصور، فالبت في القضايا العلمية الكبرى لا يمكن أن يكون بهذه الطريقة، ولا بد أن تمر بمراحل كثيرة حتى تخرج لنا برأيك واجتهادك، أما أن تناقش بما وصل إليه غيرك، فليس لك ذلك، وليس ذلك من العلم.

إذا قلت له هذا أعرض عنك، واتهمك بما شاءت له أهواؤه من التهم.. وهو يتصور نفسه فوق ذلك تنويريا، وهو ليس إلا متطرفا جديدا لا يقل عن المتطرف الذي ينتقده، أو يحرض عليه، أو يتصور نفسه بمنجاة منه.

وقد حذر القرآن الكريم من هذا الصنف من القنابل، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (205) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: 204 - 206]

فهذه الآيات الكريمة تنطبق تماما على هذه القنابل الصوتية، ومن يؤيدها وينصرها، وينشر أفكارها الهدامة، لأنها تعلم اللدد في الخصومة، ثم تنشر بعد ذلك كل القيم التي تتسبب في هلاك الحرث والنسل.

فهي تنشر قيم التلاعب بالألفاظ القرآنية، والتي هي المقدمة الكبرى لتحريف معانيه.. وهي تنشر احتقار السنة المطهرة، وتنشر معها احتقار رسول الله ﷺ ، والتحكم في تصرفاته وأقواله وتأويلها بكل ما تقتضيه الأهواء.

ولا تكتفي بذلك، بل تذهب إلى كل القيم والعقائـد الـتي تعــارف عليهم المســلمون لتناقشــها، وتلغيهــا بجــرة قلم، وتتصور أنها وصلت إلى ما لم يصل إليه الأوائل والأواخر.

وهكــذا كــان تــأثير هــذه القنابــل في مجتمعاتنــا، وبين شبابنا، والذين لبسوا تطرفا جديدا، بدل التطرف القديم.

وقد يقال هنا: ليس لنا بد من الاستماع.. فنحن لا نملــك القدرة على البحث والمطالعة، ولذلك نكتفي بما تجـود علينـا به القنوات أو المواقع من أشرطة سمعية وبصرية؟

والجواب عن هذا بسـيط جـدا، ومنطقي جـدا، فالعاقـل الـذي يتقي اللـه، ويحـرص على مصـيره في الآخـرة، يكتفي بمن يذكره بربه، وبالقيم النبيلة الـتي جـاء بهـا دينـه، ويملـؤه مخافة على مصيره، وحرصا عليه حتى لا يعبث به العــابثون.. مثلما كان يفعل العلماء والربانيون، والذين لا يزال لهم وجود كبير، ولكن النـاس أعرضـوا عنهم، وراحـوا إلى تلـك القنابـل الصوتية، حتى يتحول الجميع إلى علماء من غير معانــاة بحث ولا نظر.

ومن أول علامات أولئك العلماء أنهم لا يلقون للعامة إلا مـا يفيـدهم في دينهم، فهم يكتفـون بقـراءة القـرآن الكـريم وتفسـيره، أو شـرح الحـديث النبـوي الشـريف وملأ القلـوب والعقول من خلاله محبة لرسول الله ﷺ.. أو ذكـر الصــالحين وجعلهم أسوة للمهتدين..

أما غيرهم، أصحاب القنابل الصـوتية، فهم الـذين حولـوا المنــابر الــتي تتــاح لهم لنشــر الهدايــة، إلى ماحــل لتمجيــد الملاحدة، وإنكار عذاب القبر، والترغيب والـدفاع عن نظريــة التطور، واحتقار كل علماء الأمـة وصـالحيها، وبـذلك أصـبحت تلك المنابر منابر هدم، لا منابر بنـاء، وأصـبحت منصـة لإنتـاج الغرور والمغترين، لا لإنتاج المتدينين المتأدبين المتواضعين.

نحن لا نقـول هـذا لنلغي البحث والفكـر والنظـر.. ولكن لنقـول لأولئـك المغـترين الـذين تصـوروا أنهم ـ باسـتماعهم

لبعض السلاسل الصوتية، أو البرامج الإذاعية والتلفزيونية قد صاروا باحثين ومجتهدين وعلماء ــ : كفوا عن ذلك، فالعلم يحتاج إلى جهد كبير، وتأمل عظيم، وقراءة كثيرة، وليس هو لكل كسول يتصور أنه يمكن أن يفهم كل شيء من غير بحث ولا دراسة ولا نظر.

أما الاستماع، فخصصوه للعلماء الربانيين لتسفيدوا منهم التقوى والصلاح، والأخلاق والأدب، وإن شئتم أن تتعلموا المعارف العلمية، فهناك أشرطة علمية وثائقية كثيرة يمكنها أن تنمي معلوماتكم وثقافتكم، وفي نفس الوقت تعرفكم بخلق الله وعظمته.. وهي أجدى لكم من أولئك الذين ينعقون فيكم بما لا تطيقونه، ولا تطيقه عقولكم.

ورحم الله الشيخ محمد أبا زهرة ذلك العالم الجليل صاحب المصنفات الكثيرة الممتلئة بالعلم النافع، والذي كان في غاية التواضع، والذي لم يصدم الأمة بأي شيء يهز ثوابتها إلا أنه ـ وفي مؤتمر علمي ـ وبين العلماء والمختصين، لا بين عامة الناس، ولا في أي قناة فضائية ـ راح يقول لهم، وبكل تواضع وأدب[1]: (إني كتمت رأيًا فقهيًّا في نفسي من عشرين سنة، وكنت قد بحت به للدكتور عبد العزيز عامر)، ثم راح يخاطبه قائلا: (أليس كذلك يا دكتور عبد العزيز؟)، قال: بلى.. ثم قال الشيخ، هو ممتلئ حياء وتواضعا: (آن لي أن أبوح بما كتمته، قبل أن ألقى الله تعالى، ويسألني: لماذا كتمت ما لديك من علم، ولم تبينه للناس)

ثم راح يذكر القضية التي كتمها عشرين سنة، ولم يقلها إلا بعد بحث طويل، ونظر عميق، وأمام كبار العلماء والمختصين.. وهي قضية بسيطة جدا مقارنة بالقضايا التي تطرح اليوم، فقد ذكر موقفه من رجم المحصن في حد الزنى، حيث رأى أن الرجم كان شريعة يهودية، أقرها الرسول ﷺ في أول الأمر، ثم نسخت بحد الجلد في سورة

[1] () وذلك في مؤتمر ندوة التشريع الإسلامي المنعقدة في مدينة البيضاء في ليبيا عام (1972).

النور.

ثم راح يــذكر أدلتــه العلميــة عليهــا بالتفصــيل، وأمــام المختصين، وبكل تواضع.

قارنوا هذا الموقف بأولئك الذين يخرجون علينا كل يــوم بمقولــة جديــدة لا تتعلــق بفــروع الــدين فقــط، وإنمــا تتعلــق بأصوله أيضا.. بل تتعلق بأصــول أصــوله.. ثم لا يــذكر لهــا أي دليل، ولا يستدل لها بأي حجــة إلا برأيــه المجــرد الــذي يلقيــه بكل غرور وكبرياء، ثم يقــول للنــاس: لا شــك أن المتطــرفين سيكفرونني.. ويتباهى بــذلك، ولا يخشــى أن تكــون الشــريعة نفسها هي التي تكفره.. لا المتطرفون فقط..

لأن دين اللــه أعظم من أن يكــون شــرعة لكــل وارد، ولعبة لكــل أفــاك أثيم، يســتمع لــوحي الشــياطين، ثم يــذهب لدين الأمة يخربه، ويهدم أصوله وفروعه.

التنويريون .. وتأليه الإنسان

القاسم المشترك بين التنويريين جميعا هو ذلك التضخيم للإنسان، واعتباره مركزا للكون كله، بل مركزا للوجود بحد ذاته، بحيث يكادون يلغون الله نفسه من أجل الإنسان.

وهم في ذلك يرددون بطريقة غير مباشرة ما ردده قبلهم [جان بول سارتر] زعيم الوجودية الأكبر الذي عبر عن نفوره من مزاحمة الله لوجوده، كما يعتقد، فقال: (مرة واحدة شعرت بأن الله موجود حين كنت ألعب بعيدان الكبريت، وأحرقت سجادة صغيرة، وفيما كنت أخفي جرمي أبصرني الله فجأة.. لقد شعرت بنظراته داخل رأسي.. أحسُ أنني مرئي منه بشكل فظيع، وشعرت بأنني هدف حي للرماية، ولكن الإستنكار أنقذني، فقد اغتظت لفضوله المبتذل، لهذا رفضته وجدفت عليه فلم ينظر إليَّ أبدًا فيما بعد)[1]

وقال معبرا عن هذه النظرة بصيغة أشد جزما: (إذا انفجرت الحربة مرة أخرى في روح الإنسان، لم يبق للآلهة على هذا الإنسان أي سلطة)، وقال: (إذا كان الله موجودًا فالإنسان عدم)، وقال: (إن وجود الله يعطل وجودي أنا، فالأفضل أن لا يكون الله موجودًا حتى أوجد أنا)

وقال في مسرحية [الشيطان والإله الطيب]: (لم يكن هناك غيري، لقد قررت وحدي الشر، ووحدي اخترعت الخير، أنا الذي عشت، أنا الذي أفعل المعجزات، أنا الذين أتهم نفسي، وأنا وحدي من أستطيع الغفران لنفسي، أنا الإنسان، إذا كان الله موجودًا فإن الإنسان هو العدم)[2]

---

1) نقلا عن: القس أنجيلوس جرجس، وجود الله وصور الإلحاد 85.

2) الشيطان والإله الطيب ص 131.

ونفس التعبير ذكره رائد التنوير الأوروبي [فويرباخ] الذي قال: (إن نقطة التحول الكبرى في التاريخ ستكون في اللحظة التي سيعنى فيها الإنسان إن الإله الوحيد هو الإنسان نفسه)، وقال: (الإنسان الذي يؤمن بالله لا يؤمن بنفسه، فالله هو الإنسانية لا أكثر ولا أقل، والدين يجب أن يموت، فيقوم على أنقاضه عالم على مقاييس الإنسان، الذي يلزمه أن يكون إله نفسه)(1)

ومثلهما قال [ميخائيل باكونين] صاحب الفكر المتمرد على كل شيء: (إذا كان الله موجودًا فلست بحر، أنا حر فالله إذا غير موجود)، وقال: (تتألف حرية الإنسان من مُجرد التالي: أن يُطيع قوانين الطبيعة لأنه أدركها بنفسه على هذا النحو، وليس لأنها فُرضت عليه بواسطة سلطة خارجية، بشرية أو إلهية، جماعية أو فردية)، وقال: (تتضمن فكرة الإله التخلي عن العقل والعدالة، إنها النفي الأكثر حسماً للحرية الإنسانية. وتنتهي بالضرورة إلى إستعباد الجنس البشري في كل من النظرية والتطبيق)(2)

هؤلاء بعض الذين صرحوا بإلحادهم من أجل الحفاظ على وجودهم في مقابل الله الذي يتصورون أن اعتقادهم بوجوده يلغي وجودهم.. ولعل فرعون كان منهم ومعهم حين راح يزعم لنفسه أنه هو الله، ويصيح في المصريين قائلا: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ [النازعات: 24]، وقائلا: ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: 51]

وقد كان هؤلاء مع إلحادهم الشديد أكثر صدقا وصراحة مع أنفسهم من الكثير من التنويريين والحداثيين الذين راحوا يستعملون المصادر المقدسة نفسها، ليجعلوها رغما عنها

---

1) انظر: رحلة في قلب الإلحاد.

2) انظر هذه النصوص وغيرها كثير في كتاب [ما قاله الملاحدة ولم يسجله التاريخ]

تردد ما ردده جان بول سارتر، وفويرباخ، وميخائيل باكونين.

فقد حولوا المركزية في الكون والوجـود من [اللـه] إلى [الإنسان].. فالإنسان عنـدهم هـو الهـدف، وهـو الغايـة، وهـو المبتدأ، وهو الخبر، وهو البداية وهو النهاية.. أما اللـه عنـدهم فهـو مجـرد ظـل للإنسـان.. وليس عليـه أن يملي شـيئا، وإن أملى عليه شيئا؛ فيمكن للإنسـان أن يتمـرد عليـه إن رأى أن ذلك ليس لصالحه.

وبهذا المفتـاح يمكننـا أن نفتح جميـع أبـواب التنـويريين، وأن نفهم جميع مشاريعهم.. فمشاريع حسن حنفي كلها مهما اختلفت عناوينها تصب في نزع مركزيـة الكـون والوجـود عن الله، لوضعها في يد الإنسان.

فهو في مشروعه [من العقيدة إلى الثورة] يقـول: (إذن عبارات ؛ الله عـالم، اللـه قـادر، اللـه حي، اللـه سـميع، اللـه بصير، الله متكلم، الله مريد، إنما تعكس مجتمعا جاهلاً عاجزاً ميتا لا يسـمع ولا يبصـر ولا يتكلم، مسـلوب الإرادة، وبالتـالي يكشف الفكر الديني الذي يجعل الله موضوعا في قضـايا من هذا النوع عن الظروف الإجتماعية والسياسـية الـتي يعيشـها المجتمع الذي تطلق في أمثال هذه القضايا، فاللـه كموضـوع في قضية خير مشجب لأمـاني البشـر، وأصـقل مـرآة تعكس أحلامهم وأحباطاتهم)

وهــذه العبــارة تعــني أن ذلــك الاهتمــام الــذي يوليــه المؤمنون لربهم، بـل يجتهـدون في إفنـاء أفعـالهم وصـفاتهم وإراداتهم بــل حــتى ذواتهم في ســبيل التقــرب إلى ربهم.. ليسـت معـان روحيـة سـامية، وليسـت ذوقـا إنسـانيا رفيعـا، وليست حقيقة وجودية مطلقة.. وإنما هي عنـد حسـن حنفي كما عند التنويريين هروب من الإنسان والظروف التي تحيـط به، والتي عليـه أن يسـيطر عليهـا، ولا يمكن أن يحصـل ذلـك عندهم إلا بعد أن يفني الإنسان ذاته في ذاته لأجل ذاتــه، من دون اعتبار لربه، فهو رب نفسه، كما يقول الوجوديون.

والإشكال الذي ذكرناه، والذي جعل من التنـويريين ومن تعلـق بهم أخطـر من الملاحـدة أنفسـهم هـو ذلـك التأويـل للمقدس لينسجم مع هذه الأهواء.

وكمثال على ذلك أن مـا يـردده حسـن حنفي كثـيرا في كتبـه ومحاضـراته من قولـه: (ليس القـرآن كتـاب تحليـل وتحريم، بل كتاب فكـر .. وليس الغـرض منـه تغليـف العـالم بقوانين وتقييد السلوك الإنساني بقواعد بل مساعدة الطبيعة على الازدهار والحياة على النماء.. وما أسهل أن يولد الـدفاع عن حق الله دفاعا مضاداً عن حق الإنسان)

ونجد نفس الدعوة عنـد زعيم الحـداثيين الأكـبر [محمـد أركون] الـذي جعـل كـل همـه إزاحـه اللـه من الـدين، ليحـل الإنسان بدله، وتصبح المركزية للإنسان بدل الله.. وقـد كـان من أوائل ما كتبه في هذا رسـالته في الـدكتوراه من جامعـة السوربون عام 1969م، والتي تحمل عنوان [نزعـة الأنسـنة في الفكر العربي، جيل مسكويه والتوحيدي]

وقد راح هو الآخر يستعمل القـرآن الكـريم لتحويلـه من كتاب إلهي مقدس يجب التسليم له، والخضـوع لأوامـره إلى كتاب إنساني، ونتاج بشري، خاضع للمناقشة، ويمكن للـزمن والبيئة أن تؤثر فيه، وفي كل المفاهيم التي جاء بها، وقد قال معبرا عن ذلـك بكـل صـراحة: (إن القـرآن ليس إلا نصـاً من جملـة نصـوصٍ أخـرى، تحتـوي على نفس مسـتوى التعقيـد، والمعـاني الفـوّارة الغزيـرة: كـالتوراة والإنجيـل، والنصـوص المؤسِّسَة للبوذية أو الهندوسية، وكلُّ نصٍّ تأسيسي من هـذه النصوص الكبرى؛ حَظِيَ بتوسعاتٍ تاريخيةٍ معينة، وقد يحظى بتوسعاتٍ أخرى في المستقبل)[1]

وهو لهذا يدعو إلى قراءة القرآن الكـريم قـراءة جديـدة بعيدة عن كل المفاهيم التي تعلق بهـا المسـلمون في جميـع عصورهم، والتي جعلتهم ـ حسب تصوره ـ يتخلفون عن ركب

---

[1] الفكر الأصولي؛ لمحمد أركون (36)

الأمم، فيقول متأسفا: (وهذا التأخر يعكس التفاوت التاريخي، بين المجتمعات الإسلامية، والمجتمعـات الأوربيـة أو الغربيـة. فـالقرآن لا يـزال يلعب دور المرجعيـة العليـا المطلقـة، في المجتمعات العربية والإسلامية. ولم تحلَّ محلّـه أيّـة مرجعيّـة أخرى حتى الآن .. إنه المرجعية المطلقة، التي تحـدد للنـاس ما هو الصَّح، وما هو الخطأ، ما هو الحق، ومـا هـو الشـرعي، وما هو القانوني، وما هي القيمة)[1]

ولهذا فإن القراءة الصحيحة عنـده للقـرآن، والـتي تعيـد مركزية الإنسان هي أن (ننظر إلى القرآن من خلال مقارنتـه مع الكتب المشـابهة لـه في الثقافـات الأخـرى ــ أي التـوراة والإنجيل ـ، فالمقارنة هي أساس النظر والفهم) [2]

وهكـذا نجـد كـل التنـويريين يشـيدون بالإنسـان باعتبـار المركز ، لا باعتباره مجرد كائن من الكائنات التي خلقها اللـه تعالى لتؤدي وظائفها في هـذا الوجـود مثـل سـائر الكائنـات، وأول وظائفها تعرفها على ربها، وعبوديتها له.

ومن الكتابات التي كتبت أخيرا في هذا ما كتبه التونسي [عبـد الوهـاب بوحديبـة] في كتـاب لـه بالفرنسـة بعنـوان [الإنسان في الإسلام]، والذي انطلق فيـه من أنّ (المشـروع الإسـلامي قـائم على نظـرة إنسـيّة إضـافة إلى التعـالي أو المفارقة الإلهيّة، وأن الله أمام الإنسان لا في تقابليّـة ضـديّة أو في علاقة عبوديّة بسيطة بـل في اسـتخلاف حقيقي لبـني آدم، استخلاف قوامه الحريّة الأصليّة للإنسـان، وأنـه لا يمكن الفصـل بين الإسـلام كـدين والإسـلام كثقافـة وحضـارة، فالاعتقاد قد تجلّى في التاريخ وبتجليه يمتزج ضرورة بالثقافة فلا عقيدة خارج الثقافة أي الإنتاج المعنوي للإنسان ولا ثقافة في تاريخ الإسلام دون استحضار وتأويل للنصّ الديني، فـاهتمّ بوحديبـة ببعض النمـاذج لمـا يسـميه بالمشـروع الإنسـي في

1() الفكر الأصولي؛ لمحمد أركون (22)

2() الفكر الأصولي؛ لمحمد أركون (22)

الإسلام من خلال نصوص القرآن والسنّة واجتهاد الفقهاء وظرف الأدباء ونظر الفلاسفة وتأمّل المتصوّفة... فيما يعتبره أمثلة عن المشروع الإنساني الكبير، وكأن الكتاب يحاول أن يضع الإسلام في دور وظيفي للمشروع الإنساني بغض النظر عن الموقف العقدي المدعى من الدين، وتؤول نصوص الإسلام وتراثه من زاوية الإنسان المحور) [1]

هذه مجرد أمثلة عن بعض كتابات الحداثيين حول هذا المعنى، وهو ليس سوى ترديد لتلك الصيحات التي رددها الملاحدة، ولكن بصيغة أخرى أكثر تهذيبا، وأقل تشنيجا للمخالفين، ولو أن النتيجة في كليهما واحدة.

وتلك النتيجة خطيرة جدا، لأنها تسلب عن الإنسان حقيقته وكمالاته وتجعله ممتلئا بأنانية مقيتة يغض الطرف خلالها عن كل ما حوله من كائنات ليحصر همته في النظر إلى مرآة نفسه، أو كما ذكر ملهمهم سارتر أنه عندما توفي والده هنأ نفسه بموته، لشعوره بتحرره منه، وقد قال في ذلك: (لو كان أبي حيًا لكان تمدَّد عليَّ بملء قامته وسحقني، ولحسن حظي مات أبي عندما كنت صغيرًا.. إن موت جان باتسيت (والده) كان الحدث الأهم في حياتي، لقد أعاد إليَّ حريتي)[2]

وهكذا كان ينظر بعين الريبة للذين يبدون له مودتهم ومحبتهم، فقد كان يقول عنهم: (إننا منذ الآونة التي نشعر فيها بأن إنسانًا آخر ينظر إلينا، إنما نشعر أيضًا بأن الآخر يسلبنا عالمنا على نحو من الأنحاء، هذا العالم الذي كنا نمتلكه وحدنا حتى هذه اللحظة)، وقال: (إنني ابتداءً من الآونة التي أشعر فيها أن أحدًا ينظر إليّ، أشعر أنني سلبت عن طريق نظر الآخر الموجه إليّ وإلى العالم، إنّ العلاقة

---

[1] () انظر مقالا بعنوان: مقاربات الإنسان في الإسلام: بين هموم الأيديولوجية والمعرفة، عبد الرحمن حللي، مجلة الملتقى..

[2]) الإلحاد.. نشأته وتطوُّره ج 1 ص 169.

بيننا وبين الآخرين هي التي تخلق شقاءنا)

والملاحـــدة والحـــداثيون يتصـــورون أنهم بهـــذا الطـــرح يحرررون الإنسان من أي سـلطة خارجيـة تتحكم فيـه، لكنهم ينســـون أنهم بهـــذا الســـلوك يخرجـــون الإنســـان من دائـــرة الســـلطة والحكم الإلهي إلى دائـــرة حكم الهـــوى، وســـلطة الشياطين.

وهم بذلك لن يكسبوا الإنسان، وإنمـا سيخسـرونه، لأنـه يستحيل للإنسان أن يكون إنسانا ويتحقق بمعاني إنسانيته ما لم يكن مسـلما تسـليما مطلقـا للـه، مثلمـا يسـلم الخليفـة للمستخلف.

بالإضافة إلى كونهم ـ بذلك ـ يقصرون الإنسان على هذا الجسد الفاني، وتلك النفس الأمـارة.. أمـا المعـاني الروحيـة السامية، فلا وجود لها في قواميسهم، لأنه لا يعرفهـا إلى من أفنى ذاته في ذات الله، وفـر إلى اللـه من نفسـه، كمـا قـال تعـالى: ﴿فَفِـرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْـهُ نَـذِيرٌ مُبِينٌ (50) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَـذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الـذاريات: 50، 51]

ولن يفهم الإنســـان إلا من تـــرك ذاتـــه وهـــاجر إلى اللـــه ورسـوله، وردد مـع إبـراهيم عليـه السـلام: ﴿إِنِّي مُهَـاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: 26]

ولن يفهم الإنسان إلا من عجل بالرحلة إلى اللـه، لينـال المواهب الحقيقية التي تجعل روحـه تسـمو إلى علـيين، كمـا قـال موسـى عليـه السـلام: ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْـكَ رَبِّ لِتَرْضَـى ﴾ [طه: 84]

ولهذا، فإن أول ما يخسره هؤلاء الحداثيون هو أنفســـهم وحقيقتهم ووجودهم، لأنـه لا وجـود لهم من دون وجـود اللـه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَـالُهُمْ كَسَـرَابٍ بِقِيعَـةٍ يَحْسَـبُهُ الظَّمْآنُ مَـاءً حَتَّى إِذَا جَـاءَهُ لَمْ يَجِـدْهُ شَـيْئًا وَوَجَـدَ اللَّهَ عِنْـدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَـابَهُ وَاللَّهُ سَـرِيعُ الْحِسَـابِ (39) أَوْ كَظُلُمَـاتٍ فِي

بَحْـرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَـاهُ مَـوْجٌ مِنْ فَوْقِـهِ مَـوْجٌ مِنْ فَوْقِـهِ سَـحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: 39، 40]

وأعظم ما يخسره هـؤلاء التنويريـون الـذين جعلـوا كـل همهم عشق أنفسهم ومحبتها والوله بها، ذلـك المعـنى الـذي ذكره اللـه تعـالى عن عبـاده المؤمـنين، فقـال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُـوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: 165]

ولـذلك لن يتـذقوا أبـدا من ذلـك الشـراب الـذي شـربه المؤمنــون بعــد فنــائهم عن أنفســهم، وســباحتهم في بحــار المحبة الإلهية مخاطبين الله تعالى بقوله:

والله ما طلعت شمسٌ إلا وحبّك مقرون
ولا خلوتُ إلى قوم إلا وأنت حديثي بين
ولا ذكرتك محزوناً ولا إلا وأنت بقلبي بين
ولا هممت بشرب الماء إلا رَأَيْتُ خيالاً منك

ولــذلك تظــل الكآبــة والإحبــاط وكــل الآلام النفســية تلاحقهم، لأن في (القلب شعث، لا يلمه إلا الإقبال على اللـه. وفيه وحشة، لا يزيلها إلا الأنس به في خلوتـه، وفيـه حـزن لا يذهبـه إلا السـرور بمعرفتـه وصـدق معاملتـه، وفيـه قلـق لا يسـكنه إلا الاجتمـاع عليـه، والفـرار منـه إليـه، وفيـه نـيران حسرات: لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيـه وقضـائه، ومعانقـة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيـه طلب شـديد: لا يقـف دون أن يكون هـو وحـده مطلوبـه، وفيـه فاقـة: لا يسـدها إلا محبته، والإنابة إليـه، ودوام ذكـره، وصـدق الإخلاص لـه. ولـو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة منه أبدا)[1]

---

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (3/ 156)

القسم الثاني

شخصيات .. ومشاريع تنويرية

أركون .. وفزاعة المناهج الغربية

يعتبر المفكر الجزائري الكبير محمد أركون (1927-2010) من أكثر التنويريين شهرة على المستويات العربية والعالمية، ولا يمكن لأحد من الناس أن يقلل من شأنه، وشأن الجديد الكثير الذي جاء به، والذي جعله يجلس على عرش الحداثة والفكر الحداثي، بل جعل الكثير من كبار الحداثيين والتنويريين يجثون أمامه، وأمام المنابع التي نهل منها، كما يجلس الحواريون أمام النبي، يسلمون لكل ما يقول، ويخضعون لكل ما يقرر.

وقد ألفوا حوله الكتب الكثيرة [1] وأحاطوه بهالة إعلامية عظيمة، وأقاموا حول كل فكرة من أفكاره المؤتمرات التي تبشر بها، وتدعو إليها.

وفي حياته أتاحوا له أن يحاضر في عشرات الجامعات الأوروبية، والأمريكية، والعربية والإسلامية .. وحتى في اليابان والهند.. بل إنه درّس في الولايات المتحدة الأمريكية، كما شغل منصب أستاذ تاريخ الفكر الإسلامي بجامعة (السوربون).. كما كان مديرا لقسم الدراسات العربية والاسلامية فيها، وكان مديرا لمجلة أرابيكا (مجلة دراسات عربية واسلامية)

وقد أثنى عليه جميع الحداثيين والتنويريين واعتبروه من العقول العملاقة، كما عبر عن ذلك علي حرب بقوله: (إننا نجد أنفسنا مع نص أركون إزاء سيل لا يتوقف من الإحالات إلى مختلف المراجع والمناهج، والاستشهاد بمعظم أعلام

---

[1] منها على سبيل المثال [نقد العقل الإسلامي عند محمد أركون]، لمحمد الفجار.. و[القرآن الكريم والقراءة الحداثية – دارسة تحليلية نقدية لإشكالية النص عند محمد أركون]، لحسن العباقي.. و[التراث والمنهج بين أركون والجابري]، لنايلة أبي نادر.. و[العقل الإسلامي أمام تراث عصر الأنوار في الغرب - الجهود الفلسفية عند محمد أركون]، لرون هاليبر.. و[الحداثة في فكر محمد أركون]، لفارح مسرحي.. و[العقل بين التاريخ والوحي – حول العدمية النظرية في إسلاميات محمد أركون]، لمحمد المزوغي.. وغيرها كثير.

الفكر المعاصر والاحتجاج بمختلف مجالاته)[2]

ومن خلال هذه الكلمات الـتي تعـبر عن حقيقـة الجديـد الذي جاء به أركون نريـد أن نناقش أطروحاتـه، وأطروحـات كل من تبعه وتأثر به.

فالجديـد الـذي جـاء بـه أركـون هـو محاكمـة المقـدس للمنـاهج الغربيـة، وذلـك عـبر الاحتيـال على القـراء حـتى لا يصطدمهم بموقفه الحقيقي من المقدس بتصويره أنـه ينتقـد العقل المسلم، حتى يتوهم القارئ البسيط أنه يقصـد العقـل الذي يستند للتراث بينما هو في حقيقة الأمر يقصد به العقـل الذي يستند للمقدس الذي يبدأ من القرآن الكريم..

وأول من يستند إليهم أركـون في هـذا النقـد [إيمانويـل كانط] ذلك الفيلسوف الألماني الذي ولد عام 1724م، وكان من ألمع فلاسفة عصـرالتنويرالأوروبي، والـذي شـهد لـه [وِل ديورانت] في كتابه (قصة الفلسفة) بأن فلسـفته كـانت لهـا السـيادة والنفـوذ في عصـر التنـوير، بحيث اسـتطاعت أن تتفوق على كافة الأفكارفي القـرن التاسـع عشـر، ذلـك أنهـا قضت على التطورالمنعزل للفكـرالعقلاني المتجـرد المـؤمن بسيادة العقل، لتعيـد إلى الإيمـان بالعقائـد والأديـان اعتبـاره بشكل مستقل، ومجرد عن العقل النظري.

وبعد انتقاده للعقل الخالص، اعتـبر أن الأديـان لا تسـتند لحقائق مطلقة، بل العقل لا يدل عليها، وإنمـا تسـتند لمجـرد الإيمـان الـذي هـو اختيـار نـابع من الإرادة، وليس نابعـا من التفكير.

وهذه نفس أطروحة أركون، والتي ينطلق منها بعد ذلـك لنقد المقدس والعقل الذي يستند إليـه، ذلـك أن نقـد العقـل يعني نقد كل البنيان الفكري الذي بني عليه.

ومن هنا كانت صعوبة محاورة أمثال هؤلاء، لأنهم ـ عنـد

---

[2] علي حرب، نقد النص ص 83.

الحوار ـ لا يلتفتون للأفكار؛ فيناقشونها وفق معايير محددة ثابتة، وإنما هم ينظرون من أبراجهم العاجية إلى المحاور لهم، ويسخرون من طريقة حواره وتفكيره نفسها.

وهم في ذلك يشبهون الحوار مع المحلل النفسي الذي لا يسمع للكلمات والأفكار المطروحة، بقدر ما يلتفت لحركات جسد محدثه، وملامح وجهه، ليصنفه بعد ذلك في أي خانة من خانات الأمراض النفسية.

وقد عبر علي حرب عن هذا المعنى عند ذكره لدور فلسفة كانط في توجيه الحداثيين إلى مناقشة العقول، بدل مناقشة الأفكار، فقال: (لا جدال في أن ما أتى به كانط هو عمل غير مسبوق يمتاز بالجدّة والأصالة، وتتجلى الأصالة أول ما تتجلى في النقلة التي أحدثها كانظ في مفهومه للنقد نفسه وفي ممارسته له بطريقة جديدة ومغايرة، ذلك أنه مع النقد الكانطي ننتقل من نقد (الكتب والمذاهب) إلى نقد (العقل نفسه) أي نتخطى نقد المعارف إلى نقد الآلة التي بها نعرف)

ولهذا وجد الحداثيون بمختلف مدارسهم الفرصة لنقد المقدس عبر نقد العقل الذي يؤمن به، وبذلك ينهار المقدس، لا من خلال مناقشة أطروحاته، وإنما من خلال مناقشة العقول التي تؤمن به، وتستند إليه.

ولهذا يمكن للمقدس ـ بحسب هؤلاء ـ أن يتحول إلى أي شيء، بحسب الطريقة التي يفكر بها الناقد، ولهذا نجد مشاريع مختلفة لنقد العقل، لأن كل واحد منها يستند لطريقة تفكير خاصة، أو لمدرسة نقدية خاصة.

وطبعا، فإن كل المدارس النقدية، أو المناهج النقدية، هي مناهج غربية، سواء كانت ذات توجه ماركسي، أو وجودي، أوظاهراتي، أو بنيوي، أوتفكيكي.. وغيرها.

ولهذا سمينا كل هذه الطروحات [فزاعة]، لأن أصحابها يطرحونها باعتبارها مناهج مقدسة، بل هي أكثر قداسة من

المقدس الذي يؤمن به المؤمنون، وسبب ذلك عندهم هو كونها مناهج غربية، وبما أن الغرب متطور ومتحضر ـ بسبب اعتماده في نقد المقدس على هذه المناهج ــ فنحن كذلك ـ كما يصورون ـ لا يمكن أن نتقدم أو نتطور من دون اعتمادها.

هذه خلاصة الطريقة التي يفكر بها أركون، ومن تتلمذ عليه من الحداثيين، ومن لم يتتلمذ، وقد عبر عن هذا المعنى بعض الباحثين أحسن تعبير، فقال: (.. من هنا كان مشروع الجابري وأركون في نقد العقل العربي الإسلامي، حيث تحول نقد التراث عبر مشروعهما، من نقد المسائل والمقولات التراثية إلى فحص وتحليل النظام المعرفي الذي أنتج تلك المسائل والمقولات، ومن مناقشة التصورات الدينية في التراث إلى مناقشة النظام الفكري العميق، أو الأنظمة الفكرية المنتجة للتصورات الدينية في التراث الإسلامي .. وهذا هو الانعطاف النقدي الجديد الذي حصل مع الجابري وأركون . وحين نقول نقد النظام أو الأنظمة، فهذا يعني أن الهدف هو دراسة المنهج، أي بنية العقل الديني وطريقة اشتغال آلياته وليس مضامين الشريعة والعقيدة بحدّ ذاتها، فمسائل الشريعة والعقيدة كما يقول أركون (قد تختلف، ولكن الجذور المعرفية واحدة)، أو بتعبير آخر؛ (ليس الاهتمام بالأفكار ذاتها، وإنما بالأداة المنتجة لهذه الأفكار)[1]

وأركون يذكر في مواضع كثيرة من كتبه تلك المناهج الغربية التي طبقها على الإسلام بمصادره المقدسة، وبفخر عجيب، وكأن الإسلام سيبقى متخلفا حتى يفهم على ضوء النظارات الغربية، والفهم الغربي، وكأن الغرب هو رمز الحضارة والقيم الممثلة لها، وهذا ما يدل على الانبهار والتقليد الذي يتميز به الحداثيون الذين يصورون أنفسهم مجددين، مع أنهم في الحقيقة ليسوا سوى مقلدين ومستهلكين للبضاعة الغربية.

---

[1] انظر مقالا بعنوان: بين أركون والجابري .. في نقد العقل العربي/ الإسلامي: قراءة تحليلية للأبعاد الفلسفية، عبد الله المالي.

ومن الأمثلة على ذلك قوله في بعض كتبه: (إن كل المسائل الحارقة التي دشّنها الاستشراق في بداية القرن العشرين ينبغي أن تُستعاد من جديد وتُدرس علي ضوء التعاليم المستحدثة للعلوم الإنسانية: كعلم الألسنيات الضروري جداً لدراسة النصوص المقدسة أو التراثية، وكعلم السيميائيات أو الدلالات اللغوية وغير اللغوية، وكعلم النفس التاريخي الذي ازدهر كثيراً في فرنسا داخل إطار مدرسة الحوليات الشهيرة، وكالنقد الديني، وكعلم الاجتماع الحديث، وكالأنتروبولوجيا... كل هذه العلوم ينبغي أن تُجيّش بمناهجها ومصطلحاتها من أجل تشخيص مشاكل التراث الإسلامي. بالطبع فإن المسلمين التقليديين سوف يحتجون ويغضبون مثلما احتجوا وغضبوا ضد الاستشراق الكلاسيكي ومنهجيته الفيلولجية - التاريخية التي تعود إلي القرن التاسع عشر)[2]

ومن العجيب أنه يصور غضب المسلمين، وكأنه ليس شيئا طبيعا، مع كونه لا يفعل إلا مثلما يفعل ذلك الأحمق الذي تطلب منه أن يضيف بعض الديكور على بيتك، فيذهب، ويهدمه جميعا، بحجة أن ديكوره لا يتناسب إلا مع بناء خاص.

وهكذا يفعل هؤلاء الذين يغالطون أنفسهم، والعالم بأن القيم الحضارية والتنوير لا يمكن أن يناله سوى من تخلص من دينه ومقدساته، وهدمها، ليبنيها على أسس الفكر الغربي، مثلما حصل للمسيحية التي تخلت عن الكثير من مبادئها إرضاء للعقل الروماني، كما قال شيخنا محمد الغزالي: (لست أدري هل ترومت المسيحية، أم تمسحت روما)

والمشكلة التي جعلتنا نعتبر التنوير الجديد مؤامرة على الإسلام، هي أن هؤلاء التنويريون لا يدلون بآرائهم فقط، باعتبارها آراء مجردة يمكن أن تناقش، وإنما هم يتعاملون معها باعتبارها حقيقة مطلقة، يستعملون كل الوسائل

---

(2) نقلا عن: نقد العقل التقليدي للإسلام.. المشروع الفلسفي الكبير لمحمد أركون:بقلم: هاشم صالح، الفجر نيوز، نشر في الفجر نيوز يوم 03 - 02 - 2008.

للدعوة إليها.

وهم يستثمرون في تلك الدول العربية التابعة للغرب، ليفرضوا عليها تعديل مناهجها التعليمية حتى تتناسب مع هذا الطرح التدميري للإسلام.

ولهذا نجد أركون يدعو إلى اعتبار التعليم بمراكزه المختلفة النواة التي ينشر من خلالها هذا النوع من التفكير.. وقد قال في بعض تصريحاته لمجلة [الاكسبريس] الفرنسية[1]: (لا يمكن للعالم العربي أو الإسلامي أن ينطلق حضاريا إلا إذا انخرط في عملية تفكيكية نقدية شاملة لأنظمة الفكر الديني القديم المسيطر والراسخ الجذور.. وكذلك ينبغي تفكيك كل الأيديولوجيات الغوغائية التي سيطرت علينا بعد الاستقلال وأدت الي كل هذا الفشل الذريع الذي نشهده حاليا كالقومجية الشوفينية والماركسوية الكاريكاتورية وسواهما.. ولكن نلاحظ حاليا أن أي عمل نقدي هادف لتحريرنا من الرواسب التراثية يتعرض لرقابة مزدوجة: إما من طرف السلطة، وإما من طرف معارضاتها الأصولية.. الجميع يزاود على الاسلام بالمعنى التقليدي للكلمة لكي يكسب المشروعية ورضي الجماهير. وفي كلتا الحالتين نجد أن الفكر الحديث بكل مكتسباته العلمية مرفوض أو مهمش في أحسن الأحوال)

ثم يذكر بعض اقتراحاته في هذا المجال؛ فيقول: (نلاحظ مثلا أنهم لايعلمون في المدارس بل وحتى الجامعات إلا الإسلام، ويستبعدون دراسة كل الأديان الأخرى.. وهذا يعني أن مادة تاريخ الأديان المقارنة ممنوعة في العالم العربي والإسلامي كله.. والأسوأ من ذلك هو أن تعليم الإسلام نفسه يتم بطريقة قروسطية عتيقة عفى عليها الزمن..وهو علي أي حال خاضع كليا للأرثوذكسية الأصولية الصارمة سنية كانت ام شيعية .. انظر حالة ايران)

---

[1] مجلة الاكسبريس الفرنسية بتاريخ 27-3-2003.

وهو بهذا يدعو إلى عرض الإسلام باعتباره نموذجا من النماذج التاريخية للفكر الديني، وليس باعتباره هداية الله لعباده.. وهو يقول ذلك مع كونه يعلم أنه في كل الجامعات الإسلامية توجد فروع خاصة بمقارنة الأديان، لكنه لا يريدها كذلك، بل يريد تعميمها حتى في المدارس، أي أن يدرس للتلاميذ في المدرسة الابتدائية والإعدادية اليهودية والمسيحية جنبا إلى جنب، وبالطريقة التي تجعلهم يعتبرون الإسلام مجرد مرحلة من مراحل الفكر الديني، وليس دين الله الثابت المستقر الذي يمثل الحقيقة المطلقة.

وقد صرح بأهدافه الرسالية التي آتت ثمارها في الكثير من البلاد للأسف، ومن بينها الإمارات العربية المتحدة، التي فتحت فرعا للسربون في بلادها، وقد قال معبرا عن ذلك: (أنا شخصيا أناضل من أجل تغيير برامج التعليم في كل الدول العربية والإسلامية.. وينبغي على الاتحاد الاوروبي أن يتفاوض مع بلداننا لتغيير هذه البرامج، وبخاصة فيما يتعلق بتعليم مادة التربية الدينية.. أقول ذلك لأن تعليم الدين بطريقة ظلامية أصولية وصل مؤخرا إلى أوروبا ذاتها وانتشر في جالياتها المغتربة من عربية واسلامية. وبالتالي فالخطر أصبح على أبواب الغرب نفسه، ولهذا السبب أقول ينبغي على العالم الإسلامي أن يتوصل إلى الحداثة بأقصي سرعة ممكنة وبدون تحفظ)

ثم يملي ما على العالم الإسلام أن يفعل حتى يتوصل إلى هذه الحداثة في أقرب وقت؛ فيقول: (ينبغي عليه أن يتعرف على المكتسبات التحريرية للحداثة من علمية وفلسفية، ثم يهضمها ويستوعبها، وإلا فإنه سيظل رهينة في أيدي الاصوليين المتزمتين)

وهذا التصريح يشبه تصريح الساسة أكثر من شبهه بتصريحات المثقفين الذين يعالجون القضايا وفق الرؤى المختلفة، ووفق الحوار الهادئ، ولا يعتمدون فرض أفكارهم، ولا تهييج المخالفين لها، أو ترهيبهم.

وهو يحرص كل حين على التهكم والسـخرية من الـذين يعتـبرون الإسـلام حقيقـة مطلقـة ثابتـة مسـتقرة مقدسـة، بكونهم منغلقين فكريا.. أي أن المتحرر عنده هـو الـذي يضـع أدوات الجراحـة على تلـك المصـادر المقدسـة، بعـد نـزع قدسـيتها، ثم يعمـل فيهـا مبضـعه ليشـرحها بالطريقـة الـتي يشتهي.

وقد قال في بعض تصريحاته في هذا المجال: (إن إطـار الفكر الخاص بالاعتقاد الأرثوذكسي، وكذلك معجمـه اللفظي القديم يقفان كعقبة كأداء في وجـه اسـتقبال أي فكـر نقـدي تحريري عن الاسلام في العالم العربي.. إنهما يشكلان عقبـة في وجه التحليلات التفكيكية للعلوم الانسانية الحديثة، ولهـذا السبب فإنهم يمنعون الأبحاث التاريخيـة الجـادة عن القـرآن، والحـديث النبـوي،والشـريعة، والفقـه، والتفسـير، ومختلـف جوانب الـتراث القـديم. إنهم يحرمـون كـل ذلـك عن طريـق فتاوي الهيبة العليـا لرجـال الـدين الكبـار وعن طريـق خطب الجمعة والمواعظ التي تعتبر نفسها مقدسة أو معصومة. كل الفكـر النقـدي الحـديث عن الـتراث الإسـلامي ممنـوع في كليات الشريعة والمعاهد التقليديـة بـل وحـتى في المـدارس والجامعات الحديثة. وبالتالي فهناك هـوة سـحيقة تفصـل بين الفكـر الـديني التقليـدي السـائد حاليـا في كـل أنحـاء العـالم العربي الإسلامي، وبين الفكر العلمي الحديث المتشـكل عن الاسلام وكـل الأديـان. نحن في واد، والمشـايخ في واد آخـر. واللقاء شبه مستحيل بين الطرفين)[1]

وطبعا، نحن وإن كنا نوافقـه في ضـرورة توفـير المزيـد من البحث العلمي في مناقشـة الـتراث، لكنـا نختلـف معـه اختلافا جذريا في المناهج التي تستند إليها تلك البحوث، ذلـك أنـه يـدعو إلى محاكمـة الـتراث، ابتـداء بالمقـدس منـه إلى المناهج الغربية، ونحن نرى أن يحـاكم الـتراث المقـدس إلى الـتراث المقـدس نفسـه، فالمتشـابه يـرد إلى المحكم، وفي

---

[1] ألقى هذا التصريح في الدار البيضاء بتاريخ 14-11-2006.

المقـدس نفسـه مـا يكفي من الأدوات الـتي تصـحح مـا ران عليه من فهم العصور المختلفة.

وأركون كغـيره من الحـداثيين المقلـدين، ينطلقـون من تشبيه الإسلام بالمسيحية من غـير مراعـاة للاختلاف الشـديد بينهمـــا، ولهـــذا يطـــالبون بمحاكمـــة المصـــادر المقدســـة للمسلمين، بما حوكمت به المصادر المقدسة للمسيحيين مع البون الشديد بين كلا المصدرين.. المصدر الممتلئ بالتحريف الـذي لا يمكن لأي عقـل تجاهلـه، والمصـدر الممتلئ بـالقيم الثابتة، بل بدلائل الإعجاز التي لا يمكن لأي صادق في البحث أن يمر عليها من دون أن يتأثر بها.

ولهذا نراه دائما يتأسف للتأخر الهائل الـذي يعـاني منـه الفكر الإسلامي قياسا إلى الفكر المسيحي في أوروبا.. وهــو يتأسف كذلك لكونه من أكبر الأديان في تاريخ البشرية، وقــد يصـبح أكبرهـا من حيث العـدد عمـا قـريب.. (لكنـه مـع ذلـك توقف عن التطور والتجدد بعد إغلاق بـاب الاجتهـاد والـدخول في عصر الانحطـاط: أي عصـر الجمـود والتكـرار والاجـترار. هذا في حين ان المسـيحية، في أوروبـا الغربيـة على الأقـل، اضطرت إلى تجديد رسالتها الدينيـة وإعـادة تأويـل نصوصـها المقدســة بســبب الصــعود الــذي لا يقــاوم للعقــل العلمي والفلسفي منذ القرن السابع عشر.. وبالتالي فأوروبا ليســت متفوقة علينا بالتكنولوجيا والعلوم الفيزيائية والرياضـية فقـط وانما هي متفوقة أيضا في العلـوم الدينيـة أو فلسـفة الـدين. وهذا شيء نجهله تمامـا.. أوروبـا دخلت الآن لاهـوت مـا بعـد الحداثــة في حين أننــا لا نــزال نتخبــط في لاهــوت مــا قبــل الحداثة: أي لاهوت القرون الوسطي وفقهها القديم)

وهكذا لا يكتفي أركون وغيره من الحداثيين بدعوتنا إلى اعتماد المناهج الغربية، وإنما يدعونا إلى التأسـي بالمسـيحية وتطورهـــا، وهـــو لا يعلم أن بعض المـــدارس المســـيحية لم تتطور إلا بعد أن تخلصت من القيم المسيحية نفسها.

وقـد ذكـر بعضـهم ذلـك التطـور الـذي حصـل للكنيسـة

والمسـيحية، معـبرا عن مشـاهداته الشخصـية؛ فقـال: (وإذا كانت الكنيسة مكاناً للعبادة فى العالم المسـيحى كلـه، فإنهـا فى أمريكا مكان لكل شيء إلا العبادة، وإنه ليصعب عليك أن تفرق بينها وبين أى مكان آخر، معد للّهـو والتسـلية.. ومعظم قصادها إنما يعدونها تقليـداً اجتماعيـاً ضـرورياً، ومكانـاً للقـاء والأنس، ولتمضـية وقت طيب، وليس هـذه شـعور الجمهـور وحده، ولكنه كذلك شعور سدنة الكنيسـة ورعاتهـا.. ولمعظم الكنائس ناد يتألف من الجنسين، ويجتهد راعى كل كنيسة أن يلتحق بالكنيسة أكبر عـدد ممكن، وبخاصـة أن هنـاك تنافسـاً كبيراً بين الكنائس المختلفة المذاهب، ولهـذا تتسـابق جميعـاً فى الإعلان عن نفسها بالنشرات المكتوبة، وبـالأنوار الملونـة على الأبــواب والجــدران، للفت الأنظــار، وبتقــديم الــبرامج اللذيــذة، المشــوقة لجلب الجمــاهير، بنفس الطريقــة الــتى تتبعها المتاجر ودور العرض والتمثيـل، وليس هنـاك من بـأس فى استخدام أجمل فتيات المدينـة وأرشـقهن، وأبـرعهن فى الغناء والرقص والترويح)

ثم ذكر نموذجا من نماذج مشاهداته، فقـال: (كنت ليلـة فى إحدى الكنائس، ببلدة جريلى بولاية كولورادوـ فقـد كنت عضواً فى ناديها، كما كنت عضواً فى عـدة نـواد كنسـية، فى كل جهة عشت فيها، إذ كـانت هـذه ناحيـة هامـة، من نـواحى المجتمع، تستحق الدراسة عن كثب ومن الـداخل ـ وبعـد أن انتهت الخدمة الدينية فى الكنيسة، واشترك فى التراتيل فتية وفتيات من الأعضاء، وأدى الآخـرون الصـلاة، دلفنـا من بـاب جانبى ساحة الرقص، الملاصقة لقاعـة الصـلاة، يصـل بينهمـا الباب ؛ وصعد (الأب) إلى مكتبـه، وأخـذ كـل فـتى بيـد فتـاة، وبينهم وبينهن أولئـك الـذين واللـواتى، كـانوا وكن، يقومـون بالترتيـل ويقمن.. وكــانت ســاحة الــرقص مضــاءة بــالأنوار الحمراء والصفراء والزرقاء، وبقليل من المصابيح البيض..)

إلى آخر تصويراته لمشاهد المجون في الكنيسة، والـتي يريـد منـا أركـون وغـيره من الحـداثين أن نطـور مسـاجدنا ومعابدنا وفقهنا وعقائدنا لتتناسب معها.

وقد ذكر هاشم صالح .. ذلك التلميذ النجيب لأركون، والناشر لأفكاره والمترجم لها، الهدف الأكبر الذي يسعى إليه أركون بكل صراحة، وهو نفس الهدف الذي سعى إليه كل المصارعين للكنيسة، بل للمسيحية نفسها؛ فقال: (في الواقع إن هدف أركون الأخير هو التوفيق بين الإسلام والحداثة مثلما فعل ابن رشد في وقته عندما وفق بين الإسلام والفلسفة الارسطوطاليسية، ومثلما فعل فلاسفة التنوير في أوروبا عندما أجبروا المسيحية ورجال الدين علي تقديم تنازلات كبيرة للعقل والحداثة العلمية الصاعدة)

ثم بين أن المنهج المعتمد لذلك ليس مجرد نقد التراث، والدعوة إلى تحديثه ليتناسب مع العصر، وإنما الدعوة إلى تحديث المقدس نفسه بكل ما يحمله من عقائد وشرائع وسلوكات، لينضبط بما يقتضه، ويصبح خاضعا لإملاءاته، فقال متحدثا عن الغرب وكيف استطاع أن يتحقق بالتنوير: (.. لم يستطيعوا التوصل إلى هذا المكتسب الكبير إلا بعد أن فككوا اللاهوت المسيحي القديم، وكشفوا عن تاريخيته ومشروطيته البشرية، ومعلوم أنه كان يقدم نفسه، وكأنه الهي معصوم تماما كالفقه القديم في الإسلام، ومعلوم أيضا أن اللاهوت القديم يزعم امتلاك الحقيقة المطلقة، المقدسة المتعالية، التي لا تناقش ولا تمس، وبالتالي فكل شخص يقع خارجها أو لا يعتنقها هو شخص مدان ومصيره جهنم وبئس المصير)

وهو بهذا الطرح ينظر إلى الإسلام مثلما ينظر إلى سائر الأديان، ويخضعه لنفس المناهج التي أخضعت لها، ولا يرى فيه أي مزية تميزه عنها، ولهذا يدعو إلى تفكيكه تفكيكا تاما، وذلك بعد تخليصه من القداسة، أي أن كل شيء يصبح في مباحا للمبضع الحداثي ليزيله بحجة وقوفه في وجه التنوير.

يقول هاشم صالح معبرا عن أفكار أركون في هذا المعنى الخطير: (.. فكل دين يزعم امتلاك الحقيقة الالهية المقدسة دون غيره، وعلى هذا النحو تشكلت الأنظمة

اللاهوتية الثلاثة، وسيطرت على العقول طيلة العصور الوسطي، أقصد الانظمة اللاهوتية اليهودية، فالمسيحية، فالإسلامية.. وقد مارست دورها ـ كما يقول أركون في احدي أطروحاته الشهيرة ــ على هيئة أنظمة للنبذ والاستبعاد المتبادل، فكل دين يتهم الاديان الأخري بأنها خرجت على الصراط المستقيم، أي الأرثوذكسية باللغات الاجنبية..وبالتالي فهي تنبذ بعضها بعضا، ثم تستبعد بعضها بعضا من جنة الله والنجاة في الدار الآخرة، كل واحد يكفر أتباع الأديان الأخرى، وكل طائفة تعتقد اعتقادا جازما أن الله اصطفاها وحدها دون سواها)

وهذا الطرح كله مبني على فلسفة كانط التي استند إليها أركون وكل الحداثيين، وهي عدم امتلاك أي دين لأي مصداقية في ذاته، أو براهين ثابتة تدل عليه، وأن الأديان مجرد اختيارات بشرية، ولا يستطيع أي دين من الأديان أن يزعم أنه يملك الحقيقة أو الأدلة على ثبوته وكونه من الله تعالى.

وبذلك لا يمكن لأي شخص أن يحاور أمثال هؤلاء.. لأنه إن قيل له ما ذكره القرآن الكريم في حواراته مع المخالفين: ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 111]، أعرضوا ونأوا واكتفوا بذكر أطروحاتهم بكل استعلاء، لأن كل البراهين الدينية عندهم ليست عقلية، ولا علمية، لسبب بسيط وهو أن كانط في ذلك الزمان أن الدين يستند للعقل العملي، والاختيار البشري، والإيمان المجرد، ولا يستند لأي براهين تثبته أوتدل عليه.

وبناء على هذه القاعدة يضع التنويريون شروطهم لقبول الدين، وهي أن يتحول الدين إلى مزاجهم وأفكارهم، لا أن يتحولوا هم إلى ما يطلبه الدين من عقائد وقيم وأفكار.

وقد ذكر هاشم صالح المدى الذي بلغه أركون في طرحه الحداثي، وتقدمه على غيره فيه، فقال: (أركون يقول لنا بأن الحل إما أن يكون جذريا، راديكاليا، أو أنه لن يكون..

فآخر الدواء الكي كما تقول العرب.. إنه ينصحنا بتفكيك كل الأنظمة الفقهية واللاهوتية الموروثة عن العصور الوسطي.. فكر أركون يتجاوز كل هؤلاء بطبيعة الحال لأنه يعيش في عصر الحداثة أو ما بعد الحداثة، ويحاضر في كبريات جامعات العالم، ولذا فهو ينظر إلى الظاهرة الدينية من كافة جوانبها، ويعرف كيف يفكك ببراعة منقطعة النظير كل الانغلاقات التراثية في كل الأديان)

ويذكر كيف كان يتعامل مع الأجيال التنويرية التي خرجها، فقال: (في دروسه الأسبوعية الرائعة في السوربون كثيرا ما كان ينفعل، ويدعونا إلى أن نخرج من أقفاصنا وسجوننا التراثية لكي نتنفس الهواء الطلق في الخارج)

وأحب أن أذكر هنا أن الكثير من المغترين بفكر أركون يتصورون أنه يكتفي بمجرد نقد التراث، متناسين أن ذلك مجرد مرحلة من مراحله الفكرية، أو هي معركة من المعارك التي يشنها على الدين نفسه.. ولهذا نراه في مواضع يشن حربه على طائفة من الطوائف، فيتصور البعض أنه ينتصر لغيرها، ولكنه في الحقيقة لا يفعل ذلك، وإنما ينفرد بكل واحدة منها، ليقضي عليها بعدها جميعا، لا يفرق في ذلك بين أقوالها الصحيحة المعتبرة التي تستند إلى المصادر المقدسة، وبين رؤاها المجردة عن تلك المصادر.

وقد ذكر هاشم صالح في مقال له نشرته بعض الجرائد السعودية، أن محمد أركون مع تشدده مع المقدس في كل مراحل حياته إلا أن حدته عليه زادت بعد أحداث 11 من سبتمبر، والتي كانت فرصة لظهور الإلحاد الجديد، كما كانت فرصة لتغول الحداثة، وانتشار التنوير، وتبنيه من طرف ممالك النفط العربية خصوصا.

فقد ذكر في مقاله المعنون بـ [هل تغير محمد أركون!؟] كتاب محمد أركون عن [النزعة الانسانية والإسلام.. معارك فكرية ومقترحات من أجل الخروج من الأزمة]، وطروحات أركون الجديدة فيه، فقال: (والآن ماذا

حصل؟ هل غير موقفه في كتابه الأخير؟ هل عدل منه؟ يخيل إليَّ أن نعم.. صحيح انه كان يقول في السابق بضرورة تطبيق المنهج العلمي أو التاريخي على التراث العربي الإسلامي بكل صرامة ودقة موضوعية، وصحيح أنه كان يمارس هذا التطبيق عملياً من خلال مشروع عمره الطويل العريض: نقد العقل الإسلامي.. ولكنه كان يمر مرور الكرام على ذكر التنوير ويتحاشى التوقف عنده طويلاً، أو قل إنه بعد ان يتوقف عنده كان كثيراً ما يحذر من سلبياته من دون أن ينكر ايجابياته بالطبع.. أما الآن، وفي هذا الكتاب، فإنه يعترف صراحة بضرورة أن تمر الشعوب العربية والإسلامية بالمرحلة التنويرية، مثلما حصل للشعوب الاوروبية بدءاً من القرن الثامن عشر)

ويقول: (يخيل إليَّ أنه بعد ضربة (11) سبتمبر ثم بالاخص بعد ضربة (11) مارس في مدريد راح يغير مواقفه النقدية، أو قل راح يجعلها راديكالية أكثر.. لم يعد يراعي التيار التقليدي، ويجامله أكثر مما ينبغي، كما كان يفعل سابقاً. لقد أجبرته هذه التفجيرات التاريخية والمأساوية على استشعار حجم المرض العضال بعد أن استفحل في أحشاء المجتمعات العربية والإسلامية، ووصل الى ذروته القصوى)

هذه خلاصة مبسطة لطروحات أركون وأهدافها التي لا تختلف عن أهداف سائر التنويريين، وهي هدم الإسلام عبر تمريره على المناهج الغربية التي مورست مع الكتاب المقدس، ومن شاء أن يطلع عليها من خلال كتبه، فله ذلك، ولكن بشرط أن يقرأها قراءة كلية، لا جزئية، فذكاء الرجل يجعله يتحرك بهدوء، من غير أن يثير أي حساسية.. ولذلك لا يفهمه إلا من عرفه وعرف مقاصده، وخرج من عالم الألفاظ المجردة إلى المعاني الكبرى التي تنطوي عليها.

فهو مثلا قد يشيد بابن رشد أو غيره، فيتصور القارئ أنه يدعو إلى أن نلتزم نفس منهج ابن رشد في التوفيق بين الشريعة والفلسفة والعقل.. لكنه يعود بعد ذلك، ويذكر أن

طروحات ابن رشد طروحات هزيلة جدا أمام ما يقتضيه التنوير.. فإذا سألته عن ذلك أجابك وبطرق ملتوية كثيرة بأنه إعادة النظر في المقدس نفسه أو معالجته ليصبح متناسبا مع الحداثة والعصر.. أي تعاد خياطته وتفصيله ليتناسب مع المزاج الذي تفرضه العقول المعاصرة.. العقول الممتلئة بالقيم الغربية، لا العقول المممتلئة بالإيمان بالله ورسوله.

أركون .. وابن نبي

أركون وابن نبي كلاهمـا من الجزائـر، وكلاهمـا ولـد في عهد الاسـتعمار الفرنسـي، وكلاهمـا درس في فرنسـا، وتعلم اللغة الفرنسية، وأتقنها وكتب بها..

وكلاهما اهتم بالحضارة والنهضـة، ودعـا إليهـا.. وكلاهمـا اهتم بالقرآن الكريم وكتب فيه.. ولكيلهما جمهور عريض في المشرق والمغرب..

وإلى هنـا تنتهي القواسـم المشـتركة، لتبـدأ المفارقـات العجيبة.. والتي أشار إليهـا رسـول اللـه ﷺ حين قـال: (مَثَـلُ المؤمن الذي يقـرأُ القـرآن ويعمـلُ بـه كمَثَـل الأُتْرُجَّة؛ ريحُهـا طيِّب، وطعمُهـا طيِّب، ومَثَـلُ المـؤمن الـذي لا يقـرأ القـرآن كمَثَل التَّمرة؛ لا ريح لها، وطعمُها حلوٌ، ومَثَـل المنـافق الـذي يقرأ القرآن مثل الرَّيحانة؛ ريحهـا طيِّب، وطعمهـا مـر، ومَثَـل المنافق الذي لا يقرأ القـرآن كمَثَـل الحنظلـة؛ ليس لهـا ريح، وطعمها مرٌّ)[1]

فأحـدهما، يمثـل ذلـك المـؤمن الـذي ربي في الكتـاتيب القرآنية، وحبب إليه القرآن الكريم في صغره الباكر، وعنـدما ذهب إلى فرنسا، ذهب إليها وهو يحمل ثقافته وهويته ودينــه، ولذلك كان يقرأ القرآن الكريم، ويعيش معانيه، وينفعـل لهـا، ويعتقد أنها الترياق الذي يحل كل أزمة وقعت فيها أمتـه، وأن تخلفهـا وحـتى الاسـتعمار الـذي ابتليت بـه، لم يكن إلا وليـد ابتعادها عن مصـادرها المقدسـة.. ولـذلك اسـتطاع من خلال تدبره أن يستنبط شروط النهضة وأسبابها ووسائلها ..

وهـو في ذلـك كلـه، ومـع كونـه بين أسـاطين التنـوير الغربي، إلا أنه لم ينبهر بحضارة الغـرب، ولا ماديتهـا، ولـذلك حُفظ له كلام ربه الذي لم ينحرف عنه قيد أنملة.

---

[1] () رواه البخاري 5/ 2070 (5111)، ومسلم 1/ 549 (797)

ولـذلك لم يـذهب لجامعـة السـربون ليتلقى الفلسـفة الغربية، ولا أفكارها، فعنده مـا يكفي من الفلسـفة والأفكـار، وإنما ذهب إليها ليتعلم التقنيات الـتي تحتاجهـا أمتـه.. فالأمـة تحتـاج إلى تقنيـات الغـرب، وتطـوره المـادي، ولا تحتـاج إلى فلسفته وأفكاره..

وقد كان ابن نبي يدرك جيدا أن تلـك الفلسـفة والأفكـار الغربية لو نفعت أحـدا من النـاس لانتفـع بهـا الغـرب نفسـه، وكيف ينتفع بهـا، وهـو يمـد أسـاطيله في عـرض المحيطـات والبحـار، ويمـد طائراتـه الحربيـة في أجـواء المستضـعفين ليملأهم رعبـا، وليفـرض عليهم هيمنتـه وكبريـاءه وسـطوته، وليبتز منهم آخر قطرة من دمائهم وعـرقهم والـثروات الـتي أتاحها الله لهم.

ولـذلك يمكن اعتبـاره مصـداقا لمـا ورد في الحـديث الشريف من كونه مثل الأترجة، ذات الرائحة الطيبة، والطعم اللذيذ، بالإضافة إلى اسـتعمالها في المـداواة، وكونهـا ــ كمـا يذكر الأطبـاء القـدامى ــ من الأدويـة المفرحـة، والمـؤثر في نفسية آكليها.

وهكذا هو مالك بن نبي رحمه الله، فقد كان أترجة انتفع الناس برائحتها، وبتلك الوصفات الربانية التي وصـفها لنهضـة الأمـة ورقيهـا، ولم يسـتعن في ذلـك، لا بمنـاهج الشـرق، ولا مناهج الغـرب، وإنمـا اسـتفادها من القـرآن الكـريم.. وصـفة الهداية الإلهية، والتنوير الرباني..

وقد ذكـر في كتابـه العظيم [الظـاهرة القرآنيـة] أنـه لم ينطلق في هذه النتائج الـتي وصـل إليهـا من تقليـد الآبـاء ولا الأجداد، وإنما وصل إليها عـبر الـبراهين العقليـة الـتي جعلتـه يرى أن مصدر القرآن الكريم هو الحقيقة المطلقة، الممتلئـة بالثبات والاستقرار، لا منتوجا هلاميـا ثقافيـا وليـد بيئـة معينـة وزمان معين وأحوال نفسية معينة.

ثم من خلال القرآن الكريم، ومنـابع عظمتـه ذكـر كيـف

عرف رسول الله ﷺ، وكيف راح يشيد به، باعتباره المثال الأعلى، والنموذج الأكمل، وأنه اصطفاء رباني لتلك الوظيفة الخطيرة، التي تمثل التنوير الحقيقي، لا التنوير المزيف، كما قال تعالى في وصف رسول الله ﷺ: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: 45، 46]

ومن خلال هذين المصدرين: الكتاب والنبوة.. راح ابن نبي يفند الحضارة الغربية، ومعها الفلسفة المادية التي قامت عليها، ليدعو إلى الحضارة الإيمانية التي تنطلق من المقدس باعتباره يمثل الحقيقة المطلقة، التي لا يمكن التعرف على القيم الثابتة للكون إلا من خلالها.

ومن خلال تلك المناقشات للفكر المادي، والحضارة التي قام عليها طرح لنا ابن نبي البديل الحضاري والتنويري.. والذي ينسجم تماما مع هوية الأمة وشخصيتها، بل يجعلها ـ إن هي التزمت بمقدساتها ـ في مرتبة أسمى بكثير من تلك المرتبة التي دعانا إليها أركون وغيره من التنويريين.

هذا هو مالك بن نبي مصداق الأترجة التي وردت في الحديث الشريف.. أما الثاني، فلا يهمنا ماذا ينطبق على شخصه.. هل ينطبق عليه وصف التَّمرة التي لا ريح لها، وطعمُها حلوٌ، أو وصف الرَّيحانة؛ التي ريحها طيِّب، وطعمها مر، أو وصف الحنظلة؛ التي ليس لها ريح، وطعمها مرٌّ.. ولكن يهمنا وصف أفكاره التي لا شك في كونها لا تختلف أبدا عن الحنظلة.. فهي مرة، ولا ريح لها، وإن كان لها ريح فهي ريح منتنة.

وهكذا كان أركون الذي لم يرب في كتاتيب القرآن الكريم.. وإنما ربي بأيدي الآباء البيض، وعندما ذهب إلى فرنسا لم يتعلم الكهرباء، ولا الهندسة، وإنما ذهب لتعلم فكر الغرب وفلسفته، ليتحول إلى مستشرق فرنسي، لا إلى مهندس عربي أومسلم.

ولـذلك راح ينظـر إلى أمتـه وشـعبه وبلـده كمـا ينظـر المستشرقون الحاقدون، مع كونه يعلم أن بلده عـاش فـترة طويلـة ضـحية بين جلادي فرنسـا المجرمـة، وأن الكثـير من أسباب تخلف بلده تعود إلى ذلك الاستعمار البغيض..

لكن ذلك لم يمنع أركون من أن يشـيد بفرنسـا، ويـدعو إلى قيمها، وينسى أن قيمها هي التي دفعتها لاسـتعمار بلاده، ونهب ثرواتها.

وهكذا راح أركون ــ على عكس مالـك بن نـبي ــ يشـيد بأولئك الماديين الذين احتقروا المقدس، وتصورو أن الإنسان هو رب نفسه، وسيد مصيره، وأنه لا مقدس في الوجود، بــل لا حقيقة ثابتة في الوجود، إلا الهوى المجرد.

ولـذلك كـانت قراءتـه للقـرآن الكـريم كقـراءة المنـافق الـــذي يبحث عن الثغـــرات، لا المـــؤمن الـــذي يبحث عن الحقائق..

ولذلك سول لنفسه أن يقترح على ربه، وأن يقـدم رأيـه بين يدي كتابـه، وأن يخضـعه لتلـك المقـاييس البشـرية الـتي يحلل بها أي كلام، وتحلل معها أي نفسية.

وقد كان في موقفه هذا يشبه ذلك الموقف الذي ذكــره القــرآن الكــريم؛ فقــال: ﴿وَإِذَا مَـا أُنْـزِلَتْ سُـورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُـوا فَـزَادَتْهُمْ إِيمَانًـا وَهُمْ يَسْتَبْشِـــرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُـــوبِهِمْ مَـــرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَـاتُوا وَهُمْ كَـافِرُونَ ﴾ [التوبـة: 124، 125]

وهكذا كان ابن نبي كلمـا سـمع آيـة من القـرآن الكـريم اهــتز واستبشــر، وراح يبحث فيهــا باعتبارهــا ترياقــا ربانيــا، ووصـــفة إلهيـــة أنعم اللـــه بهـــا على عبـــاده، ليخـــرجهم من الظلمات إلى النور.

أما أركون، فكلما سـمع آيـة راح يطبـق عليهـا مقاييسـه

التي تعلمها من أساتذته، ليبحث في الحالة النفسية التي أفرزتها، أو في الظاهرة الاجتماعية التي ولدتها، أو في البيئة الزمانية التي أنتجتها، أو في الظروف المختلفة التي رعتها..

ليخرج بعد كل ذلك التدبر من القرآن الكريم بما خرج به الوليد بن المغيرة الذي وصف الله تعالى قراءته للقرآن الكريم؛ فقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: 11 - 25]

وهكذا فعل أمثاله من الحداثيين الذين انشغلوا بالمال والبنين وزينة الحياة الدنيا.. فبعد تفكرهم وتدبرهم وتقديهم، راحوا يقولون عن القرآن: إنه مجرد سحر أثر في بيئة معينة، وزمن معينة.. وأن سحره قد زال بزوال تلك العصور.

هذا هو الفرق بين مالك بن نبي ذلك العملاق الكبير في الفكر الإسلامي.. وبين أركون ذلك القزم الحقير الذي وضع نفسه عبدا من عبيد الغرب، ولأجلهم باع دينه، ولم يظفر بدنياه.

من الشخصـيات التنويريـة الـتي صـدرها لنـا السـربون، وأخرجها لنا أستاذ الحداثة الأكبر [محمد أركـون]، وكـانت من أكـثر الشخصـيات مسـاهمة في شـرح أفكـاره، ونشـرها، والدعوة إليها شخصية [هاشم صالح][1] ، الـذي نسـتطيع من خلال كلماته الصريحة والجريئة أن نفهم الأهداف الكبرى من التنـوير والحداثـة، وكونهـا لا تعـدو تقليـدا حرفيـا للتنـوير الأوروبي، واعتبـاره نموذجـا مثاليـا يمكن تطبيقـه، بـل يجب تطبيقه على واقعنا الإسلامي بمصادره المقدسة.

وهم يفعلون هذا من غير نظر إلى الفوارق الكبـيرة بين الإسـلام والمسـيحية، ولا بين القـرآن الكـريم والكتـاب المقدس، ولا بين رؤية المسلمين للإسلام، ورؤية المسيحيين له.. فهم يعتبرون الكل واحدا، ولذلك يرون أن التجربـة الـتي نجحت في أوروبـا سـتنجح إن طبقت حرفيـا في بلاد المسلمين..

وكل ذلك مغالطـات.. فالإسـلام يختلـف عن المسـيحية، والقرآن الكريم يختلف عن الكتـاب المقـدس، والمؤسسـات الدينيـة الإسـلامية تختلـف جـذريا عن المؤسسـات الدينيـة المسيحية.. وكون أوروبا تخلصت من الكنيسة، لم يضعها في التنوير الحقيقي، بل إن جرائمها بعد فترة التنوير كـانت أكـبر بكثـير من جرائمهـا في الفـترة الـتي حكمت فيهـا الكنيسـة، فالاسـتعمار والحـروب العالميـة والإبـادات الجماعيـة كلهـا ممارسـات وجـرائم حصـلت في عصـر التنـوير وابتـداء من

---

[1] مفكر وكـاتب ومـترجم سـوري متخصـص في قضـايا التجديـد الـديني ونقـد الأصولية ونقاش قضايا الحداثـة ومـا بعـدها. حاصـل على الـدكتوراه في النقـد الأدبي الحديث من جامعة السوربون 1982. وعلى دبلوم الدراسات العليا من جامعة دمشق 1975. يكتب بأهم الصحف والمجلات الدولية، نقل هاشم صـالح العديـد من مؤلفـات محمد أركون إلى اللغة العربية، انظر: حوار مع الكاتب والمفكر السوري هاشم صالح : سوف تحصل في الإسلام ثورة معرفية كتلك الـتي حصـلت في المسـيحية الغربيـة، مولاي أحمد صابر، مؤسسة مؤمنون بلا حدود.

الثورة الفرنسية، ولم تقع الكنيسة في كل ذلك.

لكن التنـويريين لا يلتفـون لكـل هـذا، بـل يتصـورون أن الغرب يمثل الغاية الكـبرى، ونهايـة التـاريخ، ولـذلك يجب أن نضحي بكل مقدساتنا للتحقق ما وصل إليه.

وقد كتب هاشم صـالح لنشـر هـذه الأطروحـة التنويريـة الكثـير من الكتب، وتـرجم أعمـالا كثـيرة، وخصوصـا لمحمـد أركـون الـذي أعجب بـه إعجابـا شـديدا، ومن مؤلفاتـه كتـاب [معضلة الأصـولية الإسـلامية]، وكتـاب [الانسـداد التـاريخي]، وكتاب [مدخل إلى التنوير الأوروبي]

والكتاب الأخير يمثل جوهر ما يدعو إليه هاشـم صـالح، والذي ذكر مصادره الفكرية فيـه في مقـال لـه بعنـوان [نقـد العقل التقليدي للإسلام.. المشروع الفلسـفي الكبـير لمحمـد أركون][1] ، والـذي ذكـر فيـه أثـر محمـد أركـون في تشـكيل عقله وطريقة تفكيره، فقال: (كل ما كتبه أركون منـذ أربعين سنة وحتى اليوم يندرج تحت العنـوان العـريض التـالي: [نقـد العقل الإسلامي] إنه مشروع العمر وخلاصة الفكر)

وحـتى يزيـل الالتبـاس المرتبـط بهـذا النـوع من النقـد، وعدم توجهه للتراث فقـط، وإنمـا للمصـادر المقدسـة أيضـا، عقب على ذلك بقوله: (.. وانمـا تعـني مـا يلي، وبحسـب مـا أفهم فكر أركون بعد أن عاشرته أو بالأحري عاشـرت فكـره طيلة أكثر من ربع قرن: كـل الـتراث العـربي الإسـلامي منـذ البداية وحتى اليوم ينبغي أن يتعرض لغربلة عامة شاملة، من أجل معرفة بنيته الداخلية، أو كيفيـة تشـكّله التـاريخي طيلـة القرون الستة الأولى بشكل خـاص، فمـا جـف منـه وتخشـب ومات نطرحه، ونبقي فقط على الجـوهر الـروحي والأخلاقي لرسالة الاسلام العظيم)

وهـو طبعـا، كسـائر التنـويريين يسـتعملون مثـل هـذه

---

[1] () نقد العقل التقليدي للإسلام.. المشروع الفلسفي الكبير لمحمد أركون:بقلم: هاشم صالح، الفجر نيوز، نشر في الفجر نيوز يوم 03 - 02 - 2008.

الألفاظ [الجوهر الروحي والأخلاقي لرسالة الاسلام العظيم]، ليوهموا القارئ أن نقدهم وهدمهم لا يمس الإسلام، وإنما يمس ما تخشب منه، وهم لا يعلمون أنهم يقصدون بهذا التخشب كل الحقائق الإسلامية ابتداء من العقائد الأساسية القطعية التي لا يمكن أن يقوم الدين من دونها.

وقد عبر هاشم صالح عن ذلك بصراحة بقوله: (فالمعرفة التي نمتلكها عن الفترة التأسيسية للتراث الإسلامي لا تزال لاهوتية، أسطورية تضعه فوق التاريخ، أو فوق المشروطية الاجتماعية التاريخية)

وهذه العبارة هي التي تلخص جوهر أكثر الحداثيين والتنويريين، وهي اعتبار الإسلام ومقدساته وليد فترة تاريخية محددة، ولذلك لا يمكن اعتباره عندهم معبرا عن الحقيقة المطلقة، أو رسالة إلهية عابرة للزمان، وإنما هو ـ بحسبهم ـ يعبر عن الفكر الذي ساد في تلك البيئة الزمنية، والذي يمكن تطويره، بل تحويره ليتحول إلى أي بيئة جديدة بما يتناسب معها.

ولذلك كان جوهر رسالة جميع الحداثيين هو تحويل الإسلام من مرحلته التاريخية التأسيسية إلى مرحلة حديثة، ولو بتفريغه من محتواه تماما، باعتبار أن ذلك المحتوى المقدس لم يعد نافعا ولا صالحا في هذا الزمان.. فالنفعية البراغماتية هي المحدد عندهم لصلاحية الشيء، لا الحقيقة التي تدل عليها الأدلة أو البراهين.

وقد ذكر هاشم صالح هذا المعنى عند إجابته على سؤال طرحه بقوله: (لماذا يشكل ذلك حاجة تاريخية لا بد منها، أو لا مندوحة عنها؟)

ثم أجاب على ذلك بقوله: (لأن المسلمين، كل المسلمين وليس فقط العرب، وصلوا الآن إلى مفترق طرق: فإما أن ينخرطوا في هذه العملية الجراحية الخطيرة الضرورية لمصالحة الاسلام مع الحداثة، وإما أن يستسلموا

للمقادير، وينقطعوا عن حركة التاريخ كلياً في عصر العولمة الكونية ويصبحوا مهمشين وواقعين في مؤخرة كل الأمم)

وهو يشبه هذه العملية الجراحية الخطيرة التي يريد إجراءها للمصادر العميقة للإسلام بما حصل لأوروبا عندما راحت تسخر من الكنيسة والدين وتستبدله بالمذاهب والفلسفات المادية، فيقول: (ويراهن كاتب هذه السطور علي الحقيقة التالية: لو لم تخض أوروبا معركتها مع نفسها، لو لم تصفّ حساباتها مع ذاتها التاريخية - أي مع تراثها المسيحي القديم- لما استطاعت أن تقلع حضارياً وأن تسيطر على العالم. فأزمة الوعي الأوروبي مع نفسه كانت قد وصلت إلي حد التفاقم الأقصي الذي يهدد بالانفجار أو بالانهيار)

ثم يحدد بدقة نوع النقد الذي يجب أن يوجه للعقل المسلم، حتى ينسجم مع الحداثة؛ فيقول: (مشروع المستقبل ليس نقد العقل العربي كما يتوهمه الجابري على الرغم من تقديرنا لجهد المحاولة لديه ولبعض النقاط الايجابية أيضا، وإنما هو مشروع نقد العقل الإسلامي التقليدي. لماذا نقول ذلك؟ لأنه لا يوجد شيء اسمه عقل عربي أو تركي أو إيراني وإنما يوجد عقل إسلامي أو ديني بالأحري مثلما يوجد عقل علمي أو فلسفي أو وضعي سمه ما شئت. وبينهما قطيعة الحداثة)

وبذلك، فإن النقد الحداثي للعقل عنده هو نقد لطريقة تفكير المسلم، أي مسلم، وفي أي مرحلة من مراحل التاريخ، ما دام يؤمن بالغيب، ويعتقد أن مصادره المقدسة، تحوي قيما عقدية وسلوكية ثابتة، وقد عبر عن هذا المعنى بقوله: (وبالتالي فالعقل البشري واحد عند جميع الشعوب. فقط هناك شعوب تحررت من العقل اللاهوتي الغيبي الطائفي القديم كشعوب أوروبا الغربية مثلا، وشعوب لم تتحرر بعد.. وهذه هي حالتنا نحن)

وليؤكد هذا المعنى، يعود كسائر الحداثيين إلى أوغست

كونت، وفلسفته الوضعية، باعتبار أن كل التقدم والتطور (الذي نشهده أمام أعيننا اليوم في مختلف مجتمعات الغرب هو ثمرة الفلسفة الوضعية التي ازدهرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فهذه الفلسفة كانت تعتقد اعتقاداً جازماً بأن العقل والعلم هما اللذان ينبغي أن يقودا البشرية نحو الحضارة والتقدم والرقيّ، وبالتالي فينبغي أن يحلاّ محل اللاهوت المسيحي التقليدي الذي أدى إلى محاكم التفتيش، والتواكل، وتأخر المجتمع على كافة الأصعدة والمستويات)[1]

ووضح ذلك في محل آخر بصراحة، فقال: (وبالتالي فالشعوب تمر بعدة مراحل من التطور العقلي والفكري؛ فهناك أولا المرحلة الأسطورية البدائية للعقل، تليها المرحلة الدينية الأكثر تطورا، ثم أخيرا المرحلة العلمية الفلسفية، وهي أعلى درجات العقل أو العقلانية)

وهو ينتقد الجابري وأمثاله ممن لم يتجرؤوا على اقتحام المقدسات خلافا لأستاذه أركون؛ فقال: (قناعتي هي أن الجابري لم يتجرأ على مواجهة المشكلة اللاهوتية وجها لوجه؛ فقرر خوض المعركة مع العقل العربي لا العقل الإسلامي)

لكنه يعود فيعتذر له، ولأمثاله بأن السبب ليس عدم قناعتهم بضرورة مواجهة المقدسات، وإنما لكونهم يمارسون بعض التقية مع المجتمعات التي يعيشون فيها حتى لا يصطدموا معها، يقول في ذلك: (.. وهذا تحايل على الموضوع في نهاية المطاف أو تهرب من المواجهة، ولكنه مفهوم لأن للتقليديين سطوة في الشارع، ويستطيعون تهديد أي مثقف وتخويفه)

ليس ذلك فقط، وإنما لكونهم أيضا ـ بحسبه ــ يفتقرون لتلك المناهج التي يملكها أستاذه أركون.. ذلك أنه وحده من

---

[1] أوغست كونت: الفلسفة الوضعية ومفهوم التقدم، هاشم صالح، مجلة الأوان، ديسمبر 2013.

(يمتلك التكوين المنهجي الكافي والعدة المفهومية والمصطلحية للقيام بنقد العقل الديني في الإسلام.. ووحده من بين كل المثقفين العرب من يمتلك ذلك الآن.. وكل من يفهم في شؤون الفكر وشجونه يعرف ذلك.. وكل مطلع على الفكر الحديث وتاريخه ومناهجه العويصة ومصطلحاته يعرف ما الذي أقصده هنا.. ولذلك راهنت علي هذا الفكر منذ ثلاثين عاما ولا أزال)

شحرور .. المهندس الأفاك

لا يظنن أحد أن في هـذا العنـوان نوعـا من الشـتيمة أو البذاء أو الفحش؛ فقد نهينـا عن ذلـك كلـه، وإنمـا هـو وصـف للواقع كما هو، ذلك أنا إن سمينا الحمار حمارا، والكلب كلبـا، والخـنزير خـنزيرا، لم نكت شـاتمين، ولا طـاعنين، لأن تلـك الأسـماء هي الأسـماء الـتي لا تعـرف الحمـير ولا الكلاب ولا الخنازير إلا بها.

ومن هنـا كـان وصـفنا لمحمـد شـحرور بكونـه مهندسـا وأفاكا، ليس سوى أوصاف دقيقة وعلمية تختصر حقيقـة هـذا الرجل ومشروعه الفكـري، ورسـالته الـتي نـدب نفسـه لهـا، والتي وجدت تجاوبا من جهـات كثـيرة تريـد أن تستأصـل من خلالها الدين من أساسه.

أما كونه مهندسا، فلا نريـد منهـا كونـه دارسـا للهندسـة المدنية، ذلك أننا لا نجد له فيها أي نتـاج علمي، بـل هـو فيهـا تابع مجرد، لم يتجرأ أن يضيف إلى البنيان الهندسـي أي لبنـة واحـدة، ولا أن ينتقـد أي نظريـة، ولا أن يؤسـس أي نمـوذج، ولذلك فإننا نريد بالمهندس هنـا كونـه مهندسـا في الـدين، لا مهندسـا في البنيـان، فهـو قـد طبـق هندسـته المدنيـة في المصـادر المقدسـة، ولم يطبقهـا مـع الإسـمنت والرمـل والخرسانة المسلحة.

وكل عمله من هذا القبيل، فهـو ــ بعـد أن طـرح السـنة المطهـرة، وطـرح معهـا كـل أقـوال المفسـرين واللغـويين والفقهاء ـ راح إلى الألفاظ القرآنية يتعمل معهـا كمـا يتعامـل مع اللبنات، يضعها في المحل الذي يشاء، وينزعها من المحل الذي يشاء، مستعملا كل قدراته الهندسية التي تعلم منها فن الاحتمـال، وفن المراوغـة، ليؤسـس القصـور الكبـيرة من اللبنـات القليلـة، كمـا يؤسـس الأكـواخ الحقـيرة من اللبنـات الكثيرة.

وكمثال على ذلك أنه عندما اصطدم موقفه الهندسي مع موقف القرآن الكريم من الصلاة، حيث أنها وردت في القرآن الكريم في مواضع كثيرة جدا، واعتبر غير المصلي مجرما، وتوعده الله تعالى بالويل والعذاب الشديد، وذلك كله يتنافى مع رؤيته للدين، وأن الصلاة فيه اختيار لا واجب، راح يفكك كلمة الصلاة في القرآن الكريم، معتمدا حيلة لم يفطن لها الأولون، ولا الآخرون، ولا تعتمد على أي أساس علمي.

وقد عبر عن الدافع الذي دفعه إلى تلك الحيلة الهندسية، فقال: (قد رأينا أن من الضروري توضيح معنى الصلاة، جرياً وراء التوفيق ورفع اللبس بين قوله تعالى في سورة الماعون: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون: 4، 5]، واعتبار هذا القول موجهاً للمتقاعس عن أداء الصلاة بأوقاتها، كما ترى كتب التفسير، وبين قوله تعالى في سورة المرسلات: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (15) أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (17) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ [المرسلات: 15 - 18]، واللبس يتلخص في أن الله سبحانه يتوعد المؤمن المتقاعس عن الصلاة بالويل (وهو واد سحيق من وديان جهنم)، ويتوعد به في ذات الوقت المجرمين المكذبين، ومن المستحيل أن يستوي في عدل الله سبحانه المسلم المؤمن المقصر في أداء الشعائر، والمكذب المجرم الكافر بوجود الله والمنكر للبعث ولليوم الآخر)

ثم راح يتدرج بالقارئ ليصل به إلى الحل الذي يرفع الويل عن المصلين، لا بحثهم على إقامة الصلاة والاهتمام بها، ولا باعتبارهم مجرمين ما داموا مقصرين في حق الصلاة، وإنما بتفريغ كلمة [المصلين] من محتواها، لتصبح مجرد دعاء يقال في أي حانة أو مرقص أو مقهي، من دون وضوء ولا غسل ولا قبلة.

وقد عبر عن تلك الحيلة التي أفرغ بها الصلاة من محتواها بقوله: (والحل في رأينا يكمن في مفهوم الصلاة

ذاتها؛ فقد وردت الصلاة في التنزيل الحكيم بمعنيين محددين يختلف أحدهما عن الآخر في الشكل، ويلتقي معه في المضمون، فالصلاة في الحالتين صلة بين العبد وربه أساسها الدعاء. ولكن هذه الصلة أخذت منذ ابراهيم شكلين: أولهما صلة بين العبد وربه قالبها الدعاء، لا تحتاج إلى إقامة وطقوس، يؤديها كل إنسان له بالله صلة على طريقته الخاصة، (وقد وردت في التنزيل الحكيم الصلاة بالألف)، وثانيهما صلة بين العبد وربه، لها طقوس وحركات محددة خاصة بها، كالقيام والركوع والسجود والقراءة، وتحتاج إلى إقامة، أي على الإنسان أن يقوم ليؤديها، (وقد وردت في التنزيل الحكيم [الصلوة] بالواو). وهي من شعائر الإيمان)

والحيلة التي اعتمدها عجيبة جدا، فهي لا تتعلق بمعاني الكلمة اللغوية، ذلك أنها واحدة، ولا بالسياق الذي وردت فيه، وإنما باعتماد الرسم القرآني مع العلم أنه رسم اجتهادي كتبه الصحابة، ولم يكتبه رسول الله ﷺ ، ولم يرد أي دليل على اعتماده في المعاني.. وربما يكون السبب في كتابة الصلاة بالواو أو بالألف خاضعا للكتبة، فبعضهم يرسم حرف المد ألفا، وبعضهم يرسمها واوا..

لكن شحرورا ــ ليفرغ الكلمة من محتواها ــ استعمل هذه الحيلة.. والطريق إليها بسيط جدا، وخاصة مع التقنيات الحديثة، فهو لن يحتاج ــ كما يتوهم القارئ البسيط ــ أن يرجع للمصحف كل مرة، ويقوم بالتحقيق، بل يكفي أن يستعمل أي برنامج ليضع له كلمة الصلاة باشتقاقاتها ورسمها ومواقعها الإعرابية، ليتعامل معها هو بعد ذلك كما يتعامل مع رقعة الشطرنج، وليوهم المستمعين أو القارئين له أنه نقب وحقق وتدبر إلى أن وصل إلى تلك النتيجة العظيمة التي لم تخطر على بال أحد.

وبعد أن وضع تلك المقدمات التي على أساسها فرق بين الصلاة التي يدعو إليها، والتي هي مجرد دعاء، والصلاة التي جاءت بها الشريعة، وجاءت معها التحذيرات من التهاون

فيها، راح يعطي النتيجة للقارئ، وهي نتيجة تجعل من البشـر جميعا مصلين.. مسلمهم وكـافرهم.. ذلـك أن المسـلم عنـده هو كل من آمن بالله.. والمصلي عنده هو كل من دعـا اللـه.. وهو متحقق في جميع الملل والنحل، وبين جميـع الشـعوب.. فلا أحـــد منهم إلا ويقـــول: يـــا اللــــه.. في أي مناســـبة من المناسبات.

وهكذا راح يحتـال على الصـوم ليحـول منـه إلى إطعـام المسـاكين، مسـتثمرا كلمـة من كلمـات القـرآن الكـريم هي كلمة [يطيقونـه] مفسـرا لهـا بحسـب مزاجـه، لا بحسـب مـا اتفقت عليه أقوال اللغويين والمفسرين.

وهكذا راح إلى كلمة الإسلام نفسها، يحولها عن مدلولها الواضـــح الـــذي ضـــبطه القـــرآن الكـــريم، وضـــبطته الســـنة المطهـرة، إلى مفهـوم مطـاط مـرن، يشـمل كـل الأديـان.. ليصبح الإسلام الذي نعرفه مجـرد اختيـار شخصـي، يمكن أن يستبدله المرء متى شاء، وكيف شاء من غير أي حرج.

ولذلك لم نكتف في وصفه بكونه مهندسـا فقـط، وإنمـا بكونه أفاكا أيضـا.. فالأفـاك هـو الكـاذب الـذي يسـتعمل كـل الحيل ليصرف الأسـماع والقلـوب عن الحقيقـة إلى البـدائل الـتي يضـعها لهـا.. ولـذلك حـذر اللـه منـه، وتوعـده بالعـذاب الشـديد، فقـال: ﴿وَيْـلٌ لِكُـلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7) يَسْـمَعُ آيَـاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْـمَعْهَا فَبَشِّـرْهُ بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ (8) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَـا شَـيْئًا اتَّخَـذَهَا هُـزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [الجاثية: 7 - 9]

وهذه الآيـات الكريمـة لا تنطبـق على أحـد كمـا تنطبـق على ما يقـوم بـه شـحرور وأبنـاء مدرسـته، ذلـك أنهم ــ مـع إقرارهم بكونهم يسمعون آيـات اللـه ــ إلا أنهم يصـرون على أنهم لم يسمعوها، ذلك أنهم لا يسمعون منهـا إلا مـا يرغبـون ويشـتهون، ويفسـرونها كمـا يحبـون، متخـذين منهـا مطيـة لأهـوائهم، لا يبحثـون فيهـا عن الحقـائق ليلتزموهـا، وإنمـا يجعلون منها مطية لأمزجتهم وأفكارهم ورغباتهم.

وهو ما يجعلهم محلا لتنزلات الشياطين كما ذكر الله تعالى ذلك عند وصفه لاستعداد الأفاكين لتقبل وحي الشياطين، ذلك الوحي الذي يسميه المغفلون [مشاريع فكرية] أو [اجتهادات تجديدية]، بينما هو في المصطلح القرآن [الإفك الآثم]

قال تعالى يذكر ذلك كله: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (223) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: 221 - 226]

ولذلك، فإن المشروع الحقيقي لشحرور هو تحريف القرآن الكريم، وتفريغه من محتواه، وتحويله إلى كتاب آخر، لا علاقة له بالشريعة ولا بالقيم التي أجمعت عليها الأمة بمدارسها المختلفة.

وقد طرح ملامح مشروعه في تلك الحصة الخطيرة المسماة [النبأ العظيم]، والتي تذيعها قناة [روتانا خليجية]، وهي قناة من تلك القنوات التي تستهدف تمييع المجتمع المسلم، ونشر الانحرافات الأخلاقية والفكرية، ليخرج المسلمون من إسلامهم وقيمهم بكل سلاسة.

فقد ذكر في الحصة الأولى من ذلك البرنامج منهجه في فهم القرآن، والذي انطلق فيه من مفهوم شرعي متفق عليه، وهو كون القرآن رسالة عالمية، أي أن البشر جميعا مطالبون بالتعرف على القرآن الكريم والالتزام بتعاليمه..

لكن شحرورا لم يفهم هذا، وإنما طالب القرآن الكريم بأن ينزل إلى مستوى العالم بشعوبه المختلفة، أي أنه (يجب أن يلائم كل الشعوب كالياباني والأمريكي).. وبذلك يجب أن يصبح تابعا للقيم العلمانية المعاصرة، حتى ترضى عنه تلك الشعوب، ويصبح تابعا لها، لا تابعة له.

ولأجل هذا راح يلوي أعناق النصوص بالحيل المختلفة،

ليستخرج المفاهيم التي تتلاءم مع هذه القيم، وهو لن يحتـاج أي شيء لتحقيـق هـذا، فيكفيـه أن يبحث عن الجـذر اللغـوي للكلمـات القرآنيـة، ثم يلجـأ إلى القـواميس يبحث فيهـا عن معنى يجده أكثر توافقا مع القيم العلمانية المعاصرة ليطبقـه عليها.

ومن الأمثلة التي ذكرها لذلك، ما فسر به قولـه تعـالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّـهَوَاتِ مِنَ النِّسَـاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَـاطِيرِ الْمُقَنْطَـرَةِ مِنَ الـذَّهَبِ وَالْفِضَّـةِ وَالْخَيْـلِ الْمُسَـوَّمَةِ وَالْأَنْعَـامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الـدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْـدَهُ حُسْـنُ الْمَـآبِ ﴾ [آل عمران: 14]

فمـع كـون الآيـة الكريمـة واضـحة في دلالتهـا إلا أن شحرورا حاول أن يرضي بها أهـواء معينـة، فـراح ينكـر كـون المراد بالنساء في الآية المفهوم المعـروف المتـداول، وإنمـا جعل من النساء ـ بحسب القاموس الـذي اعتمـده ــ مشـتقة من [النسيء]، أو هي جمع كلمة [نسيء] التي تعني التـأخير، ومن ثمّ يصبح المعنى: الأشياء المؤخّرة، أي الأشياء الجديـدة المحبوبة للناس، أي بالتعبير المعاصر [الموضة]، أي أن الآيـة الكـريم تـذكر أن النـاس حببت إليهم الموضـة، لا النسـاء المعروفات.

وقد قال معبرا عن ذلك: (إنّ الآيـة فيهـا خـبر عن جميـع الناس، وليس العرب خاصة، ويجب أن يكون خبر الله صادقًا، ومن ثم يجب أن يتطـابق قـول اللـه مـع حـال العـالم اليـوم، والشيء الجديد محبوبٌ من قبل كل الشعوب، ومن ثم يكون معنى [النساء] جمع نسيء، أي الأشياء المؤخَّرة، أي الأشياء الجديدة)

ولست أدري هل حب النساء خاص بالعرب فقـط.. ومن أوحى له بهذا، ونحن نرى أن قصص العشق والغرام مرتبطـة بكل الشعوب، بل إن كل الشعوب اليوم لا تستثمر في شيء كما تستثمر في النساء باعتبـارهن الوسـيلة الأكـثر قبـولا من لدن البشر جميعا.

وهو لأجل هذا لا يتعامل مع القرآن الكريم باعتباره جملة، وإنما باعتباره مفردات متراصة، يمكنه أن يتحكم فيها كما يتحكم المهندس في البنيان، فيزيل ما يشاء من الجدران، ويضيف ما شاء منها.

ولهذا نراه يعزل السياق متى شاء، ويثبته متى شاء، ونراه يعود لأسباب النزول، ثم سرعان ما ينكرها إن لم تتساير مع رغبته.. وهكذا في تعامله مع الأحاديث المطهرة، أو مع أقوال المفسرين أو اللغويين، فهو ينطلق دائما من النتيجة، ثم يبحث بعد ذلك عن الأدلة التي تخدمها.

ولذلك كان أحسن وصف له هو كونه مهندسا أفاكا.. فهو قد استعمل الهندسة والتفكيك وإعادة البناء، لأجل تمرير الإفك على المغفلين الذين يبحثون عن الجديد من غير أن يتأكدوا من سلامته.. فيكفي عندهم أن يكون جديدا.

حسن حنفي .. والثورة على الدين

بعد الانتكسات الكثيرة التي مر بها واقعنا العربي والإسلامي، وعند ظهور المدارس الثورية المختلفة، خاصة اليسارية منها، برز في مجتمعاتنا الإسلامية صنفان من الثورة، ومعهما صنفان من الثوار:

صنف رأى أن سبب التخلف هو البعد عن الإسلام وقيمه الحضارية النبيلة، وأننا نحتاج إلى العودة إلى الإسلام الأصيل، بمفهومه الصحيح، ونقيم ثورة على التخلف الذي استثمر بعض مفاهيم الدين ليشوه الدين والدنيا من خلالها.

وصنف رأى أن سبب التخلف هو الدين نفسه، فلذلك راح يحمل على الدين، ويدعو إلى البعد عنه، ويتصور أنه أفيون الشعوب، ومن هؤلاء من جاهر بذلك، ومنهم من استعمل التقية والحيلة وأصناف الخدع لتمرير ذلك، وكان منهم صاحب المشاريع الكثيرة [حسن حنفي] الذي يمكن تلخيص مشاريعه جميعا في العبارة التي ذكرناها في العنوان، وهي [الثورة على الدين]

والميزة التي تميز بها على الكثير من الثوار على الدين أنه يملك ذكاء حادا، جعله لا يقع فيما وقع فيه أولئك المغفلون الأغبياء الذين جاهروا بإلحادهم، وصرحوا به، وادعوا صراحة تبنيهم للفكر اليساري بمنظومتة العقدية والاجتماعية، لأنه يعلم أن أولئك سيرمون في النفايات، ولن يلتفت لهم أحد.

ولذلك راح يستعمل مصطلحات الدين نفسها ليضرب الدين؛ فزعم أنه متكلم وأصولي وفقيه.. وراح يتحدث عن القضايا المختلفة كما يتحدث عنها رجال الدين أنفسهم، ويستعمل نفس تعبيراتهم.. حتى أن الكثير جلس للتلمذة بين يديه كما يجلس بين يدي المشايخ.

لكن الحقيقة لا يمكن أبدا أن تطمسها الألفاظ، كما قال

تعالى عن المنافقين: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (1) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون: 1، 2]

وهاتان الآيتان الكريمتان تعبران عن المشروع الذي يحمله حسن حنفي ويدعو إليه أحسن تعبير، فهو في ظاهره وبدايته ومقدماته ينطلق من العقيدة والشريعة الإسلامية، لكنه في باطنه ثورة عليهما، ودعوة للتملص منهما، والعبرة عند العقلاء بالنتائج لا بالمقدمات، وبالنهايات لا بالبدايات.

وتبدأ ثورته على الإسلام من ذلك المنهج البراغماتي الذي اعتمده، ودعا إلى استعماله، واستطاع أن يمرر مشروعه من خلاله.. وهو أن يُنظر إلى الإسلام، لا باعتباره دين الله، وأنه حقيقة مطلقة دلت عليها الأدلة العقلية، وأثبتتها أصناف الحجج، وإنما من كونه مادة يمكن استثمارها والاستفادة منها في تغيير المجتمع وتوجيهه.

وليته اكتفى بذلك، بل راح يدعو إلى استثمار التوجه الديني، لا بتعميقه، وتصحيحه، وإنما بتحريفه عن مساره تحريفا كاملا، لتتحول العقيدة إلى ثورة، ويتحول الإله إلى إنسان، ويتحول كل شيء في الدين إلى وسيلة لتحقيق العدل الاجتماعي والرفاه الاقتصادي باعتباره الغاية الكبرى، لا رضوان الله، ولا جنته، ولا تحقيق السعادة الأبدية التي تحن إليها كل النفوس، ولا ترقية الروح لتتصل بالملأ الأعلى، وتتحقق بما يتطلبه ذلك المحل الرفيع من سمو وروحانية.

ولذلك فإن أقرب المفكرين إليه هو [وليم جيمس] ذلك الفيلسوف البراغماتي الأمريكي، صاحب [إرادة الاعتقاد]، والقائل: (إن الاكتشاف الأعظم الذي شهده جيلي والذي يقارن بالثورة الحديثة في الطب كثورة البنسلين هو معرفة البشر أن بمقدورهم تغيير حياتهم عبر تغيير مواقفهم الذهنية)، والذي قال في كتابه [البراغماتية]: (إن الحقيقي فى أوجز عبارة ليس الا النافع الموافق للمطلوب فى سبيل

تفكيرنا تماما، كما أن الصواب ليس سوى الموافق النافع المطلوب فى سبيل مسلكنا، وحيازة الحقيقة بعيدة كل البعد على أاْن تكون غاية فى ذاتها، فهى لاتزيد عن كونها مجرد وسيلة أو إرادة أولية لبلوغ الإشباع والرضا والسرور .. كما أن الحقيقة نفسها فى حالة تغير وتبديل وانتقال)

وهكذا، وبنفس الأسلوب عبر حسن حنفي عن مشروعه التجديدي حين قال: (مهمة التراث والتجديد إذن هي إعادة كل الاحتمالات القديمة، بل ووضع احتمالات جديدة، واختيار أنسبها لحاجات العصر، إذ لا يوجد صواب وخطأ نظري للحكم عليها، بل لا يوجد إلا مقياس عملي، فالاختيار المنتج الفعال المجيب لمطالب العصر هو الاختيار المطلوب، ولا يعنى ذلك أن باقي الاختبارات خاطئة، بل يعنى أنها تظل تفسيرات محتملة لظروف أخرى وعصور أخرى ولت أو مازالت قادمة) [1]

وبناء على هذا راح يصيغ أفكاره حول العقيدة والشريعة، والتفسيرات الجديدة لهما، والتي يرى أنها تتناسب مع هذا العصر الجديد، وهي بمجموعها ليست سوى تفريغ للإسلام من محتواه، بحيث لا يبقى منه إلا الأسماء، أما المسميات، فتتغير تغيرا تاما.

ومن الأمثلة على هذا التفريغ، أو على هذه الثورة على حقائق الإسلام قوله: (فالله الواحد الذي ليس كمثله شيء، والذي لايرى ويرى كل شىء ، ليس هو بالضرورة التصور الوحيد لله كما نعلم من تاريخ العقائد، فهناك الله الحسي المجسم، محل الحوادث، عند الكرامية والمشبه على اختلاف فرقهم، وليس بالضرورة أن يكون التصور الأول صحيحا والثانى باطلا، إذ يعكس التصوران صراعا قويا، وقوة السلطان الذى ليس كمثله شىء وقوة المعارضة التي تجعل حركة التاريخ جزءا من الألوهية، أما الصفات التى تجعل الله يسمع ويرى ويبصر كل شيء، فقد تمت صياغتها من أجل

---

[1] التراث والتجديد، حسن حنفي.

استخدام سياسى خالص للسلطة، والتى هى بدورها ترى وتسمع وتبصر كل شيء) [1]

وهكذا يعبر عن القرآن الكريم والوحي الإلهي، فهو عنده مجرد افتراض لا يمكن التحقق منه إلا بمدى خدمته للواقع، فيقول: (أما الوحي بالنسبة لي، فإنني آخذه على سبيل الافتراض. أنا في رأيي؛ الوحي هو افتراض في البحث العلمي، يقوم بدور الافتراض في البحث العلمي. فهل يتحقق؟ والتحقق من الصدق. أقصد التحقق تجريبيًا صِرفًا وليس صوريًا، لا اتفاق نتائج مع مقدمات، ولكن التحقق من صحة هذا الفرض في الواقع الاجتماعي. ومن ثم فأهلًا وسهلًا، أنا أتقبل كل النبوات وكل الوحي وكل الآراء. وعليّ أن امتحنها على محك الواقع)[2]

ويؤكد هذا المعنى بقوله: (نصوص الوحي ليست كتابًا أُنزل مرة واحدة مفروضًا من عقل إلهي! ليتقبله جميع البشر. بل مجموعة من الحلول لبعض المشكلات اليومية التي تزخر بها حياة الفرد والجماعة)[3]

وهو بهذه الطريقة من التفكير يردد نفس ما ردده [وليم جيمس] حين قال: (إننا بدلا من أن نتسائل عما يسير الأشياء، وهل هي المادة أم الله؟ يجب أن يكون تساؤلنا كالتالي: ماهو الفرق العملي الذي يمكن أن يحدث الآن إذا قدر للعالم أن تسير دفته بواسطة المادة أو بواسطة الله ؟ إننا في مقدورنا أن نتمتع بإلهنا إذا كان لدينا إله)

ولهذا كانت مشاريعه جميعا مشاريع ثورية تحاول أن تحافظ على الأسماء مع تغيير المسميات، بناء على تصورها

1() التراث والتجديد، حسن حنفي.

2() الإسلام والحداثة (ص220،219)

3() التراث والتجديد (135)

أن الـدين والـتراث ليسـا سـوى نتيجـة للواقـع السياسـي والاجتماعي الذي مرت به الأمة في مراحلها المختلفة.

ولهذا نجد هـذه العنـاوين في كتبـه ومشـاريعه: (الـتراث والتجديــد)، و(من العقيــدة الى الثــورة)، و(من النص الى الابـداع)، و(الـتراث والعصر والحداثة)، وهي كلهـا مشـاريع لا تريد التجديد أو الإبداع بمفهومة المعروف، وإنمـا تريـد إلغـاء القديم وإحلال مفاهيم جديدة بدلها لا علاقة لها بها.

فمهمة المفكر في التعامل مع التراث ـ على حسـب مـا يصور ـ هو (أن يعيد قراءته بحيث يعيد إليه تعـدد الاختيـار بين بدائله حتى يستقر على وجه آخر أصلح للناس وأنفع لهم)

ولذلك فإن المنطلق عنده في التعامل مع الــتراث ليس البحث في ذاته، والتحقيق فيه، وفي مدى عقلانيته وعلميتــه، على أسس علمية وموضـوعية بحتـة، وإنمـا في الانطلاق من الواقع والمجتمع، لتخير ما يتناسب معهما، فإن لم نجد نبتــدع ما يتناسب مع المجتمع، وهو نفس ما عبر عنـه قولـه تعـالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَـةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِـهِ خَسِـرَ الـدُّنْيَا وَالْآخِـرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: 11]

فهذا الصنف الذي ذكره القرآن الكريم هـو الـذي ينظـر إلى الدين، لا باعتباره حقائق واقعية، وإنمـا باعتبـاره وسـائل نفعية، يمكن الاستفادة منهـا، واسـتثمارها في الـدنيا وللـدنيا، فإن تحقق الاستثمار، فبها، وإلا رمي كما يرمى كـل شـيء لا منفعة فيه.

وهكــذا يــدعو حســن حنفي إلى تطــوير الــدين، بحيث يتحـول إلى وسـيلة للـدنيا، وللرفـاه، لا وسـيلة للتعـرف على الحقائق، والسلوك وفق مقتضياتها.

ولهـذا، فإنـه بعـد بحثـه في الـتراث والتـاريخ، وجـد أن (المعتزلة أفضل من الأشاعرة بالنسبة للعصـر، فحاجتنـا إلى العقـل والحريـة .. والـدفاع عن الفلسـفة القديمـة وحكمتهـا

المنطقية والطبيعة والإلهية أفضل من رفضها)

وهو يذكر ذلك ليوهم القـارئ أنـه يفضـل المعتزلـة على الأشاعرة، ولكن الحقيقة غير ذلك، فهو يرفضهما جميعا، لأنـه يصور أن الواقع الحالي يحتاج تطـورا أكـثر، وجـرأة أكـثر في التعامل مـع الحقـائق الدينيـة، ولـذلك طـرح البـديل عن علم الكلام المعروف بما سماه: لاهوت الثورة، ولاهـوت التحريـر، ولاهوت التنمية، ولاهوت التقـدم، والـتي يـرى أنهـا جميعـا (لا تقل شرعية عن نظرية الـذات والصـفات عنـد الاشـاعرة، أو عن أصلى التوحيد والعدل عن المعتزلة)

أو كمـا عـبر عن ذلـك في كتابـه [الحداثـة والمعاصـرة] بقولـه: (والحقيقـة أن الطبيعـات والالهيـات علم واحـد مـرة مقلوبا إلى أسفل فتصبح الطبيعات، ومـرة مقلوبـا إلى أعلى فتصبح الإلهيات)

ولهذا، فإن الله عنده (هو الثابت فى الكون، والعالم هـو الحركة فيه واجهتان لشىء واحد .. لا يوجد إلا العـالم، واللـه هو دوامه وبقاءه واستمراره وقوانينه وسننه الثابتة، وإذا كـان الطريـق إلى الفـوز والنجـاة والسـعادة الأبديـة فى نظريـة الخلـق هـو تطـبيق الشـريعة وممارسـة الشـعائر .. فإنـه فى نظرية قدم العالم العلم بقوانين الطبيعة من أجـل السـيطرة عليها وتسخيرها)

وبناء على ذلك، فإن الاعتبار الأساسـي عنـده ليس للـه، ولا لوحيـه، ولا لشـريعة، وإنمـا للمجتمـع، فــ (المجتمـع أولاً والوحي ثانياً. والناس أولاً والقرآن ثانياً)[1]

أو كما عبر عن ذلك تحت عنوان [أنساق العقائد والنظم الاجتماعية] بقوله: (يمكن إفراز أنساق عقائدية جديدة تلـبى مطــالب الظــروف الحاليــة وتطلعــات أجيالنــا الى التحــرر والحرية والعدالة الاجتماعية والوحدة والتنمية وتأصيل الهويـة وحشد الجماهير. هم (القدماء) رجال ونحن رجال نتعلم منهم

(1) الحداثة والمعاصرة، حسن حنفي.

ولانقتدى بهم. يمكن أن يكون الله هو الأرض حرصاً من على تحرير الأرض وربطها بالألوهية وكما هو وارد بنص القرآن ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ [الزخرف: 84] ، ويمكن أن يكون الله هو الخبز والحرية تعبيرا عن حاجتنا إلى الغذاء والأمان طبقا لنص القرآن ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: 3، 4]) [1]

وبناء على هذا كله، فإن الدين عنده ليس سوى منتج حضاري، يمكن تطويره بحسب الظروف المختلفة، بل يمكن هدمه من جذوره، وبناء دين جديد على أساسه، لتتحقق المنفعة التي هي الهدف الأكبر من الدين.

وقد قال بصراحة معبرا عن ذلك: (نشأ التصور الواحدى فى مجتمع جاهلى قبلى تتناحر فيه القبائل تعبيرا عن حاجة وتلبية لمطلب لدى مجتمع محدد فى لحظة تاريخية معينة)[2]

وقال في كتابه [دراسات إسلامية]: (علم العقائد إذن اختيارات سياسية محضة، وليس علما مقدسا، وكل ظروف تفرض اختياراتها، وقد تتم تحت ظروفنا الحالية اختبارات أخرى. قد يكون من صالح الأمة الآن الدفاع عن الله وتصوره باعتباره أرضا درءا للاحتلال وتحريرا للأرض)

وهكذا يتحول الدين عنده من دين يبحث عن الله، وإقامة الصلات الروحية به إلى دين يبحث في الإنسان الذي يعتبره صانعا لله، وليس الله هو الصانع للإنسان.

ونحب أن نبين هنا أن حديثه عن التراث لا يعني به ما أنتجه المسلمون طيلة تاريخهم من أبحاث في الفقه والعقائد والتفسير وغيرها فقط، وإنما يعني به القرآن الكريم والسنة المطهرة أيضا، فهي عنده من التراث الذي يحتاج إلى انتقاء

(1) الحداثة والمعاصرة، حسن حنفي.

(2) الحداثة والمعاصرة، حسن حنفي.

وإعـادة قـراءة، لا على أسـس علميـة، وإنمـا على أسـس براغماتية.

وبنـاء على هـذا المنهج البراغمـاتي، يتحـدث عن النبـوة قائلا: (وهل تجب النبوة لحاجات عملية أي للتنفيـذ والتحقيـق وأداء الرسالة مـادام الإنسـان غـير قـادر على سـن القـوانين وتأسيس الشرائع وإقامـة الـدول أو تجنيـد الجمـاهير وتوجيـه الأمم وفتح البلدان، ألا يمكن للعقـل قيـادة المجتمعـات مثـل قيـادة الإمـام لهـا، هنـاك أيضـا العقـل الاجتمـاعي والعقـل السياسي والعقل التاريخي لوضع القـوانين وسـن الشـرائع.. إن العقـل ليس بحاجـة إلى عـون، وليس هنـاك مـا ينـد عن العقل . هل استطاعت النبوة أن تخفف من نقـائص الإنسـان وهي أول من يعترف بها؟)

وبناء على ذلك ينكـر أن يكـون في القـرآن أي شـريعة، فيقول: (ليس القرآن كتـاب تحليـل وتحـريم، بـل كتـاب فكـر وليس الغـرض منـه تغليـف العـالم بقـوانين وتقييـد السـلوك الإنساني بقواعد، بل مساعدة الطبيعة على الازدهار والحيـاة على النماء)

وبنـاء عليـه أيضـا يتحـدث عن رسـول اللـه ﷺ باعتبـاره زعيمـا براغماتيـا لا رسـولا يحمـل الحقـائق والقيم المطلقـة؛ فيقول: (النبي محمداً كان يحمل هم الوحدة الوطنية للقبائـل العربية وتكوين دولة في الجزيرة العربية، وكانت له مشـاكل مع اليهود والنصارى ومع المشركين أيضـا، فجـاء المشـركون إليه بعرض جيد، وقالوا له: نعم أيها الأخ ، ما المـانع أن تـذكر اللات والعزى لمدة سنة واحدة، وقل أنهم ليسوا آلهة.. فقال بينه وبين نفسه: إن هذا العـرض يشـكل بالنسـبة لي كـزعيم سياسي شيئا جيد، لأنه يحقق لي مصالحة مؤقتـة مـع العـدو، وماذا يعني لو أنني ذكرت اللات والعزى لمدة سنة واحدة ثم أغير بعدئذ؟)

أما أحاديثه عن الله، فهي لا تختلـف كثـيرا عن مقـولات اليساريين، ولو أنه يحاول كـل حين تهـذيبها حـتى لا تصـطدم

بأولئك الذين يقدسونه دون أن يـدركوا أهدافـه، فهـو يتحـدث عن علمـاء الكلام وحـديثهم عن اللـه قـائلا: (مـع أن علمـاء أصول الدين يتحدثون عن الله ذاتـه وصـفاته وأفعالـه، فـإنهم في الحقيقة يتحدثون عن الإنسان الكامل ؛ فكل مـا وصـفوه على أنه الله إن هو إلا إنسان مكَبَّر إلى أقصى حدوده)

ويقول: (إن لفظ (الله) يحتوي على تناقض داخلي في استعماله باعتباره مادة لغوية لتحديد المعـاني أو التصـورات، مطلقاً يراد التعبير عنه بلفظ محدود)

ويقول: (فكل ما نعتقـده ثم نعظمـه تعويضـاً عن فقـد ، يكون في الحس الشعبي هو الله)

ويقول: (ومن ثم فتوحيدنا هـو لاهـوت الأرض، ولا هـوت الثورة ، ولا هوت التنمية ، ولا هوت النظام ، ولا هوت التقدم ، كما هو الحال في العديد من الثقافـات المعاصـرة في البلاد النامية التي نحن جزء منها)

وبناء على ذلك كله؛ فـإن النتيجـة الـتي يـرمي إليهـا من خلال مشاريعه جميعا، وهي نفس النتيجـة الـتي ينطلـق منهـا جميـع التنـويريين الجـدد، هي إقصـاء الـدين إقصـاء كليـا من الحياة، وفي جميع مستوياتها، وقد عبر عن ذلك بقوله: (فـإن قيل إن الـتراث والتجديـد سـيؤدي حتمـاً إلى حركـة علمانيـة وفي العلمانيـة قضـاء على تراثنـا القـديم ومورثاتنـا الروحيـة وآثارنا الدينية، قيل قد نشأت العلمانيـة في الغـرب اسـتجابة لـدعوة طبيعيـة تقـوم على أسـاس رفض الصـور الخارجيـة وقسمة الحيـاة إلى قسـمين واسـتغلال المؤسسـات الدينيـة للجمـاهير وتوطينهـا مـع السـلطة وحفاظهـا على الأنظمـة القائمــة نشــأت العلمانيــة اســترداداً للإنســان لحريتــه في السـلوك والتعبـير وحريتـه في الفهم والإدراك ورفضـه لكـل أشكال الوصاية عليه ولأي سلطة فوقه إلا من سلطة العقـل والضـمير، العلمانيـة إذن رجـوع إلى المضـمون دون الشـكل وإلى الجـوهر دون العـرض، وإلى الصـدق دون النفـاق، وإلى وحـدة الإنسـان دون ازدواجيتـه وإلى الإنسـان دون غـيره ..

العلمانيــة إذن هي أســاس الــوحي، فــالوحي علمــاني في جـوهره والدونيـة طارئـة عليـه من صـنع التـاريخ، تظهـر في لحظات تخلف المجتمعـات وتوقفهـا عن التطـور، ومـا شـأننا بالكهنوت والعلمانية ما هي إلا رفض له؟ العلمانيـة في تراثنـا وواقعنا هي الأسـاس واتهامهـا باللادونيـة تبعيـة لفكـر غـريب وتراث مغاير وحضارة أخرى)

وهو بهذا يردد نفس مـا ردده الماركسـيون والوجوديـون وجميــع الملاحــدة حين يعتــبرون وجــود اللــه إلغــاء لوجــود الإنسان، ويعتبرون شريعة اللـه كبتـا واغتصـابا لحريـة الإنسان، ولذلك فإن أحسن تعبـير عن مشـروع حسـن حنفي هو [الثورة على الدين]

من المظالم العظيمة التي تسلط على الشيعة خصوصا دون غيرهم إلصاق كل من لبس العمامة السوداء أو البيضاء بهم، وحمله عليهم، واتهامهم جميعا به، فإن ظهر راقصا في حفلة، فعلماء الشيعية وملاليهم جميعا راقصون، وإن سب الصحابة وأمهات المؤمنين، فهو عندهم ناطق رسمي باسم جميع علماء الشيعية وفقهائهم، ولو تبرأ من قوله جميع المراجع، وظهرت البيانات الموقعة من جميع العلماء ترد ذلك، وتكذبه.

ولا نجد هذه التهمة في المدرسة السنية، حيث أنه إن ظهرت فضيحة من أي جهة؛ فإن المدرسة جميعا، تنسب الأمر لأصحابه فقط دون من عداهم، فالإرهابيون ـ مع كونهم من المدرسة السلفية خصوصا كما تصرح بذلك كتبهم وأحاديثهم ـــ إلا أنهم لا يحملون على السلفية، ولا على المدرسة السنية جميعا..

وهكذا فإن حداثيي المدرسة السنية وتنويرييها لا يحملون على المدرسة السنية، بل يُعتبرون من المنحرفين عنها، ولم يوجه أحد من الناس التهمة للمدرسة السنية بكونها تتبنى أطروحات شحرور ولا أركون ولا الجابري ولا غيرهم.

إلا القبانجي، ذلك المعمم التنويري الحداثي الذي هو أقرب إلى الإلحاد منه إلى الإسلام؛ فإنهم يعتبرونه بسبب تلك العمامة التي وضعها على رأسه، وبسبب البيئة التي ولد وعاش فيها مفكرا شيعيا.. ولست أدري هل يمكن لمتشيع أن ينكر الجنة والنار، وأن يقول بكل تلك الطروحات التي لم يقل بها شيعي في التاريخ جميعا.. ومع ذلك يحمل على الشيعة رغم أنوفهم كما حمل ياسر الحبيب، واللهياري وكل دجال وأفاك، لأن الحاكم ليس العقل ولا المنطق، ولا العدل، وإنما الحقد الذي نهانا الله عنه؛ فقال: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8]

ولذلك، فإن خطور القبانجي لا تكمن في الأفكار التي يطرحها؛ فمثلها كثير في البيئة السنية، وإنما في تلك العمامة السوداء التي يلبسها، والتي يخيل لكل من رآها أنه أمام مفكر ومرجع وداعية شيعي، فلذلك يحمل كل كلماته عليهم ظلما وزوروا وبهتانا.

لذلك آثرنا أن نتحدث عنه هنا، لنطرح فكره من جهة ـ باعتباره نموذجا للمدرسة التنويرية ـ ولننفي المظلمة عن المدرسة الشيعية التي يضع عليها الحاقدون كل النفايات، وينسون أن ينسبوا إليها أي مكرمة، لأنها في نظرهم شر محض.

وأحب أن أبين قبل أن أتحدث عنه، بأن النظام الذي رعاه، وقدره، وساهم في نشر فكره هو النظام العربي الخليجي المتمثل في دولة الإمارات العربية المتحدة، بينما النظام الذي واجهه، وانتقده، بل أدخله السجن بسبب أفكاره الخطيرة التي كان ينشرها هو النظام الإيراني[1] .. ثم يأتي بعد ذلك الناعقون ليذكروا أن أفكاره التي يطرحها هي أفكار إيران، لا أفكار الإمارات.

فقد كان أول ما بزغ نجم هذا القبانجي في دولة الإمارات عام 2010م، حينما استدعي من طرف ولي عهد أبي ظبي ليلقي محاضرة بعنوان [الإسلام الأصولي والإسلام الحداثي]، والتي انتقد فيها الأحزاب والجماعات الإسلامية ذات التوجهات السياسية، حيث اعتبرها مسؤولة عن أفكار الاستبداد والانغلاق المعرفي الذي تعاني منه الشعوب العربية.

---

[1] () في 2013م، اعتقلته السلطات الإيرانية، لإشهاره لطروحاته بين طلبة العلم، ولتشكيكه في أساسيات الدين، لكن المظاهرات المؤيدة له والتي اندلعت في البصرة وبغداد، كان لها دور كبير في الإفراج عنه وإطلاق سراحه.

وقد أعلن عنه حينها بأنه المفكر والباحث الكبير، وكان ذلك مقدمة لإشهار أفكاره في أبي ظبي وغيرها، مثلما كانت منطلقا لإشهار كل تلك الأفكار التي لا تهدم الجماعات الإسلامية فقط، بل تهدم معها الإسلام أيضا.

وبغض النظر عن المصدر الذي نشر أفكاره، وساهم في الدعوة إليها، فإنه السهولة لأي عقل ناضج أن يقرأ أو يستمع لتلك الطروحات التي يطرحها، ثم يقارنها بموقف علماء الشيعة ليتبين الحقيقة، ويعلم أن تلك العمامة التي يلبسها ذلك القبانجي ليست سوى عمامة مدنسة بالتنوير المزور، والأهواء المجردة.

فهل وجدتم ـ يا من تحملون هذا القبانجي على الشيعة ـ أحدا من علمائهم ومراجعهم يقول: (إن الجنة والنارهي خلاف العقل ولا وجود لها، وإن ورود جهنم في القرآن هو لتخويف الانسان فقط ، والوعد بالجنة هو لترغيب الانسان كي ينجذب الى الدين والايمان بالاسلام وبرسوله وكتابه) [1]

أو يقول: (في الجنة لايوجد كرم أو إيثار أو مواساة أو التنافس على العمل ولا إبداع او عمل الخير، فالناس في الجنة لا شغل لهم سوى نكاح الحوريات وشرب الخمر والعسل واللبن من الانهار ، حيث لا وجود للصفات الانسانية هناك وهذه حياة حيوانية)

أو يذكر بأنه إذا عرضت عليه الجنة، فسيرفضها، وسيكون سعيدا إذا ذهب إلى جهنم.

وهل رأيتم عالما أو مرجعا شيعيا يردد بأن الأحكام الشرعية (كانت صالحة في زمان النبي وبدء ظهور الاسلام، وهي لاتصلح لكل زمان ومكان، فالآيات جاءت لظروف محدودة ولزمن معين)، وهو نفس ما يردده أكثر التنويريين

---

[1] () انظر هذا النص وغيره في مقال بعنوان: الاسلام العقلاني والليبرالي عند الشيخ احمد القبانجي، صباح إبراهيم، الحوار المتمدن-العدد: 3569 ـ 2011 / 12 / 8 - 08:35، وهي موجودة في محاضراته على اليوتيوب.

الموجودين في البيئة السنية.

وهل سمعتم عالما شيعيا يردد ما يقوله هذا القبانجي: (إن ماجاء به محمد ليس كلاما إلهيا وليس من الله ، بل كلام ناتج عن عمق اتصاله مع الله ومع الناس؛ فأخذ يصوغ للناس كلاما نورانيا من ذهنه، وليست نصوصا مبلغا بها من الله)

وهل سمعتم أحدا منهم ـ وهم الذين يقولون بالعصمة المطلقة لرسول الله ﷺ، وللأنبياء جميعا، بل يضيفون إليهم حتى أئمة أهل البيت ـ يذكر أن رسول الله ﷺ كانت له أخطاء علمية كثيرة، وأن من أخطائه (اعتبار الارض مسطحة، وكان يعتقد أن القمر خُلقَ ليكون مواقيت للناس فقط، حيث لايستعمل الآن للتوقيت لوجود التقاويم الحديثة والساعات وغيرها من الأجهزة، وأخطأ القرآن في أسباب خلق الجبال، فاعتبرها رواسي للأرض لاعتقاده أن الأرض تطفو على سطح المياه وبحاجة للرواسي كي لا تميد وتنزلق ، وهذا ما ينفيه العلم الحديث)

وهل سمعتم أحدا منهم يردد قوله: (قال النبي محمد: [إن الله هو الضال والهادي]، فكيف يدعو الله الى الخير والشر، وهذا محال أن يناقض الله نفسه)

أو يقول: (إن ثقافة محمد ومعارفه استقاها من القس النصراني ورقة بن نوفل والأحبار اليهود وقسس النصارى الذين كانوا يلتقون به خلال أربعين سنة قبل البدء بدعوته، وأنه تزوج النصرانية خديجة بنت خويلد ابنة عم القس ورقة بن نوفل على الطقوس النصرانية ، حيث أنه لم يطلقها ولم يتزوج عليها كما توصي تعاليم الدين المسيحي حيث عقد القس ورقة بن نوفل بنفسه عقد قِران محمد على خديجة بحضور عمه أبي طالب ولي أمر محمد)

أو يقول: (نحن لانحتاج الى الله خالق السماء والأرض، بل نبحث عن الله الخير نبحث عن الرب)

أو يقول: (ثبت أن القرآن ليس من الله لوجود الكثير

من الأخطاء والتناقضات واللابلاغية واللاأخلاقية واللاعلمية فيه.. ويصف القرآنُ اللهَ بأنه جبار وماكر وغضوب وأن محمد يجسد الله ويجلسه على عرش وكرسي، وأن الله يعذب ويظلم ويستهزئ ويمكر ويأمر بالفسق والقتل وينتقم ويضل من يشاء، وهذه كلها صفات بشرية يتنزه الله عنها ، ثم يناقض محمد نفسه ويصف ربه انه ليس كمثله شئ .. لذلك فإن القرآن هو تفسير محمد لكلام الله، وليس هو كلام الله.. فالآيات القرآنية هي صياغة بشرية لما يراه النبي من تفسيرات وجدانية.. والقرآن كتاب خطابي وليس فلسفي .. وهو كلام موجه للهمج من العرب، وأدلته ضعيفة .. وكل ماجاء به من الأحكام والشرائع وقصص الأنبياء مستوحى من التوراة والانجيل والتراث المكتوب ما قبل الاسلام وليس فيه شئ جديد)

أو يقول: (إن محمدا هو من ابتدع فكرة أن يكون خاتم الانبياء وقد انتظر 18 سنة كاملة حتى أتى بسورة الاحزاب مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ [الأحزاب: 40]ـ لأنه كان يعتقد أنه سيرزق بولد ليكون خليفته ونبيا من بعده ، ولما يئس من أن يرزق بولد ذكر، قال : (لانبي من بعدي) لخوفه من ظهور أنبياء جدد منافسين كمسيلمة وسجاح ويغيروا من دينه وينكروا نبوته من بعده)

أو يقول: (إن ختم النبوة بمحمد يتنافى مع الحكمة الإلهية.. وأن القرآن ذكر أن الله سيرسل رسلا لهداية البشر بعد محمد .. وهذا يدل على استمرار ارسال رسل آخرين قبل وبعد محمد ، حيث لا يعقل أن ينقطع اتصال الله بالبشرية حتى قيام الساعة)

أو يقول: (كان الاسلام كاملا في زمان محمد، والآن يعتبر الإسلام ناقصا لتطور المجتمعات والحضارة والقوانين التي لا تنطبق عليها أحكام وشريعة الاسلام الغابرة ، فلا يجوز أن تُعتبر اليوم المراءة مساوية لنصف الرجل في

الارث والشــهادة، وهي تــدير حكومــات ووزارات وأبحــاث علمية، وتذهب في رحلات للفضاء الخارجي ، ولا يجوز اليـوم معاقبة إنسان ما بقطع يده أو عنقه بالسيف)

أو يقول: (لو كان القـرآن هـو المحـرك للعقـل البشـري للتطور والتقدم لكان المسلمون أرقى شعوب الأرض حضارة ورقيا، ولكن العكس هو الصحيح؛ فالحضارة ظهرت في أوربا بأبهى أشـكالها وأفضـل قوانينهـا، وبقى المسـلمون متخلفين لحد الآن بسبب اتباعهم لأوامر القرآن والشريعة)

وغيرهــا من المقــولات الكثــيرة الــتي يحملهــا بعض الحاقدين على الشيعة مصورا أنها مقولاتهم، لسـبب بسـيط، وهو أن قائل كل تلك الهرطقات رجل قد لبس العمامة الـتي تعود طلبة العلم في البيئـة الشـيعية أن يلبسـوها، كمـا تعـود طلبة الأزهر والزيتونة والقرويين وغيرها أن يتميزوا بلباســهم الخاص.

ما الذي أنكره على عدنان إبراهيم؟

يتصـور البعض أننـا عنـدما ننتقـد شخصـا، أو ننكـر على جهة، أننا ننكر كل شيء فيها، وننتقد كل ما يصدر منها، وهـذا وهم كبير، فليس هنـاك باطـل مجـرد، بـل الحـق يختلـط مـع الباطل، ونحن نحتاج إلى التمييز بينهما، وقد نضطر في بعض الأحيان إلى ذكر الأسـماء حـتى يحصـل ذلـك التميـيز، وحـتى يزول الالتباس.

وقد فعلنا ذلك مع عدنان إبراهيم في الفترة الحالية بعـد أن كنا ننكر عليه تلميحا لا تصريحا.. لكن بعد تحوله إلى قيادة اجتماعية، أو ـ يتعبير مالك بن نبي ـ [صنم فكري]، أصـبح من الضرورة ذكر اسمه، للتنبيه والنصح إلى أن يؤخـذ كلامـه في المسـائل العلميـة أو السياسـية بـاحتراز شـديد، حـتى لا يقـع محبوه ضـحية التقـديس لشخصـه.. وحـتى لا يكونـوا كالـذين هربوا من وثنية قديمة إلى وثنية جديدة.

بنـاء على هـذا، فـإن الـذي أنكـره على عـدنان إبـراهيم أربعة أمور:

أولها ــ الجـرأة على الحـديث على مسـائل كبـيرة في العلم والدين من غير تحقيق كبير، بـل نـراه يلقي رأيـه أمـام وسائل الإعلام، ثم يدعمه ببعض الأدلة الخطابيـة، لا العلميـة، ولا العقلية، لأنه يعلم أن جمهوره سيقبل منـه ذلـك بسـهولة، بل سيبني عليه أحكاما كثيرة، لأنـه يريـد أن يسـمع كـل مـرة جديدا، ولا يهمه البحث المفصل فيه، ولا في أدلته.

وهذا منهج غير صحيح في طـرح القضـايا العلميـة، ذلـك أنها تحتاج طرحا مفصلا للأدلة، ومناقشة علميـة هادئـة لأدلـة المخالفين، وكل ذلك بطريقة علمية ممتلئة بالهدوء.

والمشكلة الأكـبر ليس في تلـك الطروحـات، وإنمـا في إثارة عامة الناس ممن لم تكتمل لهم أدوات الاجتهاد والبحث ليتحدثوا في كل شيء، ويناقشوا كل شيء من غير بذل جهد

في البحث والمراجع، ومطالعة المطولات.. فقد عودهم على الوجبات السريعة، والحديث في القضايا الكبرى في أقل وقت ممكن.

ثانيها ـــ أنه يعيش في أوروبا، ويخطب من على منابرها، ولديه الكثير من الفرص الإعلامية التي تتيح له الحديث عن قضايا الأمة التي لا ينبغي السكوت عليها، لكنه لم يفعل.. وقد ذكرنا أنه في الوقت الذي حصل فيه العدوان الثلاثي على سورية، كانت خطبته حول الترحم على هوكينغ، بل كانت صفحته كلها دعاية لهوكينغ..

ومثل ذلك موقفه من اليمن الذي يُقتل أطفاله، وتُدمر بيوته ومؤسساته، ويلقى من الظلم ما لم يلقه بلد في التاريخ.. ومع ذلك لم نجده يتكلم كلمة واحدة في نصرة ذلك الشعب المظلوم، مع أن مؤسسات حقوقية كبرى تحدثت عنه، ومع أنه في بلد يتيح له أن يتكلم في كل شيء بحرية كبيرة.

ثالثها ـ أنه مع عدم كلامه في السياسة ــ كما يقول أتباعه ــ الذين يريدون تبرير مواقفه من السكوت عن الاعتداءات على سورية واليمن نراه يمجد كاذبا السعودية، ويزعم أنها تسير الآن في الطريق الصحيح.. ويثني ثناء عطرا على أمرائها.

ولسنا ندري سر هذا.. ولا مدى علميته.. وهل يكون دفع مئات الملايير من الدولارات لأمريكا وفرنسا وغيرهما تحضرا؟.. وهل جلب المطربين والممثلين والمهرجين، وفتح دور السينما هي الحداثة التي يريد أن نسير عليها؟

ومثل ذلك موقفه من حكام آخرين للخليج هو يعلم تماما أنهم لم يقدموا لا لشعوبهم، ولا لأمتهم شيئا، بل لم يقدموا لها إلا الخراب.. ومع ذلك يثني عليهم، ويذم أعداءهم لا الإسرائيليين، وإنما أعداءهم من المسلمين.

ولهذا صرت أخاف أن يخرج علينا في يوم من الأيام

بخرجة جديدة يقـول فيهـا: (بعـد البحث الطويـل تـبين لي أن عـداوتنا لإسـرائيل لا مـبرر لهـا.. بـل يمكننـا أن نتحـول إلى أصدقاء، فنستفيد من خبرتها وتجربتها.. والأدلة على ذلـك..)، ثم يسوق من الأدلة ما تعود أن يسوقه.

ولا أقول هذا مجازفة.. ولكن كل شـيء يـدل عليـه، لأن الأرضية أصبحت مهيأة من الناحية النفسية، كما ذكـرت ذلـك بتفصيل في المقالات الكثيرة الـتي تـرد على تلـك السـماحة الزائـدة الـتي خـرجت عن حـدودها الشـرعية، والـتي أصـبح أتباعه فيها يترحمون، ويثنـون ويقدسـون ملاحـدة العـالم في نفس الوقت الذي يلعنون فيه علماءهم وتـراثهم وكـل شـيء ينتمون إليه.

رابعها ـ أن الاهتمام الزائد به، والذي يوليه جمهوره لـه حجبهم عن كثير من الشخصـيات العلميـة، وهـو مـا يحـرمهم من العلم والتحقيق وفهم الإسلام بصورته الشاملة.. ذلـك أن الإسلام أعظم من أن يحيط به شخص واحد.

ولهـذا عنـدما كنت أكتب أي شـيء في الـرد على بعض أطروحاته تقوم قيامة أتباعه، مـع أنهم يعلمـون أني بـاحث لا أقل عنه، بل أنـا متخصـص، وأكـثر تفرغـا ودراسـة ومطالعـة بحكم ظروفي، ولكنهم يتصورون أن الإعلام هـو الـذي يصـنع الأعلام، وهو الذي يقرر من يكون باحثا ومجددا وعالما.

وعنـدما ضـربت المثـال بشخصـي الضـعيف، لم أقصـد شخصـي الضـعيف، فهنـاك الكثـير من العلمـاء المحققين المجهولين الذين لم يصلوا إلى الناس، لأنهم لم يمـدوا يـدهم لمصـافحة الوليـد بن طلال، ولا غـيره من مجـرمي العـالم.. ولذلك لم تكن هناك كاميرات تسلط الضوء عليهم، أو جهـات تتبناهم، فهُجروا لا لقلة علمهم، وإنمـا لأن العيـون لا تهفـو إلا لمن يظهرون على وسائل الإعلام.

القسم الثالث

التنويريون.. وهدم القيم

التنوير.. والتفسير المزاجي للإسلام

من مظاهر التنوير الجديد، والتي لا تتناسب تماما مع مفهوم الإسلام والتسليم المطلق لله، ذلك التفسير المزاجي للإسلام، والذي ينطلق من الأنا والمزاج وتأثيرات البيئة قبل أن ينطلق من مصادر الإسلام المقدسة التي تبين حقيقته، وتوضح مراد الله منه.

فلهذا لا نتعجب من التنويري إن خالف النصوص القطعية الصريحة من القرآن الكريم، أو السنة المطهرة، وفسرها بحسب مزاجه، لا بحسب حقيقة الأمر.. لأنه لا ينطلق من الموضوع وإنما ينطلق من الذات، ويستحيل على من امتلأ بأهواء الذات أن يكون موضوعيا، أو أن يصف الحقيقة كما هي.

وحتى يتخلص التنويري من هذه الأهواء عليه أن يقرأ المصادر المقدسة بعيدا عن نفسه، وعن بيئته، وعن الظروف التي يعيش فيها، ليفهم المقدس بطهارته وصفائه وسموه، ولا يخلطه بأي شيء، ولا يملي عليه شيئا.

وليفعل هذا عليه أن يفهم الإسلام باللغة التي فهمها به إبراهيم عليه السلام، والذي ذكر الله تعالى أنه هو الذي اختار هذا الاسم، قال تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [الحج: 78]

بل ذكر الله تعالى أنه هو الذي عرّف هذا الاسم تعريفا فعليا واقعيا واضحا، وذلك عندما أمر بذبح ابنه في رؤيا منامية.. حينها كان يمكن ـ لو كان إبراهيم عليه السلام تنويريا ـ أن يصيح بملء فيه: (يستحيل أن يصدر هذا الأمر من الله الرحمن الرحيم).. ثم يستعيذ من تلك الرؤيا، ويعتبرها وساوس شيطانية أنشأها شياطين الدجل في عقله الباطن.

أو ربما يتنازل، فيعتبرها رؤيا ملكوتية، لكنه يؤولها بما

يفعلـه الكثـير من التنـويريين؛ فيفسـر الـذبح بـذبح التخلـف والفقر والسلبية ونحوها.. أو يفسرها بذبح كل تحكم أو توجيه لابنه ليتركه يعيش حياته الطبيعية، وكأنـه من غـير أب، وكـأن الأب من غير ابن..

ويمكنه أن يفسرها بما تعود التنويريـون أن يفسـروا بـه الحقائق؛ فيغيروها عن مسارها الـذي تـدل عليـه؛ فـإن عجـز عن ذلك دله التنويريون على تجاهل الرؤيـا، وعـدم اعتبارهـا، بل إقناع نفسه أنه لم يرها أصلا..

لكن إبراهيم عليه السلام، والذي يعلم أنه عبد الله، وأنه لا يملك من أمره شـيئا لم يفهم من تلـك الرؤيـا إلا أنهـا أمـر إلهي بذبح ابنه.. فهم ذلك مع علمـه اليقيـني القـاطع برحمـة اللـه ورأفتـه بعبـاده.. ولكنـه يعلم في نفس الـوقت أن اللـه حكيم ولطيف، وأنه لحكمته ولطفه يـدبر من التـدابير لعبـاده ما تتحقق به الرحمة والرأفة في أجلى مراتبها.

لقد كان يعلم أن الذي أوحى إليه بذلك الأمر إلــه عظيم خلق هذا الكون جميعا، وقدراته لا حد لها، وعلمه لا حـد لـه.. فلذلك راح يلغي العقـل المحـدود، والـذوق القاصـر، ويسـلم نفســه تسـليما مطلقــا لصــاحب العلم المطلــق، والرحمــة الواسعة.

وهذا هو الإسـلام.. فالإسـلام هـو أن نسـلم وجوهنـا إلى الله.. ولا نـدبر معـه.. ولا نقـترح عليـه.. بـل نعلم أن أمـره لا يكون إلا لخير أو مصلحة حتى لو جهلناهـا نحن، ولم تتناسـب مع مزاجنا، كما لا يتناسب الذبح مع مزاج أي أب في الــدنيا.. فالمزاج يتناقض مع التسليم.

وهذا ما فهمه إسماعيل عليه السلام أيضا، وهـو الشـاب اليافع الذي لم يتردد ولم يحتل على أمر الله.. بل بمجــرد أن طرح عليه أبوه القضية راح يرد عليه من غير تفكير ولا تلكؤ، ولا طلب إقناع، فيكفي أن يكون اللـه هـو الآمـر حـتى يكـون ذلك مبررا لقناعتنا، لقد قال له بكل هدوء: ﴿يَـاأَبَتِ افْعَـلْ مَـا

تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ [الصافات: 102]

ولهـذا عقب اللـه تعـالى على تصـرف الأب وابنـه تجـاه أمــره بكونــه إســلاما، فقــال: فَلَمَّا أَسْــلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ [الصافات: 103]

وهذا الذي فعله إبراهيم عليـه السـلام، والـذي يسـتحيي من ذكـره بعض المتنـورين، هـو أقـوى ابتلاء واجهـه إبـراهيم عليه السلام، بل هو أقـوى من تلـك النـار الـتي أوقـدت لـه.. ذلك أن النار فرضت عليه.. أما ذبح ابنه فلم يُفرض، بل تُـرك له الخيار.

وقد نجح إبراهيم عليـه السـلام في الاختبـار.. لكونـه لم يعمل عقله القاصر، ولا مزاجـه المحـدود، ولا رأيـه الضـعيف، ولا بيئته الجاهلة، ولا أي شيء آخر.. أعمل فقط ما أمـره بـه ربه حتى لو كان ذلك الوحي رؤيا منامية.

هذا المعنى هو الذي ينبغي أن نفهم من خلاله الإسـلام.. فالإسلام هو دين الله المعبر عن مرضـاته.. واللـه خـالق كـل شـيء.. وهـو لَا يُسْـأَلُ عَمَّا يَفْعَـلُ وَهُمْ يُسْـأَلُونَ [الأنبيـاء: 23].. فلذلك كان الأدب مـع اللـه هـو التسـليم المطلـق لـه، مثلما نسلم أنفسنا للطبيب الجراح ثقـة منـا فيـه وفي علمـه المحدود وقدراته القاصرة.

وحين يتحقق منا التسليم المطلق لله تأتينـا هـدايا اللـه، ونـرى جميـل لطفـه، مثلمـا حصـل تمامـا مـع إبـراهيم عليـه السلام، فبمجرد أن تله للجـبين نـاداه اللـه: أَنْ يَـاإِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَـذَا لَهُـوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَـدَيْنَاهُ بِـذِبْحٍ عَظِيمٍ (107) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِـرِينَ (108) سَـلَامٌ عَلَى إِبْـرَاهِيمَ (109) كَـذَلِكَ نَجْـزِي الْمُحْسِـنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَـا الْمُـؤْمِنِينَ [الصافات: 104 - 111]

ومن يبتغ غير الإسلام دينا..
فسيقبل منه !

من أخطـر الطروحـات الـتي يطرحهـا بعض التنـويريين الجدد، والـتي يمكن أن تقضـي على الإسـلام ــ كـدين يحمـل عقيـدة وشـريعة ــ قضـاء نهائيـا، ذلـك التمـييع لمفهومـه، أو تطبيق معنـاه العـام على معنـاه الخـاص، وذلـك ممـا يفقـده حقيقته ولوازمه.

وهؤلاء يفعلون مثلما يفعل ذلـك الكسـول الـذي تـدعوه للتسبيح والذكر والسجود، فيقول لك: أوليس كل شيء يسبح الله ويذكره ويسجد له؟.. فإن قلت له: أجل.. قـال: فأنـا من تلك الأشياء، وكل أعضائي وخلاياي وذراتي تذكر الله، وتسبح بحمده، وتسجد له.

وهكذا مفهوم الإسلام.. فالمفهوم العام للإسـلام يتنـاول كل شيء.. فكل شيء طوع لإرادة الله، وملك لمشـيئته، من شـاء ذلـك، أو من كـره، كمـا قـال تعـالى: ﴿ أَفَغَيْـرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُـونَ وَلَـهُ أَسْـلَمَ مَنْ فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًـا وَكَرْهًـا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: 83]

والذي يزعم أنه مسلم بهذا الاعتبار مع التقصير في حق الله، وفي الإيمان بمـا يقتضـيه الإسـلام الخـاص، لا يمكن أن نطلق عليه لقب [المسلم]، ولذلك لا يصدق فيه قوله تعـالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًـا فَلَنْ يُقْبَـلَ مِنْـهُ وَهُـوَ فِي الْآخِـرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85]

ذلك أن هذا النـوع من الإسـلام مرتبـط بعقائـد وشـرائع تضـبطه، وتحميـه من أن يصـبح مجـرد دعـاوى لا دليـل يـدل عليها.. فإذا ما جاء أحـد من النـاس إلى تلـك الضـوابط الـتي تحمي حمى الإسلام، فراح يتساهل فيها أو يتلاعب بهـا؛ فإنـه بـذلك لن يبقي من الإسـلام إلا اسـمه، أمـا حقيقتـه، والـتي تشكلها المعاني التي يتكون منها، فإنها تزول بزوالها.

فهل يمكن أن يكون هناك إسلام من دون أن يكون فيه صلاة ولا صيام ولا حج ولا تلاوة ولا ذكر؟.. وهل يمكن أن يكون هناك إسلام لا تحرم فيه الخمر ولا الخنزير ولا القمار ولا الربا، ولا الفواحش، ولا كل ما ورد في الشريعة تحريمه؟.. وهل يمكن أن يكون هناك إسلام لمن يعتقد في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر خلاف ما ورد في القرآن الكريم من عقائد واضحة صريحة، تثبت الكفر لمن جحدها وعاندها بعد أن سمع بها؟

هذه أمور واضحة جدا، والنصوص المقدسة كلها من القرآن الكريم والسنة المطهرة المتفق عليها عند المدارس الإسلامية جميعا تدل عليها، لكن مع ذلك يأتي من التنويريين من يشكك في ذلك كله، ويزعم أنه يمكن للمسيحي أو اليهودي أو البوذي أو على أي دين شاء أن يحتفظ بدينه، وبشعائره وشرائعة وعقائده حتى لو كانت مناقضة للإسلام بشرط واحد، وهو أن يؤمن برسول الله ﷺ إيمانا علميا ذهنيا لا علاقة له بسلوك ولا بعقائد.

ولست أدري ما الذي دعاه إلى هذا؟.. وهل آلمه أن يدخل الناس في دين الله أفواجا، حتى راح يقول لهم: لا داعي لأن تسلموا.. فأنتم مسلمون أصلا، يكفي فقط أن يصدر منكم اعتراف بأن محمد ﷺ لا يختلف عن إرميا وإشعيا وبوذا.. وأن الإيمان به وحده يكفي، كما أن الإيمان بالمسيح وحده يكفي.. فلا حاجة لأن ترهقوا أنفسكم بالتكاليف الشرعية، التي هي خاصة فقط بتلك الأمة التي لم ترفع عنها الأغلال التي رفعت عنكم.

وهذا الذي أقوله هو الذي راح ينشره ــ للأسف ــ من سمي رئيسا لجمعية لقاء الحضارات في النَّمسا، وهو عدنان إبراهيم، الذي قدم لهذا الفكر التنويري الجديد والخطير بقوله: (ما انتهى إليه اجتهادي في هذه المسألة المشْكِلة جدًّا، وطبعا أعرف أن هذا الاجتهاد حقيق أن أكفر عليه، وبسببه من كثير من المسلمين الذين ينتظرون فرصة كهذه)

ولست أدري لم يحصر مخاطر المسألة في شخصه، وكونه سيصير محلا للتفكير.. لم لا ينظر لأولئك المسلمين الذين يعبدون الله على حرف، وكيف سيستقبلون مثل هذه الفتوى، والتي تتيح لهم أن يصبحوا مسيحيين أو يهودا، في نفس الوقت الذي يحافظون فيه على مزايا الإسلام، وامتيازاته؛ فليس عليهم سوى أن يعترفوا بأن محمدا رسول الله.. أما اتباعه؛ فليس ضروريا.

ولم لا ينظر كذلك إلى تلك الانحرافات التي ملأت الأديان؛ فأبعدتها عن كل القيم العقدية والسلوكية، لتتحول إلى أديان بشرية محضة.. ثم يأتي سعادة الأستاذ ليضيف إليها شيئا بسيطا، وهو الاعتقاد بنبوة محمد ﷺ ، لتتحول مباشرة إلى دين لله، وليس دينا من صنع البشر.. وليس على أصحابها إن أرادوا الهداية أن يتحولوا إلى الإسلام؛ فهم مسلمون أصلا.

والأمر الأعجب من كل ذلك هو زعمه أن المسلمين ينتظرون منه هذه الفرصة ليكفروه، ولست أدري ما الذي ينفعهم تكفيرهم له.. وهو الذي راح يميع اسم الإسلام أصلا ليحول منه مجالا رحبا لا ضوابط تحكمه، ولا شرائع يعرف بها، ولا عقائد ثابتة يمكن اعتقادها.

هو لا يعلم أنه بموقفه هذا لا تختلف عن ذلك الذي: [يبني قصرا، ويهدم مصرا]؛ فهو يريد أن يرضي سائر الأمم، وينسى أنه يحطم الإسلام بذلك.. بل ينسى أنه يضع الحجب بين الأمم والإسلام؟.. بل يضع الحجب بين المسلمين والإسلام؛ فالمسلم الذي يرى أنه يمكن أن يتحقق بإسلامه من غير أن يلتزم بشرائعه، يكون قد ترك الإسلام من حيث لا يشعر.

لقد قال عدنان معبرا عن هذه الفكرة الخطيرة، والتي عبر عنها في محال كثيرة، وراح يستعمل كل الوسائل للدعاية لها: (لكن باختصار: الذي بان لي أن الكتابي ـ يهوديا أو نصرانيا ـ ليس ملزما بأكثر من أن يقر بنبوة محمد، يقول:

نعم هذا نبي. لكنه ليس ملزما بأن يتبعه، وأن يتدين بشرعه)

بناء على هذا كله، وجب الرد على هذه الشبهة الخطيرة بكل صنوف الرد، والتحذير منها؛ فهي تتـدحرج كـل حين كمـا تتـدحرج كـرة الثلج، خاصـة وأن الـذي يتـولى أمرهـا قـوم مراهقـون فكريـا، يبحثـون عن كـل جديـد غـريب، من دون عرضه على الأمة، أو على مصادرها المقدسة.

ويوشك ـ لو استمر الوضع على مـا هـو عليـه الآن ــ أن يأتي اليوم الذي يـدعى فيـه غـير المسـلمين إلى البقـاء على أديانهم، باعتبارها أفضل عند الله لهم.. وما أسـهل أن تُـركب بعض النصـــوص، أو توضـــع بعض المفـــاهيم والتصـــورات والهلوسات لتحول من ذلك كله حقيقة ملموسة.

بناء على هذا سنذكر هنا ـ باختصار ـ مجـامع الأدلـة على هذه الشبهة، وهي الأدلة الخمسة التالية:

1 ـ احتمالية النصوص التي أوردوها لمعان متعددة.

2. تعـارض المعـاني الـتي فهموهـا مـع عالميـة رسـالة رسول الله.

3 ــ تعـارض المعـاني الـتي فهموهـا مـع الأمـر باتبـاع الرسول ﷺ مطلقا.

4 ـ تعارض المعاني التي فهموها بالنصـوص الدالـة على ضلال أهل الكتاب.

5 ـ تعارض المعاني التي فهموها مع إجماع الأمة.

وسنتحدث عن كل واحد منهـا هنـا، وقبـل ذلـك نحب أن ننبه إلى أن تمنينا لو كان ما يذكره عدنان إبراهيم مكتوبا في كتب أو مقـالات علميـة، حـتى نسـتطيع توثيقـه، وحـتى نـرى وجوه الاستدلال التي يعتمدونها.

لكن هؤلاء للأسف ليس لـديهم الـوقت الكـافي للكتابـة، ولا البحث المرتبــط بهــا، بــل يــدلون بتصــريحات فقــط،

كتصريحات الساسة، وإلا فإن دعوى كونه اجتهد في المسألة اجتهادا لم يسبق إليه، أو يخاف على نفسه أن يكفر بسببه كان يدعوه إلى وضع كتاب فيها، يجمع فيه الأدلة، ويناقش فيه الاحتمالات المختلفة، ولكنه لم يفعل.. لأن التصريح أيسر من الكتابة، والإثارة أهم من الأناة والبحث العلمي الدقيق والموضوعي.

1 ـ احتمالية النصوص التي أوردوها لمعان متعددة:

فقد تعلق هؤلاء كما تعلق المجسمة وغيرهم بنصوص متشابهة تحتمل معاني متعدد، وراحوا يفرضون عليها المعنى الذي يريدون، من دون أن يحاولوا الجمع بين النصوص كما هي العادة المعمول بها عند التعارض.

ومن خلال استقراء استدلالتهم في هذا الجانب يمكن أن نجد موضعين من القرآن الكريم، كانا محل شبهة لديهم:

أ ـ ما ورد في القرآن الكريم من النصوص الدالة على الدعوة لإقامة التوراة والإنجيل، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [المائدة: 68]، والتي علق عليها عدنان إبراهيم بقوله: (لا تقل: لي القرآن. الله قال: ﴿ما أنزل إليكم﴾ انتبه)

وقد غفل هذا الأستاذ وغيره ممن اتبعه فيها أو قلده عن أن تلك الآية الكريمة قد عقبت مباشرة بما يزيل الفهم السيء الذي قد يفهم منها؛ فالله تعالى عقب ذلك بقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 68]، حيث اعتبرهم كافرين لإعراضهم عما أنزل من القرآن الكريم.

وبذلك فإن الذي يقيم التوراة والإنجيل مضطر معهما لإقامة القرآن الكريم، حتى لا يكون من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ

مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الـدُّنْيَا وَيَـوْمَ الْقِيَامَـةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: 85]

فإذا فعلوا ذلك، وأقاموا القرآن الكريم نتيجة إيمانهم بـه مثل إيمانهم بكتبهم، ونتيجة إيمانهم برسول الله ﷺ ، ذلك أنه لا يمكن الإيمان برسول الله ﷺ دون الإيمان بما أنزل عليـه.. حينها يصبح الإيمان المجـرد عن الاتبـاع لغـوا، وهـو مـا ينقض أصل الأطروحة التي طرحوها.

بالإضافة إلى ذلك، فقد أخبر القرآن الكريم في مواضـع كثيرة عن نوع الإقامـة الـتي طلبهـا منهم، ومنهـا مـا ورد في الكتاب المقدس من البشارات بـه ﷺ، ووجـوب اتباعـه، وهي كثيرة جدا، وقد أشار إليهـا القـرآن الكـريم في مواضـع منـه، كقولـه تعـالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُـونَ الرَّسُـولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـاهُمْ عَنِ الْمُنْكَـرِ وَيُحِـلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَـاتِ وَيُحَـرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَـائِثَ وَيَضَـعُ عَنْهُمْ إِصْـرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَـانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُـوا بِـهِ وَعَـزَّرُوهُ وَنَصَـرُوهُ وَاتَّبَعُـوا النُّورَ الَّذِي أُنْـزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157]

بل أخبر أنه قد ورد في الكتاب المقـدس من التفاصـيل المرتبطة به ﷺ ما يجعلهم موقنين به، غير شـاكين فيـه، كمـا قـال تعـالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَـاهُمُ الْكِتَـابَ يَعْرِفُونَـهُ كَمَـا يَعْرِفُـونَ أَبْنَـاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًـا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُـونَ الْحَـقَّ وَهُمْ يَعْلَمُـونَ ﴾ [البقرة: 146]

ومنها ما ورد فيها من الوصايا الأخلاقية كالوصايا العشر، ونحوهـا، والـتي وردت جميعـا في القـرآن الكـريم الـذي هـو المهيمن على الكتب، والحـاوي لكـل مـا فيهـا من قيم نبيلـة، ومعارف سامية.

بالإضافة إلى هـذا، فقـد أخـبر القـرآن الكـريم أن هنـاك تحريفـات حصـلت في هـذه الكتب، وأن أهـل الكتـاب كـانوا يشترون بتحريفها ثمنا قليلا، فهل يعقـل أن يـأمر اللـه تعـالى

أهل الكتاب بأن يقيموا ما حرف من كتابهم: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 75]

فإذا كان ذلك حقيقة مقررة، فكيف نجيز لأحد من أهل الكتاب أن يظل على دينه، بل يعتقد بما ورد فيه من تجسيمات وخرافات وأباطيل.. ونعتبره مسلما بسبب ذلك.

لا يقول ذلك إلا من لا يعرف الكتاب المقدس، وما يحتوي عليه من أنواع الضلالة والانحراف والدجل، والتي كانت سببا في ظهور الإلحاد وغيره.. فهل يمكن أن نعتبر هذه المصادر بعد ذلك، ثم نطلب من أهل الكتاب إقامتها، وأن يضيفوا إليها فقط الاعتراف بكون محمد ﷺ مجرد رسول لا يجب اتباعه؟

والخلاصة التي ننتهي إليها من مفهوم الآية هي أن هذه الآية الكريمة تدعو أهل الكتاب للعودة لكتابهم المقدس ليتمثلوا القيم النبيلة الموجودة فيه، ويتمثلوا ما ورد فيه من أوامر باتباع الرسول الخاتم الذي تكاد الكثير من الأسفار تصرح به.. وهي لا تعني بذلك اكتفاءهم بما فيها عن اتباع الرسول ﷺ .

بل إن مثل ذلك مثل من يخاطب سياسيا يراه قد انحرف عن مشروعه السياسي الذي طرحه، بالعودة إلى مشروعه والعمل بما فيه، مما كان قد وعد به، وذلك لا يعني أن مشروعه معصوم، أو أنه كاف، وإنما هو نوع من التنزل في مخاطبة الآخر.

وهو منهج قرآني في الحوار، فقد قال تعالى في مخاطبة المشركين: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: 25]، فهل يمكن الاستدلال بهذه الآية الكريمة على أن المسلمين كانوا مجرمين.

ب ـ ما ورد في القرآن الكريم من النصوص الدالة على نجاة غير المسلمين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ

هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [البقرة: 62]، وقوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [المائدة: 69]

فهذه الآيات الكريمة لا يمكن أن تفهم إلا في ضوء النصوص الأخرى الكثيرة الدالة على كفر من أشرك بالله من اليهود والنصارى كقوله تعالى: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ [المائدة: 17]، وقوله: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ [المائدة: 72]، وقوله: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [المائدة: 73]، وغيرها من الآيات الكريمة التي تنص على كفر من أشرك بالله تعالى، أو لم يتبع الرسول ﷺ أو كذبه، كما سنرى في الدليل الثالث.

والإيمان بجميع الآيات يدعونا إلى التساؤل عن الفهم الصحيح لتلك الآيات التي يوردونها، وهو بسيط جدا لمن يعرف لغة القرآن الكريم.. فالقرآن الكريم لا يتحدث عمن رأوا رسول الله ﷺ وسمعوا به، فأولئك يجب عليهم الإيمان به واتباعه، وإنما يتحدث عمن لم يروه، ولم يسمعوا به إما لأسباب زمانية أو مكانية.

أما الزمانية؛ فلكونهم في أزمنة سبقت الإسلام، ولم يعرفوا دينا إلا تلك الديانات، فهم غير مكلفين إلا بها، وأما المكانية؛ فهو كونهم في أقصى الأرض، ولم يتهيأ لهم أن يسمعوا بالإسلام، فهم غير مؤاخذين بسبب ذلك.

ومما يدل على هذا الأسلوب القرآني في التعبير قوله تعالى ـ عند الحديث عن بني إسرائيل ـ: وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى

أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ [الأعراف: 159]، فهو لا يقصد وجودهم في كل الأزمنة، وإنما يقصد وجودهم في الأزمنة السابقة قبل رسالة رسول الله ﷺ، لأنه بعد إرسال الله له صار على الجميع وجوب اتباعه كما سنرى.

وإن شاء هؤلاء التنويريون أن يجادلونا؛ فيذكروا أن تلك الآيات الكريمة ذكرت نجاة غير المسلمين ممن عاصروا الإسلام ولم يتبعوه، حينها سيعترضون على آيات كثيرة جدا في القرآن الكريم، والتي تنص على كفر من لم يتبع رسول الله ﷺ ولم يؤمن بما جاء به.

بل حينها تعتبر دعوة رسول الله ﷺ لليهود والنصارى لغوا، وإرساله الكتب لملوك النصارى وتحذيره لهم مجرد تصرف لا معنى له.

وكيف يستقيم ذلك، وقد ورد في القرآن الكريم في نصارى نجران المسالمين الذي تعامل معهم رسول الله ﷺ بكل سماحة ولطف، ولكن مع ذلك لم يسكت عن كفرهم وجحودهم عن اتباعه، بل دعاهم إلى المباهلة، فقال: ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران: 61]

وقال لهم: ﴿ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران: 70]، وقال لهم: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: 71]

وهكذا ورد في القرآن الكريم الآيات الكثيرة التي تخبر عن الموقف الحقيقي من أهل الكتاب، وهو الموقف الذي يبين ضلالهم عن الحق، وكفرهم بسبب عدم اتباعهم له، وفي نفس الوقت يأمر بالسماحة معهم، وتأليف قلوبهم.

ولا تعارض بين الأمرين، ذلك أن البعض يتصور أن القول بكفرهم وجحودهم للحق، يقتضي المعاملة السيئة،

وهذا غير صحيح، فرسول الله ﷺ تعامل مع وفد نجـران بكـل سـماحة وأدب، ولكنـه في نفس الـوقت لم يـداهنهم ولم يجاملهم، ولم ينزل إلى رغباتهم، بل بين لهم حقيقة ضـلالهم، ودعاهم إلى المباهلة عند جحودهم لها.

وهـذا مـا ينص عليـه قولـه تعـالى: ﴿ لَا يَنْهَـاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَـاتِلُوكُمْ فِي الـدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُـوكُمْ مِنْ دِيَـارِكُمْ أَنْ تَبَـرُّوهُمْ وَتُقْسِـطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِـطِينَ﴾ [الممتحنة: 8]

2 ـ تعـارض المعـاني الـتي فهموهـا مـع عالمية رسالة رسول الله ﷺ:

ذلك أن أول مقتضيات قولهم بعدم شرطية اتباع رسول الله ﷺ، والاكتفاء بمجرد الإقرار بكونه رسولا من الله تعـالى، دون التزام ما جاء بـه من عقائـد وشـرائع، هـو عـدم عالميـة رسالة رسول الله ﷺ.

ذلك أن أول مستلزمات العالمية وجوب الاتبـاع الكامـل لما جاء به رسول الله ﷺ من لدن جميـع الأمم، كمـا ورد في الحديث الصحيح المتفق عليه: (والذي نفسي بيـده، لا يسـمع بي رجلٌ من هذه الأمة، ولا يهودي ولا نصـراني، ثم لم يـؤمن بي، إلا كان من أهل النار)[1]

وفي حـديث آخـر، قـال ﷺ: (أعطيت خمسـا لم يعطهن أحد قبلي.. [وذكر منها]: وكان النبي يبعث إلى قومـه خاصـة، وبعثت إلى الناس عامة)[2]

بل هذا الذي دل عليه القرآن الكريم في مواضع كثـيرة، فالله تعالى أخبر أن رسالة رسول اللـه ﷺ إلى كافـة النـاس بخلاف رسائل سائر الرسل، والتي ذكر أنها لأقوامهم خاصـة،

[1] رواه مسلم: ج ١، ص 134، ح 240.

[2] رواه البخاري 1 / 369 و 370 ، ومسلم رقم (521)

ومن تلك النصوص قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: 28]، وقوله: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (لأعراف:158)، وقوله: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ (الفرقان:1)، وقوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: 90)، وقوله: ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (القلم:52)، وقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:107]

وغيرها من الآيات الكريمة التي لا يفهم منها إلا كون رسالة رسول الله ﷺ شاملة للعالمين جميعا.. وكيف يتحقق ذلك إذا قلنا بمقولة أولئك التنويريين الذين يذكرون أنه يمكن أن يحافظ كل شخص على دينه، وأنه ليس ملزما بالاتباع الكامل لرسول الله ﷺ، وأنه يكفيه أن يعترف به فقط؟

مع أنه لو عدنا للكتاب المقدس، فإننا نجد كل البشارات التي تبشر برسول الله ﷺ تخبر أن رسالته للعالمين، وأن على اليهود والنصارى وغيرهم وجوب اتباعه، ذلك أن كل الشرائع تنسخ بشريعته، كما ورد في [متى 5/17-18]: (لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل، فإني الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل)، فهذا المبشر به هو الكل الذي له الكل، وهو رسول الله ﷺ.

في نفس الوقت الذي يقول فيه المسيح عليه السلام عن نفسه كما جاء في [متى 15 /ـ 24]: (لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة)؟

وهكذا ورد في نبوة النبي حزقيال عليه السلام، كما في [حزقيال 21/27]: (يأتي الذي له الحكم فأعطيه إياه)

ولهـذا جـاء اليهـود إلى المدينـة المنـورة، لأنهم كـانوا يترقبون مجيئه ﷺ إليها بحسـب مـا تـدل عليـه كتبهم، والـتي تـأمرهم بوجـوب اتباعـه، كمـا قـال تعـالى مخـبرا عن ذلـك: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:89)

فهذه الآية الكريمة تنص على أن اليهـود كـانوا من قبـل مجيء هـذا الرسـول بهـذا الكتـاب يستنصـرون بمجيئـه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، وقد نقل لنا المؤرخون ـ بالأسانيد الصحيحة ــ أقـوالهم الدالـة على ذلـك.. فقـد كـانوا يقولون: إنه سيبعث نـبي في آخـر الزمـان نقتلكم معـه قتـل عاد وإرم.

وقد نقل بعضهم شهادة عنه في ذلك، فقال: فينا واللــه، وفيهم ـ يعني في الأنصاروفي اليهـود الـذين كـانوا جـيرانهم ـ نزلت هذه الآية ـ يقصد الاية السابقة ـ كنا قد علونـاهم دهـرًا في الجاهليـة، ونحن أهـل شـرك، وهم أهـل كتـاب، فكـانوا يقولون: (إن نبيًا من الأنبياء يبعث الآن نتبعه، قد أظل زمانـه، نقتلكم معه قتل عاد وإرم)، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به.. فذلك قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾(النساء: 155)

وقـد ذكـر المؤرخـون بعض المحاجـة الـتي أقامهـا أهـل المدينة على جيرانهم من اليهـود، فـذكروا أن معـاذ بن جبـل، وبشر بن البراء بن مَعْرُور، قـالا: (يامعشـر يهـود، اتقـوا اللـه وأسلموا، فقـد كنتم تسـتفتحون علينـا بمحمـد ﷺ ونحن أهـل شرك، وتخبروننا بأنـه مبعـوث، وتصـفُونه لنـا بصـفته)، فقـال سَلام بن مِشْكم أخو بني النضـير: (مـا جاءنـا بشـيء نعرفـه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم فأنزل اللـه في ذلـك من قـولهم: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا

كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (البقرة:89)[1]

وبهذا الوجه أيضا يفسر ذلك النص الذي فهم منه التنويريون خلاف مقصوده؛ فإقامة الكتاب في هذه الناحية هو لزوم اتباع الرسول الجديد الذي تنسخ برسالته جميع الشرائع.

وهذا ما فعله النصارى أيضا؛ فعندما جاء وفد نجران طولبوا بالإسلام، ولم يطالبوا بالاعتراف المجرد برسول الله ﷺ دون اتباعه، وقد نزلت آيات كثيرة في ذلك، ومنها آية المباهلة المعروفة.

بالإضافة إلى ذلك كله، فإن كل النصوص الواردة في الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى، تخبر أن كل أنبيائهم بما فيهم المسيح عليه السلام خاص ببني إسرائيل، وهم شعب محدود العدد جدا، فكيف نجيز لهؤلاء الذين يتبعونه في أصقاع الأرض، وهم ليسوا من بني إسرائيل في نفس الوقت الذي لا نطالبهم فيه باتباع الرسول الذي أرسل للناس كافة.

فقد ورد في [متى:2: 6]: (وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا، لأن منك يخرج مدبر يرعى شعبي إسرائيل)

بل حدث المسيح عليه السلام عن نفسه، فقال، كما في متى (15:ـ 24):(لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة)

وعندما جاءته المرأة الكنعانية أعرض عنها، لكونها ليست من القوم الذين كلف بهم، كما في [متى 15:ـ 23 ـ 27]: (ثم غادر يسوع تلك المنطقة، وذهب إلى نواحي صور وصيدا، فإذا امرأة كنعانية من تلك النواحي، قد تقدمت إليه صارخة: (ارحمني ياسيد، ياابن داود! ابنتي معذبة جدا، يسكنها شيطان) لكنه لم يجبها بكلمة، فجاء تلاميذه يلحون

[1] () انظر: السيرة النبوية لابن هشام (1/547) وتفسير الطبري (2/233).

عليـه قـائلين: (اقض لهـا حاجتهـا. فهي تصـرخ في إثرنـا!)، فأجــاب: (مــا أرســلت إلا إلى الخـــراف الضـــالة، إلى بيت إسرائيل!)، ولكن المرأة اقتربت إليه، وسـجدت لـه، وقـالت: (أعـني ياسـيد!)، فأجـاب: (ليس من الصـواب أن يؤخـذ خـبز البنين ويطرح لجراء الكلاب!)، فقالت: (صـحيح ياسـيد؛ ولكن جــراء الكلاب تأكــل من الفتــات الــذي يســقط من موائــد أصحابها!)

وفي مقابل هذا نجد النصوص القرآنية بالإضـافة إلى مـا ورد من بشارات في الكتاب المقدس تنص على وجوب اتباع رسول الله ﷺ، بـل فيهـا مـا ينص على وجـوب اتبـاع الأنبيـاء أنفسهم له، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَـابٍ وَحِكْمَـةٍ ثُمَّ جَـاءَكُمْ رَسُـولٌ مُصَـدِّقٌ لِمَـا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُـرُنَّهُ قَـالَ أَأَقْـرَرْتُمْ وَأَخَـذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّـاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: 81]

وفي الحديث الصحيح المعـروف: أن عمـر بن الخطـاب أتى النــبي ﷺ بكتــاب أصــابه من بعض أهــل الكتب، فقــرأه فغضب النبي ﷺ، ثم قـال: (أمتهوكـون فيهـا يـا بن الخطـاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شـيء فيخـبروكم بحـق فتكـذبوا بـه أو بباطـل فتصـدقوا بـه، والذي نفسي بيده لو أن موسى صلى الله عليـه وسـلم كـان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني)[1]

فكيف يطالب الأنبياء عليهم السـلام بوجـوب اتباعـه ﷺ، ثم لا تؤمر أممهم بذلك؟

3 ــ تعـارض المعـاني الـتي فهموهـا مـع الأمر باتباع الرسول ﷺ :

فقد وردت النصوص المقدسة الكثيرة تأمر باتباع رسول

[1] رواه أحمد (3/387).

الله ﷺ اتباعا مطلقا، وتعتبر ذلك الاتباع علامة على صدق الإيمان؛ فلا قيمة لإيمان لا يتجاوز حدود الذهن، وكيف يمكن لعقل أن يقبل بأن شخصا ما هو رسول رب العالمين، وهو خاتم الرسل، وأن رسالته هي المهيمنة والناسخة لجميع الشرائع والأديان، ثم بعد ذلك يكتفي بهذه المعرفة دون أن يكون لها أي مفاعيل في الواقع.

إن من يقول هذا يشبه ذلك المريض الذي يكتفي بمعرفة اسم طبيبه والشهادة له بكونه طبيبا، وطبيبا كبيرا، ومختصا في مجاله، ثم بعد ذلك لا يأبه للدواء الذي يصفه له، ولا يقر به، ولا يذعن له.. فهل يمكن اعتبار هذا المريض صادقا فيما يزعمه؟

وهذا ليس خاصا برسول الله ﷺ، بل هو عام لكل الرسل، فكل الرسل أطباء، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [النساء: 64]

ولهذا نجد في القرآن الكريم ربط الاتباع بالإيمان، فأول علامات الإيمان برسول الله ﷺ هو ذلك الخضوع المطلق لكل ما يأمر به أو يدعو له؛ فكلامه ﷺ وحده حجة، ولا يحتاج المؤمن بعده أي دليل، وكيف يحتاج إلى دليل، ورسول الله ﷺ هو الناطق باسم الحقيقة المطلقة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: 3، 4]

ومن الآيات الواردة في هذا المجال قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: 36]

فهذه الآية الكريمة تخبر عن موقف المؤمنين من كل حكم يحكم به الله ورسوله، وهو الإذعان المطلق الذي لا مجال فيه لأي تفكير أو تدبر أو اختيار.

وكل النصوص المقدسة التي تأمر بطاعة الله ورسوله تربط ذلك بالإيمان، وهو علامة على أن تلك الطاعة من

مستلزمات الإيمان، قال تعالى: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ [الأنفال: 20]

بل إن الله تعالى ربط بين عدم الطاعة والكفر، فقال: قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ [آل عمران: 32]

واعتبر عدم الطاعة توليا، فقال: وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ [المائدة: 92]، وقال: وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ [التغابن: 12]

وحذر مَن يخالف أمره بالفتنة والعذاب، فقال: فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [النور: 63]

واعتبر اتباعه المطلقة علامة على محبة الله وشرطا لها؛ فقال: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [آل عمران: 31]

وهكذا ورد في الأحاديث الكثيرة الصحيحة الصريحة المتفق عليها بين المدارس الإسلامية جميعا، ومنها قوله ﷺ: (كلُّ أمتي يَدْخلون الجنة إلاَّ من أبى)، قيل: ومَن يأبى يا رسول الله؟! قال: (من أطاعني دخلَ الجنَّة، ومن عصاني فقد أبَى)[1]

فقد اعتبر طاعته شرطا للإيمان، وليس مجرد المعرفة الذهنية أو الإيمان العقلي الخالي من أي ارتباط أو تبعية أو تبعة عملية.

4 ـ تعارض فهومهم مع النصوص الدالة على ضلال أهل الكتاب:

---

[1] () البخاري،ح6737.

وهي كثيرة جدا، فقد ذكر القرآن الكريم ما فعله بنو إسرائيل في كتبهم من تحريف، وما أضافوه من إضافات ما أنزل الله بها من سلطان، سواء في العقائد، أو في الأحكام، أو في القيم وغيرها؛ فكيف يمكن بعد ذلك أن نذكر بأن القرآن الكريم نفسه يجيز لهم أن يعتقدوا بما في كتبهم من ضلالة، ويمارسوا ما ابتدعوه من بدع، ويكتفوا من إسلامهم بالاعتراف برسالة رسول الله ﷺ.. ذلك الاعتراف الخالي من أي مضمون عملي.

لا يمكننا هنا ذكر كل ما ورد في النصوص المقدسة للدلالة على ذلك؛ فقد ذكرنا بتفصيل في سلسلة [حقائق ورقائق]؛ فلذلك نكتفي هنا ببعضها من باب الإشارة.

فمنها ما ورد فيه من تحريفهم لكتبهم، كما في قوله تعالى:﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾(البقرة: 79)، وقوله: لقد ورد فيه: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة: 13)

وما نص عليه القرآن الكريم هو نفسه ما نص عليه الكتاب المقدس، حيث نجد الأنبياء عليهم السلام المذكورين فيه، ينصون على وقوع التحريف، ففي (إرميا: 23 /31 ـ 32):(وأقاوم الأنبياء الذين يسخرون ألسنتهم قائلين: الرب يقول هذا. ها أنا أقاوم المتنبئين بأحلام كاذبة ويقصونها مضلين شعبي بأكاذيبهم واستخفافهم)

وفي المزامير، في (مزمور:56/ 5):(اليوم كله يحرفون كلامي.عليّ كل افكارهم بالشر)

وفي (حزقيال:7 /ـ 26):(ستاتي مصيبة على مصيبة.ويكون خبر على خبر.. فيطلبون رؤيا من النبي..

والشريعة تباد عن الكاهن والمشورة عن الشيوخ)

وفي (إشعياء:10 /1-2):(ويل للذين يقضون أقضية الباطل وللكتبة الذين يسجلون جورا ليصدوا الضعفاء عن الحكم ويسلبوا حق بائسي شعبي لتكون الارامل غنيمتهم وينهبوا الايتام)؛ فإشعيا ـ في هذا النص ـ يتحدث عن المطامع التي جرت القضاة والكتبة إلى التحريف.. وهو يتحدث عن بيع كتاب الله بثمن بخس، بل هو يصرح بذلك قطعا لكل تأويل، فيقول:(ويل للذين يتعمقون ليكتموا رأيهم عن الرب فتصير اعمالهم في الظلمة ويقولون من يبصرنا ومن يعرفنا. يا لتحريفكم. هل يحسب الجابل كالطين حتى يقول المصنوع عن صانعه لم يصنعني. أو تقول الجبلة عن جابلها لم يفهم)(إشعياء: 29 /15-16)، ويقول:(ويل للبنين المتمردين يقول الرب حتى انهم يجرون رأيا وليس مني ويسكبون سكيبا وليس بروحي ليزيدوا خطيئة على خطيئة) (إشعياء: 30 /1)

وهكذا نجد القرآن الكريم يصف ما ذكروه في كتبهم من عقائد لا تتناسب مع جلال الله وجماله، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ [المائدة: 64]

وما أشار إليه القرآن الكريم من هذه العقائد الفاسدة لا يزال يوجد ما يدل عليها في الكتاب المقدس، فهل يمكن أن نقبل ذلك منهم؟.. وهل يمكن أن يسلم شخص يتصور الله بتلك الصورة البشعة التي يرسمها الكتاب المقدس، ثم لا يكتفى من إيمانه إلا بالاعتراف برسول الله ﷺ؟

وهل يطالب التنويريون اليهود والنصارى بأن يقيموا أمثال هذه النصوص التي لا تزال توجد في كتبهم المقدسة المشتركة [1]، والتي تصف الله ككائن يتصف بصفات البشر، فهو يأكل ويشرب ويتعب ويستريح ويضحك ويبكي، غضوب

[1] انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، للمسيري.

متعطش للدماء، يحب ويبغض، متقلب الأطوار، يُلحق العذاب بكل من ارتكب ذنباً سواء ارتكبه عن قصد أو ارتكبه عن غير قصد، ويأخذ الأبناء والأحفاد بذنوب الآباء، بل يحس بالندم ووخز الضمير (خروج 32/10 ـ 14)، وينسى ويتذكر (خروج 2/23 ـ 24)، وهو ليس عالماً بكل شيء، ولذا فهو يطلب من أعضاء جماعة إسرائيل أن يرشدوه بأن يصبغوا أبواب بيوتهم بالدم حتى لا يهلكهم مع أعدائهم من المصريين عن طريق الخطأ (خروج 12/13 ـ 14)..

وهو إله متجرِّد، ولكنه في الوقت نفسه يأخذ أشكالاً حسية محددة، فهو يطلب إلى اليهود (جماعة يسرائيل) أن يصنعوا له مكاناً مقدَّساً ليسكن في وسطهم (خروج 25/8)، كما يسير أمام جماعة يسرائيل على شكل عمود دخان في النهار كي يهديهم الطريق، أما في الليل فكان يتحول إلى عمود نار كي يضيء لهم (خروج 13/21/22).

وهو إله الحروب (خروج 15/3 ـ 4) يعلِّم يدي داود القتال (صمويل ثاني 22/30 ـ 35)، يأمر اليهود بقتل الذكور، بل الأطفال والنساء (عدد 31/1 ـ 12)، وهو إله قوي الذراع يأمر شعبه بألا يرحم أحداً (تثنية 7/16 ـ 18)، وهو يعرف أن الأرض لا تُنال إلا بحد السيف. ولذا، فهو يأمر شعبه المختار بقتل جميع الذكور في المدن البعيدة عن أرض الميعاد، (أما سكان الأرض نفسها فمصيرهم الإبادة ذكوراً كانوا أم إناثاً أم أطفالاً) (تثنية 20/10 ـ 18) وذلك لأسباب سكانية عملية مفهومة.

والمقاييس الأخلاقية لهذا الإله تختلف باختلاف الزمان والمكان، ولذا فهي تتغيَّر بتغير الاعتبارات العملية، فهو يأمر اليهود (جماعة يسرائيل) بالسرقة، ويطلب من كل امرأة يهودية في مصر أن تطلب من جارتها ومن نزيلة بيتها (أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين) (خروج 3/22)

ماذا يفعل التنويريون بعد هذه النصوص وغيرها كثير

جدا، وهي تشمل العقائد والعبادات والمعـاملات والقيم وكـل منـاحي الحيـاة.. فهـل يرضـون من أهـل الكتـاب أن يقيمـوا كتابهم، ويلتزموا بمـا فيـه.. ويكتفـون منهم بالإيمـان برسـول اللـه ﷺ.. ليصـبحوا من خلال ذلـك الإيمـان المجـرد من كـل مقتضيات مسلمين، قد صبغوا الإسلام صبغة كاملة.

5 ــ تعـارض المعـاني الـتي فهموهـا مـع إجماع الأمة:

لا نقصد هنا ذلك الإجماع المختلف فيه، والذي قـال فيـه أحمد بن حنبل: (ما يَدَّعي فيه الرجلُ الإجماعَ فهو كــذب، من ادعى الإجماع فهو كاذب، لعل الناس اختلفوا)[1]

وهــو إجمــاع المــدرس والطائفــة والفرقــة دون ســائر المســلمين، بــل نقصــد إجمــاع المســلمين جميعــا بفــرقهم المختلفة، وهو إجمـاع معتـبر؛ فالأمـة لا يمكن عقلا أو نقلا أن تجمع على ضلالة.

وهذا الإجماع يمكننا أن نجـده بسـهولة في كتب العقائـد والفقه والتفسـير والحـديث وغيرهـا، وعنـد جميـع المـدارس الإسلامية؛ فهي جميعا تنص على كفر من استحل عـدم اتبـاع رسول الله ﷺ، أو أحل حراما قطعيا، أو حرم حلالا قطعيـا، أو قال بشريعة لم تنزل في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ.

ولهذا فإن اليهودي أو النصراني الـذي يكتفي بـالاعتراف المجرد برسول اللـه ﷺ دون الاتبـاع؛ فإنـه يكـون قـد أحسـن بذلك الاعتراف، وهو أحسن حـالا من الجاحـد، ولكن لا يمكن اعتبـاره مسـلما، ولا يمكن إقـراره على ذلـك.. بـل يطـالب بالاتباع الكامل، كما نصت على ذلك النصوص المقدسة الـتي سبق ذكرها، والتي اتفق علماء الأمة بمدارسـهم جميعـا على القول بمقتضياتها.

بل إن القرآن الكـريم اعتـبر اليقين المجـرد عن الاتبـاع

1() إعلام الموقعين عن رب العالمين ت مشهور (2/ 54).

جحودا، فقال:﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: 14]

وممن نقل إجماع الأمة في المسألة ابن حزم فقد قال في كتابه [مراتب الإجماع]: (واتفقوا على تسمية اليهود والنصارى كفاراً)[1]

وقال: (ولا يختلف اثنان من أهل الأرض ــ لا نقول: من المسلمين، بل من كلِّ ملةٍ ــ في أنَّ رسول الله ﷺ قطع بالكفر على أهل كلِّ ملةٍ غير الإسلام الذين تبَّرأ أهلُه من كل ملةٍ حاشى التي أتاهم بها عليه السلام فقط)[2]

وقال: (وقد نصَّ الله عزَّ وجلَّ على أن اليهود يعرفون النبيَّ ﷺ كما يعرفون أبناءَهم، وأنهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: 33]، وأخبر تعالى عن الكفار فقال: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزُّخرُف:87]، فأخبر تعالى أنهم يعرفون صِدْقه ولا يكذِّبونه، وهم اليهود والنصارى، وهم كفار بلا خلافٍ من أحد من الأمة، ومن أنكر كفرهم فلا خلاف من أحدٍ من الأمة في كُفره وخروجه عن الإسلام)[3]

وقال: (ذكَرَ بعضُ من جمع مقالات المنتمين إلى الإسلام أن فرقة من الإباضية رئيسهم رجل يدعى يزيد بن أبي أنيسة ـ وهو غير المحدث المشهور ـ كان يقول: إنَّ من كان من اليهود والنصارى يقول: «لا إله إلا الله محمد رسول الله إلى العرب لا إلينا»؛ كما تقول العيسوية من اليهود؛ قال: فإنهم مؤمنون أولياء الله تعالى، وإن ماتوا على هذا

1() مراتب الإجماع (ص 119)

2() الفصل في الملل والأهواء والنحل: 3/142.

3() المرجع السابق، 3/237.

العقد، وعلى التزام شرائع اليهود والنصارى… قال أبو محمد [ابن حزم]: إلا أنَّ جميع الإباضية يكفِّرون من قال بشيء من هذه المقالات، ويبْرَؤون منه، ويستحلُّون دمه وماله)[1]

وقد علق النووي على قوله ﷺ: (والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)[2]، فقال: (أما الحديث ففيه نسخ الملل كلها برسالة نبينا ﷺ.. وقوله ﷺ: (لا يسمع بي أحد من هذه الأمة): أي ممن هو موجود في زمني وبعدي إلى يوم القيامة فكلهم يجب عليه الدخول في طاعته وإنما ذكر اليهودي والنصراني تنبيها على من سواهما، وذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب ؛ فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتابا، فغيرهم ممن لا كتاب له أولى. والله أعلم)[3]

وقال القاضي عياض: (ولهذا نكفر من دان بغير ملة المسلمين من الملل، أو وقف فيهم، أو شك، أو صحح مذهبهم، وإن أظهر مع ذلك الإسلام، واعتقده، واعتقد إبطال كل مذهب سواه: فهو كافر بإظهار ما أظهره من خلاف ذلك)[4]

وقال الباقلاني، وهو من كبار أئمة الأشاعرة: (باب الكلام على العيسوية منهم الذين يزعمون أن محمدا وعيسى عليهما السلام إنما بعثا إلى قومهما، ولم يبعثا بنسخ شريعة موسى عليه السلام. يقال لهم: إذا أوجبتم تصديق محمد

1() المرجع السابق، 4/144.

2() رواه أحمد (2/350)، ومسلم (1/93).

3() شرح النووي على مسلم (2/ 188)

4() الشفا في أحوال المصطفى (2 / 610) ..

وعيسى عليهما السلام في قولهما إنهما نبيان من عند الله؛ فما أنكرتم من وجوب تصديقهما في قولهما: إنهما قد بعثا إلى كل أسود وأبيض، وأنثى وذكر، وبنسخ شريعة موسى وكل صاحب شرع قبلهما؟! فإن كان قد كذبا في هذا القول مع ظهور المعجزات على أيديهما فما أنكرتم أن يكونا كاذبين في سائر أخبارهما، وهذا يبطل النبوة جملة، فإن قالوا: نحن لا نكذب محمدًا وعيسى عليهما السلام في هذا القول لو قالاه، لأنهما لو كذبا في بعض ما يخبران به عن الله سبحانه لم يكونا نبيين، ولكننا نكذب النصارى والمسلمين في ادعائهم ذلك عليهما، فالكذب واقع من ناحية أمتيهما، ولم يقع من جهتهما! يقال لهم: إذا جاز الكذب على النصارى والمسلمين في هذا الخبر الذي يدعونه على محمد وعيسى عليهما السلام فلم لا يجوز عليهم الكذب في جميع ما نقلوه عنهما، وفي نقلهم أعلامهما، ولم لا يجوز مثل ذلك على اليهود أيضًا؟! ونقله البلدان والسير، وهذا يعود إلى إبطال القول بالأخبار جملة، وفي إطباقنا وإياهم على فساد ما أدى إلى ذلك دليل على فساد قولهم، وصحة قول المسلمين والنصارى في هذا الباب)[1]

وقال أبو حامد الغزالي في كتابه: (الاقتصاد في الاعتقاد): (العيسوية: حيث ذهبوا إلى أنَّه ﷺ رسولٌ إلى العرب فقط لا إلى غيرهم، وهذا ظاهر البطلان فإنَّهم اعترفوا بكونه رسولاً حقًّا، ومعلومٌ أنَّ الرسول لا يكذب، وقد ادعى هو أنه رسول مبعوث إلى الثقلين، وبعث رُسُلَه إلى كسرى وقيصر وسائر ملوك العجم، وتواتر ذلك منه، فما قالوه محال متناقض)[2]

وقال فخر الدين الرازي في [التفسير الكبير] في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ

1() التمهيد، ص 218.

2() الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص: 111)

جَمِيعًا [الأعراف: 158]: (وقال طائفة من اليهود ــ يقال لهم العيسوية، وهم أتباع عيسى الأصفهاني ــ: إن محمدًا رسول صادق مبعوث إلى العرب، وغير مبعوث إلى بني إسرائيل. ودليلنا على إبطال قولهم هذه الآيةُ. لأنَّ قوله: يا أيها الناس خطاب يتناول كل الناس، ثم قال: إني رسول الله إليكم جميعًا، وهذا يقتضي كونه مبعوثًا إلى جميع الناس، وأيضًا: فما يعلم بالتواتر من دينه أنه كان يدعي أنه مبعوث إلى كل العالمين. فإما أن يقال: إنه كان رسولاً حقًّا أو ما كان كذلك، فإن كان رسولًا حقًّا، امتنع الكذب عليه. ووجب الجزم بكونه صادقًا في كل ما يدعيه، فلما ثبت بالتواتر وبظاهر هذه الآية أنه كان يدعي كونه مبعوثًا إلى جميع الخلق؛ وجب كونه صادقًا في هذا القول، وذلك يبطل قول من يقول: إنه كان مبعوثًا إلى العرب فقط، لا إلى بني إسرائيل)[1]

وقال الآمدي الأشعري الشافعي في كتابه [غاية المرام في علم الكلام]: (وأما العيسوية فيمتنع عليهم ـ بعد التسليم بصحة رسالته وصدقه في دعوته ــ إلا الإذعان لكلمته، إذ لا سبيل إلى القول بتخصيص بعثته إلى العرب دون غيرها من الأمم، مع ما اشتهر عنه، وعُلم بالضرورة والنقل المتواتر من دعوته إلى كلمته طوائف الجبابرة وغيرهم من الأكاسرة، وتنفيذه إلى أقاصي البلاد وملوك العباد، وقتال من عانده، ونزال من جاحده، ثم ذلك معتمد على سند الصدر الأول من المسلمين، مع علمنا بأن ذلك الجم الغفير، والجمع الكثير، ممن لا يتصوَّر عليهم التواطؤ على الباطل عادةً، لا سيما لما كانوا عليه من شدة اليقين، ومراعاة الدين، فلو لم يعلموا منه ضرورةً أنه مبعوث إلى الناس كافة، وإلى الأمم عامة، من الأسود والأبيض، وإلا لما نقلوا ذلك، رعاية للدين، مع أنه ترك الدين، وكذلك أيضًا: من جاء من بعدهم على سنتهم، وهلم جرًّا إلى زمننا هذا، ولو لم يكن نبيًّا على العموم لزم أن يكون قد كذب في دعواه، وأبطل فيما أتاه، وذلك محال

1() مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (15/ 383)

في حق الأنبياء، وحقِّ من ثبت عصمتهم بالمعجزات وقواطـع الآيات)[1]

هذه مجرد نماذج عن بعض مقـولاتهم في المسـألة، وإلا فإن النصوص في ذلك أكثر من أن تحصر، وهي موجـودة في كل أبواب الفقه التي تبين كفـر من جحـد معلومـا من الـدين بالضرورة، أو تكفر من استحل حراما، أو حرم حلالا، وغيرها.

1() غاية المرام في علم الكلام (ص: 359)

ربما يكون أحسـن لقب للتنـويريين بمختلـف اتجاهـاتهم ومناهجهم هو [الـدنيويون]، فهم مسـتغرقون في حب الحيـاة الدنيا، والتعلق بها، والدعوة إليها، واعتبارها البدايـة والنهايـة، وأن إليهـا المنتهى، لا إلى اللـه، ولا إلى حقـائق الوجـود المطلقة، التي لا تساوي الدنيا أمامها جناح بعوضة.

ولذلك يتفقون على أن الدين ـ بصورته الموروثة ـ عقبة دون التحقـق بمـا تتطلبـه الحيـاة الـدنيا من مقتضـيات، ثم يختلفـون بعـد ذلـك، فمنهم من يصـرح بإلحـاده، مثلمـا فعـل القس [جان مسلييه] الذي كان رجل دين مسيحي، لكنـه آثـر الإلحاد، ومات عليه، أو مثلما فعل عبـد اللـه القصـيمي، ذلـك الذي كتب الكتب في نصرة الاتجاه السلفي، وتكفير الصوفية والشيعة وغيرهما، ثم راح يكفر بالـدين نفسـه، ويكتب الكتب في الرد عليه باعتباره عقبة كبرى دون التطور.

ومنهم من لا تكـون لـه جـرأة ماسـلييه ولا القصـيمي، فلـذلك ينهج منهجـا آخـر هـو أخطـر على الـدين من الإلحـاد المجرد الواضح، وهو تفصـيل الـدين على مزاجـه، باسـتعمال مناهج وأساليب مختلفة ليصـبح الـدين نفسـه دنيويـا، والغايـة منه دنيوية محضة.

وأول علامات هـؤلاء هـو نفـورهم من الغيب، وتركـيزهم على عـالم الشـهادة، واعتبـارهم أن الغيب يحـول دون الشـهادة، فلـذلك إذا مـا ذكـر الغيب بينهم راحـوا يسـخرون، ويـذكرون لازمتهم الـتي تعـودوا ترديـدها، وهي أن الغـرب يتطـور، ويصـنعون الصـواريخ، ونحن لا زلنـا نبحث في عـالم الغيب..

ولكنهم ــ وهم يقولـون هـذا الكلام بتثـاؤب وكسـل ــ لا يقدمون شيئا، وإنما ينتقدون فقط الإيمان بالغيب، ويسخرون من أولئك الطيبين الذين تعيش أجسادهم في عالم الشـهادة

بينما تحلق أرواحهم في عالم الغيب، وهم الذين مدحهم اللـه تعالى في أول كتابه، بل اعتبر الهداية قاصـرة عليهم؛ فقـال: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقـرة: 2، 3]

وهكذا أثنى على الذين يخشون ربهم بالغيب، واعتـبرهم من المتقين، لأنـه لا تحصـل التقـوى إلا لمن آمن بـالغيب، وجعله كـل لحظـة بين عينيـه، كمـا قـال تعـالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (48) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبيـاء: 48، 49]

وهكذا اعتـبرهم من الأوابين الحـافظين للعهـود، بسـبب إيمانهم بالغيب، كما قال تعـالى:﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: 31 - 33]

بل إنه أخبر أن الإنذار الذي كلـف بـه رسـول اللـه ﷺ لا يستفيد منه إلا المؤمنون بالغيب، كمـا قـال تعـالى: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (10) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: 10، 11]

وهذه الآية الكريمة تعـبر بدقـة عن ذلـك السـلوك الـذي يمارسه التنويريون، ويكادون يتفقون عليـه من إزاحـة الإنـذار من وظائف النبوة والـدعوة إلى اللـه، واعتبـار الـدعوة فقـط تبشـيرا لا إنـذارا، ولـذلك يتصـورون أن كـل من يتحـدث عن عذاب القبر أو عذاب جهنم منحرفا، وبعيدا عن فهم الدين.

ولست أدري من أين لهم هذا، والقرآن الكريم كله إنذار وتخويـف، ولا يمكن لمن يقـرؤه صـادقا إلا أن يمتلئ بتلـك الخشية من الله، والـتي تولـد فيـه لا محالـة حـوافز التقـوى، وروادعها.

بل إن القرآن الكريم، وفي ذكره للذنوب التي نحتقرها، يشدد ويتوعد ويهدد، ثم يأتي هؤلاء التنويريون بما أوتوا من سماحة لينسخوا كل ذلك، ويعقبوا على الله في حكمه، ليرضوا أهواءهم أو جماهيرهم، ولا يعلمون أن البشر الذين خاطبهم رسول الله ﷺ هم نفسهم البشر الذين يقومون بخطابهم.

ومن علاماتهم تحقير العبادات والاستهانة بها، لأن الدين عندهم ليس سوى علاقة للإنسان مع الإنسان أو الكون؛ فالإنسان هبط إلى الدنيا في تصورهم ليعمرها، ويملأها بالأبراج والطائرات والصواريخ، ويسيطر على مناخها وتضاريسها، أما ترقية نفسه بممارسة العبادة وكثرة الذكر والرياضات الروحية، فهي عندهم تشدد وتطرف وبلادة.

ولذلك يستهينون بالشعائر التعبدية، ويحقرونها، ويحاولون تأويل كل ما ورد فيها من النصوص تأويلات مختلفة، حتى تصبح الصلاة أحقر الأعمال، لا أشرفها، ويصبح الذكر هو ذكر الدنيا، ولا ذكر الله، ولا الشوق إليه.

ومن علاماتهم احتقار الصالحين والأولياء الذين أمرنا الله تعالى بسلوك سبيلهم، وبأن نكون معهم، فالصالحون عندهم هم المخترعون والمكتشفون، لا أولئك الذين أفنوا أعمارهم في ذكر ربهم والدعوة إليه..

وهم لا يتوقفون عند أفراد الصالحين، وإنما يضمون إليهم الأنبياء والمرسلين، وخصوصا سيدنا رسول الله ﷺ، ولذلك يحتقرون سنته، ولا يبالون بها، بل يعقبون عليه بما تمليه أهواؤهم.

والعلامة الأكبر لهؤلاء هو نفورهم من كل تلك النصوص المقدسة التي تحقر الحياة الدنيا، وتعتبر حبها أم الخطايا، وتعتبر كل ضلالة حصلت في الأرض ناتجة عنها، كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ

بِغَيْرِ حِسَابٍ [البقرة: 212]

وهذه الآية الكريمة تحوي وصفا دقيقا لهؤلاء الدنيويين الذين يسمون أنفسهم تنويريين، ذلك أن الدنيا قد زينت في أعينهم، فاستحلوها، ثم راحوا يسخرون من الذين آمنوا، والذين اتقوا، مع أنهم فوقهم يوم القيامة، كما أنهم فوقهم في الحياة الدنيا.

ولذلك لا نجد تنويريا إلا وهو يسخر من العلماء والأولياء والعباد والزهاد، ويعتبرهم جميعا متخلفين لم يفهموا الدين كما فهمه..

ولهذا نراهم يحتقرون الوعاظ الذين يمارسون ما كان يمارسه رسول الله ﷺ من التحذير من الاستغراق والتثاقل إلى الحياة الدنيا، باعتبارهم أخطر ما يهدد حقيقة الإنسان نفسها، والتي قد تتحول إلى كلب يلهث، كما قال تعالى: وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [الأعراف: 175، 176]

وبناء على هذا كله، فإن كل النصوص المقدسة التي تحذر من الحياة الدنيا، وتبين حقيقتها هي في الحقيقة رد على الفكر التنويري، الذي يبالغ فيها، ويعتبرها أصلا وغاية ومقصدا.

وهو عندما يفعل ذلك لا يقدم شيئا جديدا، لأنه عقل يهدم ولا يبني، ولهذا نرى الكثير من التنويريين يملكون شهادات علمية في الطب والفيزياء والهندسة وغيرها، ثم يتركونها، ولا يقدمون في تخصصاتهم أي شيء جديد، بينما يذهبون إلى القرآن الكريم يتلاعبون بألفاظه ومعانيه، ليحولوها إلى المسار الذي تريده أهواؤهم.

ولهذا ذكرنا أن العقل التنويري أخطر من العقل الملحد، وأكثر بعدا من الدين عنه، لأن الملحد قـد يقتنـع في يـوم من الأيام، ويعود إلى الله بتواضع، أما التنويري، فهـو يتصـور أنـه على شيء، بينما هو لا يملك من الدين إلا السـراب والأهـواء والتقول على اللـه، كمـا قـال تعـالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُـدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَـأَنَّ بِـهِ وَإِنْ أَصَـابَتْهُ فِتْنَـةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِـهِ خَسِـرَ الـدُّنْيَا وَالْآخِـرَةَ ذَلِـكَ هُـوَ الْخُسْـرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: 11]

والعقـل الملحـد يكتفي بنقـد الـدين من دون أن يتـدخل في تحريفه وتبديله والتلاعب به، بينما العقل التنـويري يفعـل ذلك، ويفتري على الله الكذب، ويـزعم أنـه يفهم من الـوحي ما لم يفهمه كل العلماء والصالحين، كما قـال تعـالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَـذِبًا أَوْ قَـالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُـوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: 93]

فكرة لم يسبقني إليها أحد

مع كثرة النصـوص المقدسـة المحـذرة من الريـاء وحب الجاه وطلب السمعة، والداعية إلى التواضع والعبودية وطلب خمـول الـذكر، نجـد ألسـنة كثـيرة تتحـدث عن الـدين، وكأنـه سلعة من السلع، أو اخـتراع من الاختراعـات، أو مضـمار من المضامير التي يتنافس فيها أهل الدنيا ويتقاتلون.

ومظاهر ذلك كثـيرة جـدا، ولعـل أحسـن وصـف لهـا مـا وصفه أولياء هذه الأمة عند تسميتهم لهـؤلاء بكـونهم [علمـاء الدنيا]، حتى لو كانوا يعلّمون القـرآن، أو يدرّسـون الفقـه، أو يكتبون في العلوم الشرعية.

وأبشع تلك المظاهر هو تلك العبارة التي نسمعها كثـيرا، وكأنها أدب من الآداب الشرعية، أو سنة من السـنن النبويـة، وهي قول بعضهم عندما يكشف الله له فهمـا من الفهـوم، أو معرفة من المعارف: (وهذه فكـرة لم أر من سـبقني إليهـا)، أو (لم يسبقني إليها أحد)

فإذا وجدها بعد ذلك عند بعضهم، وقد ذكرها من غير أن ينسبها إليه قـامت قيامتـه، وراح يهـدد ويتوعـد، مـع العلم أن تلك الفكـرة قـد تكـون مرتبطـة بـالإخلاص ودرجاتـه، والـورع ومراتبه.. وقد يكـون لهـا علاقـة بالشـرك وخفايـاه، أو الريـاء ومظاهره.. وقد تكون تفسيرا لآية قرآنيـة، أو شـرحا لحـديث نبوي.

وهـو يفعـل ذلـك بكـل تبجح، بـل ربمـا يكتب في ذلـك المقالات.. وكأن الدين شيء، والحديث عنه شيء آخـر.. مـع أن العلم بالدين يقتضي أولا أن يتدين المتعلم له، والمتحـدث به، وإلا كـان مغـرورا مخادعـا، أو مفتونـا مضـللا، {أَخْلَـدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ} [الأعراف: 176]

كما ورد ذلك الوصـف في الأثـر عن اللـه تعـالى خطابـا

لداود عليه السلام: (يا داود! لا تجعل بيني وبينك عالماَ مفتونا بالدنيا، فيصدك عن طريق محبتي، فان أولئك قطاع طريق عبادي المريدين، إن أدنى ما أنا صانع بهم، أن أنزع حلاوة مناجاتي من قلوبهم)

وقال المسيح عليه السلام: (الدنيا داء الدين، والعالم طبيب الدين، فاذا رأيتم الطبيب يجرّ الداء إلى نفسه فاتهموه، واعلموا انه غير ناصح لغيره)

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ قال: (إياكم وثلاثة: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، ودنيا تقطع أعناقكم ; فأما زلة عالم فإن اهتدى فلا تقلدوه دينكم، وأن يزل فلا تقطعوا عنه آمالكم. وأما جدال منافق بالقرآن فإن للقرآن منارا كمنار الطريق، فما عرفتم فخذوه، وما أنكرتم فردوه إلى عالمه. وأما دنيا تقطع أعناقكم، فمن جعل الله في قلبه غنى فهو غني)[1]

وقال: (إني لا أتخوف على أمتي مؤمنا ولا مشركا، فأما المؤمن فيحجزه إيمانه، وأما المشرك فيقمعه كفره، ولكن أتخوف عليكم منافقا عالم اللسان، يقول ما تعرفون، ويعمل ما تنكرون)[2]

وقد ورد في الآثار عن الإمام الصادق وصفا رائعا لأمثال هؤلاء العلماء، وسلوكاتهم المتناقضة مع مقتضيات الدين، والدركات التي تنتظرهم في جهنم، وهو مما لا يقال بالرأي، وإنما تلقاه عن آبائه وأجداده إلى رسول الله ﷺ، فقد قال: (إن من العلماء من يحب أن يخزن علمه ولا يؤخذ عنه فذاك في الدرك الأسفل من النار، ومن العلماء من إذا وعظ أنف وإذا وعظ عنف فذاك في الدرك الثاني من النار، ومن

---

[1] () رواه الطبراني في الأوسط، انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (1/ 186).

[2] () رواه الطبراني في الأوسط والصغير، انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (1/ 187)

العلماء من يرى أن يضع العلم عند ذوي الثروة ولا يرى له في المساكين، فذاك في الدرك الثالث من النار، ومن العلماء من يذهب في علمه مذهب الجبابرة والسلاطين، فإن رد عليه شئ من قوله أو قصر في شئ من أمره غضب فذاك في الدرك الرابع من النار، ومن العلماء من يطلب أحاديث اليهود والنصارى ليغزر به علمه ويكثر به حديثه فذاك في الدرك الخامس من النار، ومن العلماء من يضع نفسه للفتيا ويقول: سلوني ولعله لا يصيب حرفا واحدا والله لا يحب المتكلفين فذاك في الدرك السادس من النار، ومن العلماء من يتخذ علمه مروة وعقلا فذاك في الدرك السابع من النار)[1]

تمنيت لو أن هذه الروايات والنصوص المقدسة علقت على باب كل كلية إسلامية، ونشرت مع كل كتاب، ووضعت في باب كل مجلس علمي، حتى نجرد الدين من ذواتنا وأهوائنا ونتركه لله وحده، ونتعامل بكل عبودية مع كل معرفة تتاح لنا، أو فهم ينزله الله علينا.

---

[1]() بحار الأنوار، ج8، ص310.

مما دلت عليه النصوص المتواترة من السـنة المطهـرة، بل مما دلت عليه أديـان الشـعوب المختلفـة ظهـور الـدجال، الذي تجتمع فيه كل أنواع الفتن، ما ظهر منها وما بطن.. بـل إن التحليـل البسـيط لحركـة التـاريخ يـدل عليـه.. ذلـك أن المشروع الشيطاني يكتمل عنده، فعنده يجمع الشيطان كـل مـا تعلمـه في تاريخـه الطويـل من إغـراءات ووسـاوس وتضليلات..

ولهذا ورد في النصوص المقدسة أنه يستطيع، وبحركات بسيطة أن يوفر لمن يتبعه كـل المرافـق الـتي يحتاجهـا، بـل حتى تلك التي لم يكن يحلم به، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: (فيأتي على القوم فيـدعوهم، فيؤمنـون بـه، ويسـتجيبون لـه، فيـأمر السـماء فتمطـر، والأرض فتنبت، فـتروح عليهم سـارحتهم أطـول مـا كـانت ذراً، وأسـبغه ضـروعاً، وأمـده خواصـر. ثم يـأتي القـومَ فيـدعوهم، فـيردون عليـه قولـه، فينصـرف عنهم، فيصـبحون ممحلين ليس بأيـدهم شـيء من أموالهم. ويمر بالخربـة فيقـول لهـا: أخـرجي كنـوزك، فتتبعـه كنوزها كيعاسيب النحل)(1)

وهذا الحديث بهذا الوصف الـذي ذكـره رسـول اللـه ﷺ، والذي راعى فيه قدرات البيئة التي كان فيهـا، والـتي لم تكن تـرى من فتن الـدنيا إلا ذلـك الغيث البسـيط الـذي يـنزل من سمائها، أو ذلك العشـب الأخضـر الـذي يكسـو أرضـها.. وهـو يشير بلسان حاله إلى أمور أكبر وأخطـر.. وهي تلـك الكنـور التي تتبعه وتسير خلفه وتسخر له.

وبذلك فإن الدجال ـ بحسب ما تشير إليه تلك النصـوص ـــ هـو الزبـدة والعصـارة والخلاصـة الـتي تجتمـع فيهـا كـل المغريات الـتي عرفتهـا البشـرية في جميـع عهودهـا.. وذلـك

---

(1) مسلم (8/197-198)، وأبو داود(2/213)

يستدعي أن تجتمع لديه جميع العلـوم والتقنيـات.. ليس ذلـك فقط.. بل تجتمع لديه جميع وساوس الأبالسة وفلسفاتهم..

ولو كان الأمر قاصرا على توفر تلك المرافق والخدمات والمغريات لكان الأمر سهلا.. لكن الدجال لا يكتفي بذلك، بل هو يجعل من كل ذلك أحبولة لنزع الإيمـان من قلـوب.. نـزع الإيمان بالله من القلوب، وإحلال الإيمان به وبدجله ومغرياته بدلها.

وكمقدمة لذلك ينشـر الشـيطان الآن بأدواتـه المختلفـة من جميع أقطاب الشر، ومن يتبعه من الأذنـاب أنـه لا أهميـة للإيمان أو الكفر، أو الطاعـة أو العصـيان.. بـل الأهميـة لنمـو الاقتصاد.. وتطور التكنولوجيا.. وتوفر الخدمات.. أمـا الإيمـان والطاعة فهي مجرد أفكار نسبية لا قيمة لها.

وبــذلك أصــبحت مــوازين البشــر هي مــوازين الــدجال نفسها.. فالبشر لا يملكون قيمتهم بسبب الإيمان الذي يعمــر قلوبهم، ولا بالأخلاق التي تكســو ســلوكهم، وإنمـا بمـا سـماه الله تعالى [ظاهر الحياة الدنيا]، وهي تلك المعارف البسيطة الـتي تهتم بخدمـة الشـهوات والأهـواء والغرائـز.. ثم تختصـر الحياة والكون فيما تراه من ظواهر..

وقد اعتـبر اللـه تعـالى كـل ذلـك جهلا لا تسـاوي نشـوة إيمان مؤمن حتى لو كان راع في جبـل أو حمـال في سـوق، قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَـاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: 6، 7]

هذه الآية الكريمة كافية لمن تأملهـا في أن يعيـد ضـبط بوصلته.. حتى لا يكون من أنصار الدجال عند خروجه أو قبــل خروجــه.. وحــتى لا يكــون من الممهــدين للــدجال الــذين يحتقرون الإيمان، والمعارف الإلهيـة، ويختصـرون الحيـاة في الحياة الدنيا، ويختصرون القيم فيما تمليه الأهواء والغرائز.

المرجئة الجدد.. والتألي على الله

من أخطر الظواهر التي أصابت كـل الأديـان، وانحـرفت بهـا عن القيم الـتي جـاء بهـا الأنبيـاء عليهم الصـلاة والسـلام [ظاهرة الإرجاء]، وهي الظاهرة التي تعبر عن تلـك الرغبـات النفسـية الـتي تريـد أن تتجـاوز مـوازين العدالـة الإلهيـة، لتستبدلها بموازين جديدة، لا يـدل عليهـا إلا الهـوى، والتفكـير الرغبـــوي المجـــرد، والمعتمـــد على العاطفـــة، أو بعض المصادرات على المطلوب.

وقـد أشـار اللـه تعـالى إلى هـذا الإرجـاء عنـد اليهـود، وزعمهم أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة، لسبب بسـيط، وهو أنهم يهود، وشعب الله المختار، فقال: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنـدَ اللّـهِ عَهْـدًا فَلَن يُخْلِـفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُـونَ﴾ [البقـرة:80]، وقال: ﴿ذَلِكَ بِـأَنَّهُمْ قَـالُواْ لَن تَمَسَّـنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًـا مَّعْـدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُون﴾ [آل عمران:24].

والآيــة الكريمــة تشـير إلى مــا أطلقنــا عليــه [التفكـير الرغبـوي]، أو [دين البشـر]، والـذي عـبر عنـه قولـه تعـالى: ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَـانُواْ يَفْتَـرُون﴾، فـدين البشـر يعتمـد على تلــك الأكــاذيب الــتي يكــذبون بهــا على أنفســهم، ثم يفرضـونها على ربهم، ويتـألون عليـه، ويتصـورون أن الجنـة والنار صارت بيدهم، لا بيد ربهم.

وما ذكره القرآن الكريم عن اليهود، هـو نفسـه مـا وقـع فيه النصارى، فقد ورد في [رسالة يوحنـا الرسـول الأولى 2: 1)]: (يا أولادي أكتب إليكم هذا لكي لاتخطئوا وإن أخطأ أحدٌ فلنــا شــفيع عنــد الأب، يســوع المســيح البــار، وهــو كفــارة لخطايانا. ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضاً)

وبناء على هذه المقولة وغيرها ذهبت كل تعاليم المسيح والقيم النبيلـة الـتي جـاء بهـا أدراج الريـاح، ذلـك أن السـوط

الذي جعله الله لتأديب عباده، وهو جهنم، وعذابها الشديد، صار ملغيا بفعل تلك المفاهيم الإرجائية.

ونفس الشيء حصل للمسلمين في عهدهم الأول، حيث تحول الكثير منهم إلى فرق إطفاء لجهنم، وسعيرها، بل إلغائها أصلا، واعتبار أن كل تلك التهديدات التي وردت في القرآن الكريم، ولأبسط التجاوزات والذنوب مجرد تهديدات لفظية لا قيمة لها..

وانتشر بينهم أن رحمة الله واسعة.. ولطفه بعباده عظيم.. وأنه يكفي أن يتحقق الإيمان بالله ورسوله، لتتنزل بعده السعادة المطلقة، ولا يهم بعد ذلك، هل كان ذلك الإيمان مجرد أقوال تقال، أو حركات تؤدى، أو كانت قيما يعيشها صاحبها، ويضحي بكل شيء من أجلها.

انتشر في ذلك الحين مثل تلك الأحاديث التي لا تعطي أي قيمة للعمل، ولا للسلوك الأخلاقي مثل حديث: (أتانى جبريل فبشرنى أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق)(1)

وهكذا انتشرت مثل هذه النصوص الإرجائية، لتحول من الزنا والسرقة وشهادة الزور وكل الجرائم الإنسانية بما فيها القتل نفسه شيئا بسيطا لا أهمية له، مع أن الله تعالى في القرآن الكريم يتوعد بالعذاب الشديد لأجل قضايا بسيطة جدا، لا تساوي أمامها تلك الجرائم شيئا.

هذا حال المرجئة القدامى مع التعاليم القرآنية والنبوية، ومع القيم الشريفة التي وردت فيهما، أما المرجئة المحدثين، فحدث ولا حرج.. فقد راحوا إلى الإيمان نفسه يحذفونه، فلا يشترط عندهم الإيمان لدخول الجنة.. بل يكفي أن يكون الإنسان طيبا، وخلوقا.. أما الإيمان فهو مسألة فرعية لا قيمة لها.

(1) رواه البخارى (6/2721، رقم 7049) ، ومسلم (1/94، رقم 94)

وأمـــا قولـــه تعـــالى: ﴿ قُـــلْ لِلَّذِينَ كَفَـــرُوا سَـــتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَـادُ﴾ [آل عمـران: 12]، فهـو عندهم منسوخ، ومؤول بصنوف التأويلات.. فالكافر عندهم لا وجــود لــه إلا في النصــوص المقدســة، وأمــا في الواقــع، فلا وجود له.. حتى ذلك الذي ينفي الله، ويعيش عمره داعية إلى الإلحاد، أو ساخرا من الله، لا قيمة لكل ذلك عندهم، فهـو مـا دام يـؤمن بالجاذبيـة أو بالطبيعـة.. فيمكن أن نعتـبره مؤمنـا بالله بوجه من الوجوه..

وهم لا يكتفــون فقــط برجــاء أن تشــمله رحمــة اللــه الواسعة، ولكنهم يتألون على الله، فيدعون لأولئك الذين كان في إمكــانهم أن يؤمنــوا، ولكنهم لم يفعلــوا.. لا يــدعون لهم بالهداية فقط، وإنما يـدعون لهم بالرحمـة والمغفـرة والجنـة الواسعة.. بل بالفردوس الأعلى.

ويتناسون أن رسول اللـه ﷺ أخـبر عن العـذاب الشـديد الذي يحيق بأمته، مع إيمانها، بسبب بعض التقصـير الـذي قـد تمارسه تجاه أوامـر اللـه، ففي الحـديث الصـحيح المعـروف، الذي يوصي فيه رسول الله ﷺ أمته: (ألا وإنى فـــرطكم على الحــوض، وإني مكــاثر بكم الأمم، فلا تســودوا وجهي ألا وقــد رأيتموني وســمعتم مــني وستســألون عــني، فمن كــذب علي فليتبـوأ مقعـده من النـار، ألا وإني مسـتنقذ رجـالا- أو أناسـا- ومستنقذ مني آخرون فأقول: يا رب، أصحابي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)[1]

فهذا الحديث وأمثالـه من الأحـاديث المرويـة في جميـع الصحاح والمسانيد والسنن، والتي يخبر فيهـا رسـول اللـه ﷺ أنه حُرم من الشفاعة في أصحابه الـذي عـرفهم، وقـد كـانوا يصلون ويصومون ويتوضأون ويحجون ويمرضـون..ومـع ذلـك لم يخرجوا من ذنوبهم كيوم ولدتهم أمهاتهم.

---

[1] رواه أحمــد (5/412، رقم 23544)ـ (5/393، رقم 23385) ، والبخــارى (5/2404، رقم 6205)، والنسائى فى الكبرى (2/444، رقم 4099).

ومثلـه مـا ورد في القـرآن الكـريم من أنـه لا مجـال للتلاعب بـالقيم، وأن كـل من تلاعب بهـا فـإن مصـيره إلى جهنم، وأول القيم قيم الإيمان باللـه، كمـا قـال تعـالى: ﴿كُـلُّ نَفْسٍ بِمَـا كَسَـبَتْ رَهِينَـةٌ (38) إِلَّا أَصْـحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَـاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْـرِمِينَ (41) مَـا سَـلَكَكُمْ فِي سَـقَرَ (42) قَـالُوا لَمْ نَـكُ مِنَ الْمُصَـلِّينَ (43) وَلَمْ نَـكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَـعَ الْخَائِضِـينَ (45) وَكُنَّا نُكَـذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّى أَتَانَـا الْيَقِينُ (47) فَمَـا تَنْفَعُهُمْ شَـفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48)﴾ [المدثر: 38 - 48]

فالآيات الكريمة أخـبرت أن الـذين لا يصـلون.. أي ليس لهم تواصل روحي بالله.. والذين لا يطعمـون المسـكين.. أي ليس لهم أي تواصـل ورحمـة بـالمجتمع.. هـؤلاء وغـيرهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين حتى لو تقدموا للشفاعة لهم.

وهكذا نجـد القـرآن الكـريم يصـرح بغضـب اللـه ولعنتـه وعقابه الشديد على ذنوب كثيرة نراها هينة سهلة عند أولئـك الذين ضـربوا القـرآن بالحـديث.. وضـربوا الـدين وقيمـه بمـا شرعوه لأنفسهم من شرائع الهوى.

فاللـه تعـالى أخـبر عن الهمـز واللمـز وعقوبتـه، فقـال: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4) وَمَا أَدْرَاكَ مَـا الْحُطَمَةُ (5) نَارُ اللـه الْمُوقَـدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِـعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9)﴾ [الهمـزة: 1 - 9]

وأخبر عن عقوبة القتل العمـد، وأنهـا الخلـود في جهنم، فقال: ﴿وَمَنْ يَقْتُـلْ مُؤْمِنًـا مُتَعَمِّدًا فَجَـزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِـدًا فِيهَـا وَغَضِبَ الله عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (93)﴾ [النساء: 93] وغيرها من النصوص الكثيرة..

وفي الحديث الصـحيح الشـهير عن عائشـة قـالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا، فقال: لقـد قلت كلمـة

لو مزجت بماء البحر لمزجته. قالت: وحكيت له إنسانا، فقال: ما أحب أنى حكيت إنسانا وأن لي كذا وكذا [1].

وعندما نسأل هؤلاء المرجئة الجدد عن الدافع الذي جعلهم يفكرون مثل هذا التفكير، ويلغون كل تلك النصوص المقدسة، يقولون لك: إننا عندما نذكر ما ورد في القرآن الكريم من الوعيد الشديد ينفر الناس من الدين، ونجعلهم يعرضون عنه، ويتصورون أن الله ما خلق الخلق إلا ليعذبهم.

ولست أدري ما يجاب به هؤلاء، فهل هم أعلم أم الله؟

وهل لديهم من صكوك الغفران ما يمكنهم أن يسلموها لمن شاءت لهم أهواؤهم تسليمها لهم؟

وكيف حال أولئك الأعراب البسطاء الذين أخبر القرآن الكريم عن العذاب الشديد الذي سيلحق بهم، لأجل أخطاء وقعوا فيها، وحدود تجاوزوها.. أم أن الأعراب يعذبون، وأهل المدنية المعاصرة يُتجاوز عنهم؟

ثم ما يقولون في تلك النصوص المقدسة التي حوت تلك التهديدات الشديدة.. مع العلم أن الله قد أمرنا بتلاوتها، والتدبر فيها لتبقى دائما بين أعيننا نرتدع من خلالها، لنتخلص من أسر الأهواء، والتثاقل إلى الأرض؟

ثم ما يقولون في اعتبار الله تعالى رسوله ﷺ نذيرا بين يدي الساعة، واعتباره محذرا للبشرية من العذاب الشديد الذي سيلحق بها إن لم تتبعه، ولم تؤمن به؟

لا يمكنهم الإجابة عن هذه التساؤلات إلا بشيء واحد، وهو محو كل التهديدات الواردة في النصوص المقدسة، أو اعتبارها منسوخة بآية الرحمة الواسعة، مثلما نسخ المتشددون كل آيات الرحمة والصفح بآية السيف.. ويقرأ عليهم في هذه الحالة قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ

---

[1] رواه الترمذي رقم (2503) و (2504)، وأبو داود رقم (4875) ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ [البقرة: 85]

قد يقال: بأن هناك ناسا لم يسمعوا بالإسـلام، ولا بأدلـة الإيمان.. ولذلك، فإنهم معذورون من هذه الناحية.

ونحن لا ننكر هذا، ولكن هذا يصدق على العـوام لا على الخواص، وعلى الأميين لا على العلماء.. وحتى لو صدق على العوام، فإن الشريعة تأمرنا بالتوقف في إصـدار الأحكـام في شـأنهم، فلا نحكم لهم بجنـة ولا نـار، ولا نـدعو لهم بأحـدهما، لأن الأمر لله تعالى من قبل ومن بعد.

أمـا أن نصـيح في الملأ، ونخطب على المنـابر، داعين بالرحمة والمغفرة والجنة لمن قضى حياته يدعو إلى الإلحاد، ويبرره، ويصبغه بالصبغة العلمية، وبسببه صار للإلحاد سوق.. فهذا عجيب وإرجـاء لم يحصـل مثلـه في التـاريخ.. حـتى في تاريخ اليهودية والمسيحية.

مع العلم أننا لو طبقنا على هذا الشخص وغـيره مـا ورد في حـديث المفلس، والـذي قـال فيـه ﷺ:(إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصـيام وصـلاة وزكـاة، ويـأتي قـد شتم عرض هذا، وقذف هذا، وأكل مـال هـذا، فيقعـد فيقتص هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فـنيت حسـناته قبـل أن يقضي ما عليه من الخطايا، أخـذ من خطايـاهم فطـرحت عليه، ثم طرح في النار)[1] فسنرى ما هو أخطـر من كـل مـا ذكره رسـول اللـه ﷺ من أمثلـة.. ذلـك أن الملحـد لم يشـتم النـاس، ولم يقـذفهم فقـط، وإنمـا راح يسـرق منهم أغلى جوهرة، جوهرة الإيمان..

فكيف يمكن أن يتعامل هذا الملحد يوم القيامة مـع كـل الذين يخاصمونه باعتباره الحجاب الـذي حجبهم عن الإيمـان، والقنطرة التي أدت بهم إلى الإلحاد.. وقد قال ﷺ:(من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء، فليتحلله منه اليوم قبـل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر

(1) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي.

مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه)[1]

لا يمكننا أن نشبه الدور الخطير الذي يقوم به هؤلاء إلا بذلك الصديق الأحمق الذي أراد أن يذب الذباب عن صاحبه، فقتله.. وهكذا يفعل هؤلاء، فهم بتعظيمهم الملاحدة، وبدعائهم لهم، ينشرون الإلحاد من حيث لا يشعرون، لأنهم يعتبرونه قيمة من القيم المحترمة، في نفس الوقت الذي يجلدون فيه الذات، ويحتقرون القيم الإيمانية والدينية.

وهم في ذلك لا يختلفون عمن وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: 51]، فهذه الآية الكريمة تكاد تنطبق على هؤلاء انطباقا تاما، فهم يؤمنون بآيات الرجاء، ولا يؤمنون بآيات الخوف، ولا يقدرونها حق قدرها.. وهم يرددون كل حين بأن سبيل المنحرفين عن الله، والمنفرين عنه، أهدى من سبيل المؤمنين.. وهو ما يفعله التنويريون والمرجئة الجدد كل حين عند تعظيمهم لغير المؤمنين، وتحقيرهم للمؤمنين.

بالإضافة إلى ذلك كله فإن تلك الدعوات، لا ترتبط بالتدخل في الشؤون الإلهية فقط، ولا ترتبط بالدعوة غير المباشرة للإلحاد فقط.. وإنما لها آثارها الخطيرة على السلوك والقيم جميعا، ذلك أنه من البديهيات أن القيم السلوكية الرفيعة تحتاج إلى حوافز، تدفع إلى العمل بها، وعقوبات تنفر من الوقوع في أضدادها.. فإذا ما رفعت العقوبات.. ولم تبق إلا الحوافز التي يستوي فيها العاملون والمقصرون.. لن تبقى أي قيمة.. بل لن يبقى أي دين.

فهل يمكن أن يستقيم أمر دولة تضع القوانين المشددة للجرائم.. ثم يأتي أئمتها وخطباؤها ومفكروها ليقولوا لعامة

---

[1] رواه البخاري.

الناس: لا تخافوا.. فكل تلك العقوبات المسطرة لن تحصل.. فالحاكم رحيم وصاحب قلب طيب.. وقـد وسـع برحمتـه كـل رعيته صالحهم ومجرمهم.. برهم وفاجرهم.

هل يمكن أن تبقى في هـذه المدينـة أي قيم رفيعـة، أو أخلاق عالية، أو نظام محكم؟

حينما يتجاوز التسامح حدوده

التسامح خلق نبيل دال على رؤية سليمة لحقائق الوجود، ودور الإنسان فيه، وكون الأمر لله في خلقه من قبل ومن بعد.. ولذلك كان رسل الله وورثة الأنبياء عليهم السلام أكثر الناس تحققا بهذا الخلق؛ فهم أكثر الناس سعة صدر، ولين طباع.

ولكن مع ذلك، فإن التسامح له حدوده التي لا يصح أن يتجاوزها، مثله مثل سائر الأخلاق المحصنة بجداري العدل والحكمة..

فمن التسامح ألا نؤذي أصحاب أي دين كان، ولا أن نتدخل في خصوصياتهم، ولا أن نهدم معابدهم، أو نتكبر عليهم بأي لون من ألوان التكبر.. بل نحن مطالبون عكس ذلك بتأليف قلوبهم ومراعاة مشاعرهم، وعدم التعرض لمقدساتهم بالشتم أو السب أو الإساءة.

وقد علمنا الله ذلك مع أشد الناس كفرا، فقال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: 108]، فالله تعالى لم يكتف بالنهي عن سبهم، وإنما راح يبرر سبهم في حال حصوله بكونه استفزازا، وعن غير علم.

هذا هو التسامح المشروع، والذي مثله رسول الله ﷺ أحسن تمثيل، سواء مع من جاوره من اليهود، أو مع أولئك النصارى الذين وفدوا إليه من نجران.. فقد أنزلهم في المسجد، ولما حانت وقت صلاتهم تركهم يصلون في المسجد، فكانوا يصلون في جانب منه[1]، وعندما حاورهم طبق في حواره لهم ما أمرنا الله تعالى به في قوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ

[1] زاد المعاد في هدي خير العباد (3/ 549)

وَاحِـدٌ وَنَحْنُ لَـهُ مُسْـلِمُونَ [العنكبـوت: 46]، ولم يكـرههم على الدخول في الإسلام، بل تـرك لهم الحريـة في الاختيـار، وقد أسلم بعضهم بعدما رجعوا إلى نجران(1).

ومثّلـه ﷺ حين كـان يوصـي بأهـل الذمـة والمسـتأمنين وسائر المعاهـدين، ويـدعو إلى مراعـاة حقـوقهم، والإحسـان إليهم، وينهى عن إيــذائهم؛ فيقــول: (ألا منٍ ظلم معاهــداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسٍ فأنا حجيجه ـ أي أنا الذي أخاصمه وأحاجه ـ يوم القيامــة)(2)، ويقول: (من قتـل معاهـدا لم يـرح رائحـة الجنـة، وإن ريحهـا توجد من مسيرة أربعين عاما)(3)

لكن مع ذلك، فإن التسامح له حدوده المشروعة التي لا يصـح أن نتجاوزهـا، ومن تجاوزهـا وقــع في الظلم والبخس الذي نهينا عنه.

ومن تلــك الحــدود ألا نســكت عن النصـيحة والتوجيـه، فاحترامنا لمقدسات الآخر لا تعني سكوتنا عليهـا، أو اعتبارهـا وجهة نظر، بل علينا أن نـدعو إلى تصـحيحها، ونسـتعمل كـل الحجج لأجل ذلك، كما علمنا ربنا عند حديثه عن الـذين ضـلوا من أهل الكتـاب وأسـباب ضـلالهم، والـردود العقليـة القويـة على ذلك.

فمن الخداع لهم أن نعتـبر مـا يقعـون فيـه من الضـلالة هداية، أو نقـرهم على ذلـك، مـع أن اللـه تعـالى أخـبر بـأنهم انحرفوا بذلك انحرافا خطيرا، قال تعـالى: لَقَـدْ كَفَـرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [المائدة:

---

(1) المرجع المرجع السابق (3/ 549)

(2) رواه أبو داود (3052)

(3) رواه أحمد 2/171 (6592)

73]، فالله تعالى اعتبر القائلين بذلك كفارا، وتوعدهم بالعذب الشديد، ومن احترامنا لكلام الله أن نردد ما قاله، لا أن نناقضه، ونخالفه، ونخدع بذلك أنفسنا، ونخدع قبل ذلك أولئك الذين كان علينا أن ننصحهم، لا أن نجاملهم.

ومن تلك الحدود ألا تنسجم نفوسنا مع الباطل، وتقره، وتذعن له، بحجة التسامح وحرية الفكر والرأي.. فمن العجب أن نرى مسلما يسمع ملحدا يسخر بالله أو يستهزئ به، ثم لا يتحرك له جفن، ولا يهتز له عرق، وكأن شيئا لم يحصل، مع أنه لو تعرض أحد لأبسط شيئ يتعلق به لقامت قيامته، وتخلى عن كل ألوان التسامح والعفو وسعة الصدر.

وهذا المعنى هو الذي يشير إليه قوله تعالى مخبرا عن بعض عقائد أهل الكتاب أو غيرهم من الأديان ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ [مريم: 88]، ثم بين تأثير هذه الكلمة العظيمة على الكون جميعا، وكيف ينفعل لها، فقال: ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ [مريم: 89 ـ 92]

ولهذا فإن عدم اهتزاز قلب المؤمن لما يقال في حق الله مما لا يتناسب مع جلاله وعظمته وقدره هو ضعف في الإيمان، وقصور فيه؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يتأثر كثيرا بسبب ما يقع فيه المشركون وغيرهم من أنواع الضلالة، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 3]

لكنا للأسف صرنا نرى من لا يكتفي بعدم تأثره لكفر الكفرة، ولا إلحاد الملحدين، بل نراه يبرر لهم، ويدافع عنهم، بل هناك من يترحم عليهم، ويسأل الله لهم الفردوس الأعلى، ومجاورة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.. إلى الدرجة التي يتصور فيها عوام الناس أن ذلك الذي عاش ملحدا أو كافرا أو ساخرا من الله سيستقبل من طرف المقربين ليدخل الجنات التي أعدها له هؤلاء المتسامحون.

ويغفل هؤلاء أن مثل هذه المواقف تـؤثر في نشـر مثـل تلك الأفكـار.. بـل هي أكـبر أداة من أدوات نشـرها.. فهـؤلاء المتسـامحون قـد يـدعو أحـدهم على جـاره المـؤمن بـدخول جهنم، وبتلقي كل أنواع العذاب فيها، بسبب دينار أخذه منــه، أو مقولة قالها له.. لكنه إن كان الأمـر مـع اللـه ومـع حقـائق الإيمان الكبرى تجده متهاونا متسامحا حليما كريما.

من أعظم الابتلاءات التي وضعت لتمييز المتجـرد للحـق من المتبع لهواه ذلك الابتلاء المرتبـط بكـون الباطـل لا يكـاد يخلو من الحق، وكون الحق مستعدا للتبلس بأي باطل.. ذلك أن الشر المجرد لا يكاد يوجـد، وهنـا يقـع التمحيص والابتلاء.. لنرى أنفسنا هل نتبع الحـق لكونـه حقـا، أم لكـون هوانـا هـو الذي جرنا إليه؟

والأمثلة على ذلـك أكـثر من أن تحصـى.. فنحن مثلا قـد نختلف مع المتطرفين في كونهم يتشددون ويتنطعون، وربمـا يجرهم التشدد إلى العنف.. ولكنا مع ذلك إن عـدنا إلى دينهم وجـدناهم مؤمـنين باللـه ورسـله، ويعظمـون اللـه ورسـله.. ويعظمـون الشـريعة، ويحترمونهـا.. ونحن مطـالبون في هـذا بأن نحترمهم لأجل هذه السـلوكات الصـحيحة الشـرعية، وأن نقبلها منهم، ونشـجعهم عليهـا، ومطـالبون في نفس الـوقت بالإنكار على تشددهم وتنطعهم وعنفهم.

وهنـــا يحصـــل الامتحـــان.. فمن النـــاس من ينظـــر إلى تعظيمهم لله ولرسوله ولما يرتبط بهما من أحكـام وشـرائع، فيتصور أنهم على الحق المجرد الـذي لا يجـوز خلافـه، فيقـع معهم في شراك التشدد والتطرف..

ومن الناس من يخالفهم في تشـددهم وتطـرفهم، ولكن خلافه يذهب به؛ بعيـدا فيجعـل همـه لا الحـق المجـرد، وإنمـا مخالفتهم، فيقع عند فعله لذلك في مخالفة الشريعة، بل في مخالفـة قضـايا قطعيـة من الـدين، فيظلمهم بـذلك، ويظلم نفسه، ويظلم الحقيقة.. وكل ذلك بسبب كونـه جعـل خلافهم هدفا ومصدرا للحقيقة، ولم يجعل الحقيقة نفسها مصدره.

وهـذا يصـدق على كـل الطوائـف.. ففي الصـوفية نـواح كثـيرة ممتلئـة بالجمـال والسـمو والطيبـة.. ففيـه السـلوك الطيب، والذوق الرفيع، والمعرفـة السـامية.. لكن الشـيطان

الـذي لم يـترك للمتشـددين دينهم راح إليهم أيضـا يشـوه طرائقهم بالبدع والخرافـات وأسـرار الحـروف والطلسـمات والكشوفات التي ما أنزل الله بها من سلطان.. وهنا نقع في الحيرة.. هل ننكر كل شيء.. أم نقبـل كـل شـيء.. أم يكـون هدفنا الحق المجرد؟

ونفس الشيء يصـدق على الحركـات الإسـلامية.. حيث نجـد البعض يشـكك في نياتهـا ويربطهـا بالماسـونية وبالمؤامرات العالمية.. لكن الحقيقة الـتي يـدل عليهـا ظـاهر الأمر لا تـدل على ذلـك.. هم صـادقون في نيـاتهم، ولكن قـد يخطئون في بعض ممارسـاتهم ومـواقفهم، والحكمـة تـدعونا إلى التميـيز بين الحـق والباطـل، والخـبيث والطيب، لا رمي الجميع في سلة واحدة.

وهكـذا الأمـر مـع العلمـاء والمكتشـفين والمخـترعين.. ففيهم من قدموا خـدمات كبـيرة للإنسـانية يحـترمون عليهـا، ولكنهم في نفس الوقت قد أساءوا إلى الإنسانية بما نشـروه من أفكار خطيرة، أو ما ادعوه من دعـاوى عريضـة.. والحـق الذي يـدعونا إلى الاعـتراف بـالأول، يـدعونا إلى التحـذير من الثـاني.. حـتى لا يصـبح الأول مطيـة للثـاني، وحـتى لا نصـبح وسائل وأدوات لنشر الباطل من حيث لا نشعر.

وقـد أشـار القـرآن الكـريم إلى هـذا المعـنى في قولـه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَـلَ الْخَبِيثَ بَعْضَـهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَـــهُ جَمِيعًـــا فَيَجْعَلَـــهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِـرُونَ ﴾ [الأنفـال: 37].. فاللـه تعـالى أخـبر أنـه يمـيز الخـبيث من الطيب قبـل أن يرميـه في جهنم.. فجهنم مـأوى الخبيث لا الطيب.

ومثل ذلك قوله تعالى عن أهل الكتاب: ﴿ لَيْسُـوا سَـوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَـةٌ يَتْلُـونَ آيَـاتِ اللَّهِ آنَـاءَ اللَّيْـلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: 113]

وهكذا يكون العاقل الحكيم متثبتا من كل موقف يقفـه..

هل أراد به وجه الله، أم أراد به مخالفة قوم من الناس.. فإن كان الأول فهو المتجرد المخلص، وإن كان الثاني، فهو صاحب هوى لا صاحب حق.. فصاحب الحق لا يهمه من يقف معه، أو من يقف ضده.

من المغالطات التي يمارسها التنويريون الجدد في مناسبات كثيرة ادعاؤهم الرجوع للعلماء، وخاصة الكبار منهم، أو المقبولين لدى عامة الناس؛ وهو تصرف لا يتناسب مع دعوتهم للاجتهاد، والبحث عن الدليل، ذلك أن الاجتهاد يقتضي النظر في المسألة وحججها من غير اهتمام بمن قال بذلك، أو لم يقل.

وقد كان يمكن أن يقبل منهم ذلك، لو أن رجوعهم للعلماء كان سليما، وكان مبنيا على دراسة وتحقيق، وليس عن تهور وعجلة.. ذلك أن العجلة لا تتناسب مع التحقيق، ولا مع البحث العلمي، القائم على التدقيق والأناة للوصول إلى الحقيقة.

ومن الأمثلة على ذلك أنهم يرددون جميعا مقولة الغزالي في [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] في سعة الرحمة الإلهية، وفي إمكانية شمولها للأمم جميعا؛ وهو قوله: (وأنا أقول: إن الرحمة تشمل كثيراً من الأمم السالفة، وإن كان أكثرهم يعرضون على النار إما عرضة خفيفة، حتى في لحظة، أو في ساعة، وإما في مدة، حتى يطلق عليهم اسم بعث النار، بل أقول: إن أكثر نصارى الروم والترك في هذا الزمان تشملهم الرحمة إن شاء الله تعالى: أعني الذين هم في أقاصي الروم والترك، ولم تبلغهم الدعوة) [1]

ثم ذكر أن هؤلاء ثلاثة أصناف: (صنف: لم يبلغهم اسم محمدﷺ أصلاً، فهم معذورون.. وصنف: بلغهم اسمه ونعته، وما ظهر عليه من المعجزات، وهم المجاورون لبلاد الإسلام، والمخالطون لهم، وهم الكفار الملحدون.. وصنف: ثالث بين الدرجتين، بلغهم اسم محمد ﷺ، ولم يبلغهم نعته وصفته، بل سمعوا أيضاً منذ الصبا أن كذاباً ملبساً اسمه محمد ادعى

---

[1] () فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، ص85.

النبوة، كما سمع صبياننا أن كذاباً يقال له المقفع، ادعى أن الله بعثه وتحدى بالنبوة كاذباً.. فهؤلاء عندي في معنى الصنف الأول، فإنهم مع أنهم سمعوا اسمه، سمعوا ضد أوصافه، وهذا لا يحرك داعية النظر في الطلب) [1]

فهذا النص الذي تعلقوا به، وراحوا ينشرونه في كل محل، وكأنه من آية من القرآن الكريم، لا يدل على ما يقصدونه من الترحم على الكفرة والملحدين، فالغزالي ذكر فيه سعة الرحمة الإلهية العامة، وهو أمر متفق عليه عند جميع المؤمنين، بل عند جميع العقلاء، ولم يذكر فيه الترحم الذي لا يختلف عن طلب الشفاعة والاستغفار وصلاة الجنازة.. فكل هذه أحكام شرعية لم يشر إليها النص الذي اعتمدوا عليه.

بالإضافة إلى ذلك، فإن ذلك النص مقيد بنصوص كثيرة أوردها الغزالي في نفس كتابه هذا، أو في غيره من الكتب ولا يفهم ذلك النص إلا ضوئها.

فقد ذكر في محل قريب من هذا النص ما يناقض كل المستلزمات التي استلزموها من النص السابق، فقد قال: (وأما من سائر الأمم فمن كذبه بعدما قرع سمعه بالتواتر عن خروجه، وصفته، ومعجزاته الخارقة للعادة، كشق القمر، وتسبيح الحصا، ونبع الماء من بين أصابعه، والقرآن المعجز الذي تحدى به أهل الفصاحة وعجزوا عنه فإذا قرع ذلك سمعه، فأعرض عنه، وتولى ولم ينظر فيه ولا يتأمل، ولم يبادر إلى التصديق، فهذا هو الجاحد الكاذب، وهو الكافر، ولا يدخل في هذا أكثر الروم والترك الذين بعدت بلادهم عن بلاد المسلمين) [2]

وهو بهذا يخرج من تلك الرحمة التي ذكرها في النص

[1] فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، ص86.

[2] فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، ص86.

الأول كل من سمع برسول الله ﷺ وأعرض عنه، ولم ينظر، ولم يتأمل، ولم يبحث، ولم يبادر إلى التصديق.. بل اعتبره جاحدا كاذبا.. وهذا الوصف يصدق على الكثير من عوام هذا العصر، فكيف بعلمائهم الذين كانت لهم علاقة بالمسلمين، واحتكاك شديد بهم، بالإضافة إلى سماعهم عن الإسلام.. سواء المشوه والمحرف منه، وغير المشوه والمحرف.. وكان ذلك في الأصل ــ كما يذكر الغزالي ــ داعية للبحث والطلب، كما حصل للكثير من الذين أسلموا بعد البحث والطلب؛ خاصة وأن كل الوسائل متوفرة للتحقيق والنظر.

بل إن الغزالي ــ الذي استعملوه مطية للإرجاء ــ زاد على ذلك التشدد بقوله ـ تتمة للنص السابق ــ: (بل أقول: من قرع سمعه هذا، فلا بد أن تنبعث فيه داعية الطلب ليستبين حقيقة الأمر إن كان من أهل الدين، ولم يكن من الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة؛ فإن لم تنبعث فيه هذه الداعية، فذلك لركونه إلى الدنيا، وخلوه عن الخوف وخطر أمر الدين، وذلك كفر وإن انبعثت الداعية، فقصر عن الطلب، فهو أيضاً كفر) [1]

وهو قول أخطر من السابق، فلا يكفي عند الغزالي مجرد السماع، بل ينبغي أن يسرع في البحث والتحقيق والنظر، فإن منعه ذلك أي مانع من موانع الدنيا، فقد اعتبره كافرا مثله من سبق.

وهو لم يعذر إلا من كان عاميا بسيطا لا قدرة له على البحث والنظر، أو ذلك الذي (اشتغل بالنظر والطلب، ولم يقصر، فأدركه الموت قبل تمام التحقيق، فهو أيضاً مغفور له ثم له الرحمة الواسعة) [2]

فالغزالي لم يعف إلا من اجتهد، وبحث، ولكن الموت

---

(1) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، ص87.

(2) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، ص87.

أدركه قبل أن يصل إلى الحقيقة.. لا الذي عاش عمره جميعا جاحدا لها، متبرئا منها، ساخرا من أصحابها.

وهكذا قال قبل ذلك النص الذي اعتمدوا عليه: (فأبشر برحمة الله وبالنجاة المطلقة إن جمعت بين الإيمان والعمل الصالح، وبالهلاك المطلق إذا خلوت عنهما جميع.. وإن كنت صاحب يقين في أهل التصديق، وصاحب خطإ في بعض التأويل، أو صاحب شك فيهما، أو صاحب خلط في الأعمال فلا تطمع في النجاة المطلقة.. واعلم أنك بين أن تعذب مدة ثم تخل، وبين أن يُشفَعَ فيك من تيقنْتَ صدقه في جميع ما جاء به أو غيرِهِ.فاجتهد أن يغنيك الله بفضله عن شفاعة الشفعاء، فإن الأمر في ذلك مُخطِرٌ) [1]

وقبلها، وفي أول الكتاب ذكر ما هو أخطر من ذلك؛ فقد قال ـ عند بيانه لحد الكفر ــ: (لعلك تشتهي أن تعرف حد الكفر، بعد أن تتناقض عليك حدود أصناف المقلدين، فاعلم: أن شرح ذلك طويل، ومدركه غامض، ولكني أعطيك علامة صحيحة فتطردها وتعكسها، لتتخذ مطمح نظرك، وترعوي بسببها عن تكفير الفرق، وتطويل اللسان في أهل الإسلام، وإن اختلفت طرقهم ماداموا متمسكين بقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، صادقين بها، غير مناقضين لها؛ فأقول: الكفر: هو تكذيب الرسول ﷺ في شيء مما جاء به، والإيمان: تصديقه في جميع ما جاء به) [2]

ثم راح يبين مصاديق ذلك، فقال: (فاليهودي والنصراني: كافران ؛ لتكذيبهما للرسول ﷺ.. والبرهمي: كافر بالطريق الأولى ؛ لأنه أنكر مع رسولنا سائر المرسلين.. والدهري: كافر بالطريق الأولى، لأنه أنكر مع رسولنا المرسل، سائر الرسل، وهذا لأن الكفر حكم شرعي: كالرق والحرية مثلاً، إذ معناه.. الحكم بالخلود في النار، ومدركه شرعي، فيدرك: إما

[1] فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، ص88.

[2] فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، ص25.

بنص، وإما بقياس على منصوص: وقد وردت النصوص في اليهود والنصارى، والتحق بهم بالطريق الأولى: البراهمة، والثنوية، والزنادقة، والدهرية. وكلهم مشركون مكذبون للرسل.فكل كافر مكذب للرسل.وكل مكذب للرسل فهو كافر.فهذه هي العلامة المطردة المنعكسة)[1]

وهذا النص واضح لا لبس فيه، وقد قاله في نفس الكتاب الذي تعلقوا به، ولو أنهم قرأوه بأناة لفهموا أغراض مؤلفه، ولم يخرجوا كلامه عن حده.

مع أن الغزالي لم يذكر أبدا الدعاء بالرحمة ولا بالمغفرة لأعيان هؤلاء الكفرة وغيرهم، بل ذكر إمكانية أن تسعهم رحمة الله تعالى، ما داموا لم يقصروا في البحث والنظر والتحقيق.

أما إذا عدنا إلى كتب الغزالي الأخرى، والتي خصصها للتربية والسلوك، فنجد الأمر أبعد مما تصوروا، فقد ذكر الغزالي عن نفسه ـ مع كونه مؤمنا مسلما، بل عالما من علماء المسلمين ــ كيف أحاطت به المخاوف من النار وعذابها، خشية أن يكون كل ما هو فيه رياء وسمعة، فقد قال في [المنقذ من الضلال]: (ثم لاحظت أحوالي، فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أحدقت بي من الجوانب، ولاحظت أعمالي - وأحسنها التدريس والتعليم - فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة، ولا نافعة في طريق الآخرة، ثم تفكرت في نيتي في التدريس، فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت، فتيقنت أني على شفا جرف هار، وأني قد أشفيت على النار، إن لم أشتغل بتلافي الأحوال. فلم أزل أتفكر فيه مدة، وأنا بعد على مقام الاختيار، أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً، وأحل العزم يوماً، وأقدم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى. لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة، إلا ويحمل عليها جلد الشهوة حملة فيفترها عشية،

---

[1] () فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، ص25.

فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام، ومنادي الإيمان ينادي: الرحيل الرحيل! فلم يبق من العمر إلا قليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل! فإن لم تستعد الآن للآخرة، فمتى تستعد؟)[1]

وهكذا ذكر في كتابه [أصناف المغرورين] الكثير من مظاهر الغرور، والتي تتأسس جميعا على الاعتقاد برحمة الله الواسعة مع التقصير في العمل الصالح، وقد عقد فيه فصلا خاصا بعصاة المؤمنين، وعرفهم بأنهم (من يتكلون على عفو الله ويهملون العمل)

ومما جاء فيه قوله: (وأما غرور العصاة بالله من المؤمنين فقولهم: غفور رحيم، وإنما يرجى عفوه فاتكلوا على ذلك وأهملوا الأعمال وذلك من قبل الرجا فإنه مقام محمود في الدنيا. وأن رحمة الله واسعة ونعمته وشاملة وكرمه عميم، وأنا موحدون نرجوه بوسيلة الإِيمان والكرم والإِحسان)[2]

وعندما ذكر منشأ غرور الكفار ومن شابههم من العصاة، قال: (ومنشأ هذا الغرور الجهل بالله تعالى.. وبصفاته.. فإن من عرف الله تعالى فلا يأمن من مكر الله.. وينظرون إلى فرعون وهامان وثمود وماذا حل بهم.. مع أن الله تعالى أعطاهم من المال.. وقد حذر الله تعالى مكره فقال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: 99].. وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 54].. وقال تعالى: ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ [الطارق: 17].. فمن أولى نعمة يحذر أن تكون نقمة)[3]

---

(1) المنقذ من الضلال (ص: 173).

(2) أصناف المغرورين (ص: 29)

أما في [إحياء علوم الدين]، فقد ذكر فيه ما هو أعظم من ذلك كله، فكل الإحياء دعوة إلى الورع، ومحاسبة النفس، وتفقد النقير والقطمير من الأعمال، مع ربط ذلك كله بمحاسبة الله لعباده، واعتبار الأمل في رحمة الله الواسعة بعيدا عن العمل مجرد أماني كاذبة.

وقد ذكر في باب الخوف والرجاء، خطورة استعمال أدوية الرجاء والأمل في رحمة الله الواسعة مع من غلبته المعاصي، فقال: (اعلم أن هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة، وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله.. وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال.. فأما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصي؛ فأدوية الرجاء تنقلب سموما مهلكة في حقه، وتنزل منزلة العسل الذي هو شفاء لمن غلب عليه البرد، وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة، بل المغرور لا يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف والأسباب المهيجة له)[1]

وذكر في باب التوبة درجات البشر مع الجزاء الإلهي، وكلها ترتبط بالإيمان بالله، والعمل الصالح الذي يريد فيه صاحبه وجه الله، وأعطى لذلك تشبيها بديعا، فقال: (الناس في الآخرة ينقسمون أصنافاً وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم في السعادة والشقاوة تفاوتاً لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتوا في سعادة الدنيا وشقاوتها، ولا تفارق الآخرة في هذا المعنى أصلاً البتة؛ فإن مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له وسنته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبديل لها إلا أنا إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات فلا نعجز عن إحصاء

---

(3) أصناف المغرورين (ص: 28)

(1) إحياء علوم الدين (4/ 146)

الأجناس)[2]

ثم راح يحصي هذه الأجناس الكبرى، فـذكر أنهم (أربعـة أقسام: هالكين، ومعـذبين، ونـاجين، وفـائزين).. وضـرب مثلا لـذلك بـأن (يسـتولي ملـك من الملـوك على إقليم فيقتـل بعضهم فهم الهـالكون، ويعـذب بعضـهم مـدة ولا يقتلهم فهم المعذبون، ويخلى بعضهم فهم النـاجون، ويخلـع على بعضـهم فهم الفائزون)

ثم بين سبب ما يفعله الملك بهذه الأقسام؛ فقال: (فإن كان الملك عادلاً لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق فلا يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك معانداً له في أصل الدولة.. ولا يعذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجتـه.. ولا يخلي إلا معترفاً له برتبة الملـك لكنـه لم يقصـر ليعـذب، ولم يخـدم ليخلـع عليـه.. ولا يخلـع إلا على من أبلى عمـره في الخدمة والنصرة)

وعند حديثه عن رتبة المعذّبين، ذكر أنها رتبة (من تحلّى بأصـل الإيمـان ولكن قصّـر في الوفـاء بمقتضـاه، فـإنّ رأس الإيمان هو التوحيد وهو أن لا يعبد إلّا اللّه، ومن اتّبع هواه فقد اتّخذ إلهـه هـواه فهـو موحّـد بلسـانه لا بالحقيقـة، بـل معـنى قولـك: «لا إلـه إلّا اللّـه» معـنى قولـه تعـالى: «قُـلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ» وهو أن تذر بالكلّية غير اللّه ومعنى قوله «الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا» ولمّا كان الصراط المسـتقيم الّـذي لا يكمل التوحيد إلّا بالاستقامة عليـه أدقّ من الشـعر وأحـدّ من السيف مثل الصـراط الموصـوف في الآخـرة فلا ينفـكّ بشـر عن ميل عن الاسـتقامة ولـو في أمـر يسـير، إذا لا يخلـو عن اتّباع الهوى ولو في فعل قليل وذلك قادح في كمـال التوحيـد بقدر ميلـه عن الصـراط المسـتقيم فـذلك يقتضـي لا محالـة نقصانا في درجة القرب ومع كـلّ نقصـان نـاران نـار الفـراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان، ونار جهنّم كما وصفها القرآن فيكون كـلّ مائـل عن الصـراط المسـتقيم معـذّبا مـرّتين من

[2]() إحياء علوم الدين (4/ 24)

وجهين ولكن شدّة ذلك العذاب وخفّته وتفاوته بحسب طول المدّة إنّما يكون بسبب أمرين أحدهما قوّة الإيمان وضعفه، والثاني كثرة اتّباع الهوى وقلّته)[1]

هذا بعض ما ذكره في [إحياء علوم الدين] من مراتب الناس، وخطورة ما ينتظرهم إن قصروا في الإيمان بالله، أو في سلوك سبيله، أو تجاوز حدوده.

وهكذا نجده في سائر مواقفه؛ حيث نرى موقفه من الفلاسفة منسجما مع ما ذكره في كتبه جميعا؛ فهو يكفر الكثير منهم، مع كونهم موحدين، ويمارسون كل ما يمارسه المسلمون من شعائر وعبادات، وذلك لأسباب بسيطة جدا مقارنة بما يقوله هؤلاء الفلاسفة الملاحدة الذين اتخذ الغزالي مطية للترحم عليهم؛ فقد قال في [المنقذ من الضلال]، وهو من أواخر كتبه: (ثم رد أرسطاطاليس على أفلاطون وسقراط ومن كان قبلهم من الإلهيين، رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم، إلا أنه استبقى من رذاذ كفرهم، وبدعتهم، بقايا لم يوفق للنزوع عنها، فوجب تكفيرهم وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميين. كابن سينا والفارابي وأمثالهما)[2]

وقال عند الحديث عن قسم الإلهيات في الفلسفة الإسلامية المقتبسة من الفلسفة اليونانية: (وأما الإلهيات: ففيها أكثر أغاليطهم، فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيه ولقد قرب مذهب أرسطاطاليس فيها من مذاهب الإسلاميين، على ما نقله الفارابي وابن سينا، ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً، يجب تكفيرهم في ثلاثة منها،

---

[1] إحياء علوم الدين (4/ 24)

.

[2] المنقذ من الضلال (ص: 137).

وتبديعهم في سبعة عشر)[1]

وتلك المسائل الفرعية التي رأى الغزالي وجوب تكفيرهم فيها، ولم يبرر خطأهم فيها بكونهم مجتهدين، هي ـ كما يذكر في المنقذ من الضلال ــ: (قولهم: إن الأجساد لا تحشر، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية.. وقولهم: إن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات، فهو أيضاً كفر صريح، بل الحق أنه: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾ [سبأ: 3].. ومن ذلك قولهم: يقدم العالم وأزليته، ولم يذهب أحد من المسلمين إلى شيء من هذه المسائل)[2]

فكيف يستدل بكلام من يقول هذا في جواز الترحم على من لا ينكر النعيم الجسدي فقط، بل ينكر الآخرة أيضا، وينكر معها الله رب العالمين، ولا يكتفي بالإنكار المجرد، بل يستعمل العلم وسيلة للدعوة لذلك الإنكار؟

ولم يكتف الغزالي بكبار الفلاسفة كابن سينا والفارابي، بل راح للمتابعين لهم على أقوالهم يشن عليهم حملته الكبرى في كتابه [تهافت الفلاسفة]، والذي قال في مقدمته: (أما بعد، فإني رأيت طائفة يعتقدون في أنفسهم التميز عن الأتراب والنظراء بمزيد الفطنة والذكاء قد رفضوا وظائف الإسلام، واستحقروا شعائر الدين، بل خلعوا بالكلية ربقة الدين بفنون من الظنون يتبعون فيها رهطا يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجا)[3]

ونحن، وإن كنا ننكر عليه هذا التكفير، ولكنا أردنا من

---

[1] () المنقذ من الضلال (ص: 143).

[2] () المنقذ من الضلال (ص: 148)

[3] () تهافت الفلاسفة ص38..

خلال ذكره أن ننبه هؤلاء الـذين قـرأوا نص الغـزالي مقلوبـا، ولم يفهموا مقصوده، فنقلـوه من الرحمـة إلى الـترحم، ومن المجتهدين في البحث عن الحقيقة إلى المقصرين فيها، ومن العامة البسطاء إلى العلماء الكبـار البـاحثين، ومن السـاكتين اللا أدرية إلى المصرحين بإلحادهم.

وهذا كله كيل بالمكاييل المزدوجـة، وتلاعب بـالعواطف، بل عبث بها، والبحث العلمي يأبى ذلك كله.

الرحمة.. والعدالة

يطرح الكثير من التنويريين الجدد مسألة الرحمة الإلهية الخاصة بغير المسلمين بطريقـة وكأنهـا من القضـايا المجمـع عليها، وأن كل من مات في أوروبا وأمريكا وغيرهما، حتى لو كان ملحدا عنيدا، وفاسـقا عربيـدا، سـيدخل الجنـة مباشـرة، وستشـمله رحمـة اللـه الواسـعة، وأنـه كمـا تنعم في الـدنيا، سـيتنعم في الآخـرة، ولن يحاسـب على شـيء، ذلـك أنـه لم تبلغه الرسالة، أو بلغته مشوهة، ولذلك ليس هناك حجـة لمن سيسأله عن ربه ونبيه ودينه.

وهذا ما يجعل من المسلمين في بلاد الإسلام، والذين يعيش أكثرهم في ظلال الفقر والبؤس، أو ظلال الاستبداد والظلم، في حيرة من أمرهم.. فهم يحاسبون على الصغير والكبير في الدنيا والآخرة؛ فقد وردت النصوص المقدسة الكثيرة التي تخبر بالعذاب الشديد المرتبط بما يفعلونه من ذنوب، والتي تصف ذلك بدقة.. فالمسلم إن شرب الخمر سيسقى من طينة الخبال، كما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: (إن على الله عهدا لمن شرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال، قالوا وما طينة الخبال قال: عرق أهل النار أو عصارة أهل النار)[1]، وفوق ذلك، فلن يشربها في الآخرة، كما ورد في الحديث: (من شرب الخمر في الدنيا يحرمها في الآخرة)[2]

أما الذي عاش في أوروبا وأمريكا يشرب الخمر، ويدمن عليها، ويظل مترددا بين الملاهي، لا يعرف إلها ولا دينا.. فهـو عند هؤلاء المرجئة الجدد ممن تشملهم رحمة الله الواسـعة، ولذلك لن يحاسب على معاقرته الخمـر، لكونـه غـير مكلـف؛ وبذلك فلن يصاب بأي عقوبة، ولن يحرم من أي مزية.

---

(1) رواه مسلم.

(2) رواه البخاري ومسلم.

وهـذا مـا يجعـل اللـبيب حيرانـا في الجمـع بين العدالـة والرحمة الإلهية.. فإن كانت الرحمة الإلهية واسـعة إلى ذلـك الحد، فلماذا كان أشقى النـاس بهـا المؤمنـون الـذين بلغتهم الدعوة.. والذين يتمنون لـو أنهم عاشـوا في أوروبـا وأمريكـا صـعاليك ملاحــدة؛ فــذلك خــير لهم من أن يعيشــوا في بلاد الإسلام ليشقوا في الدنيا، ثم يشقوا في الآخرة.

وقد ذكرت الجواب المفصل عن هذه الشبهة في كتـابي [أسرار الأقدار]، عند حديثي عن العدالة الإلهية، وطرحت فيه الآراء المختلفـة في المسـألة، وبينت مـدى صـلتها بالرحمـة والعدالة الإلهية، ولذلك سأكتفي هنا بالقول الذي يتناسب مـع العدالــة والرحمــة الإلهيــة، وهــو قــول ينســجم مــع العقــل والحكمة، كما ينسجم مع الرحمة والعدالـة، كمـا ينسـجم مـع النصوص الكثيرة المتعارضة، ويلغي التعارض بينها.

وهذا القول هو أن كـل هـؤلاء الـذين لم تتح لهم فرصـة التكليــف في الــدنيا بــأي ســبب من الأســباب كالمجــانين والصـبيان ومن لم تبلغهم الـدعوة أو بلغتهم مشـوهة، يجـرى عليهم امتحان جديد في الآخرة، وذلك بأن يوضعوا في محـال معينة، ويرسل إليهم الله تعالى رسولا ـ كما ورد تفصيل ذلـك في الحديث ـ فمن أطـاع الرسـول دخـل الجنـة، ومن عصـاه دخل النار، وبناء على ذلك يكون بعضهم في الجنـة، وبعضـهم في النار.. وبذلك تجتمع النصوص المتعارضة في المسألة.

وهذا القول ينسجم مع العقل بـادئ الـرأي ذلـك أننـا إن قلنا بأنهم يدخلون النار، فبـأي جنايـة جنوهـا؟.. وإن قلنـا: إن أمرهم للمشيئة، أو لعلم الله فيهم، فلماذا لم يكن أمر الخلق جميعـا للمشـيئة، فلم تقم محكمــة القيامــة، ولم يكن هنـاك حساب ولا كتب ولا موازين؟

وإن قلنا ـ بمـا يقـول بـه المرجئـة الجـدد ــ: إن أمـرهم للرحمـة، فقـد يقـول البـالغ: لمـاذا يـارب لم تتوفـني صـبيا لتشملني رحمتك التي شملت الصـبي؟.. ويقـول العاقـل: لم يــارب لم تــذهب عقلي لأبصــر من الرحمــة مــا يبصــره

المجنـون؟.. ويقـول الفيلسـوف: لم يـا رب لم تجعلـني في غيـاهب الجهـل الـتي حميت بهـا ذلـك الفلاح البسـيط من التعرض لمقتك وعقابك؟.

وهو ينسجم أيضا مع ما نمارسه في الدنيا، والـدنيا صـنو الآخرة، كما يقال؛ فإنه إذا تقدم قوم للامتحان، وغاب آخرون عنه لسبب من الأسباب، فإن قوانين العالم كلها تحكم بأن لا يوزع النجاح للغائبين هكذا مجانا، بـل يمتحنـون مثلمـا امتحن غيرهم، لتتحقق العدالة بذلك، لأننا إذا رحمنـا هـؤلاء الغـائبين نكون قد ظلمنا أولئـك الممتحـنين، والـذين قـد يكـون سـبب رسوبهم هو اجتهادهم في الحضور للامتحان.

وبناء على هذا، فقد ورد في النصوص المقدسة ما يــدل على ذلــك، ســواء في المدرســة الســنية أو في المدرســة الشيعية:

أما في المدرسة السـنية، ففي الحـديث الـذي روي من طرق متعددة، قـال ﷺ:(أربعـة يمتحنـون يـوم القيامـة: رجـل أصم لا يسمع، ورجل أحمـق، ورجـل هـرم، ورجـل مـات في الفترة، أما الأصم فيقول:(يا رب قد جاء الإسـلام ومـا أسـمع شيئا) وأما الأحمق فيقول:(يا رب قد جـاء الإسـلام والصـبيان يرمونني بالبعر) وأما الهرم فيقـول:(يـا رب قـد جـاء الإسـلام وما أعقل شيئا) وأما الذي مات في الفترة فيقول:(مـا أتـاني لك رسول)، فيأخذ مواثيقهم ليطيعنـه، فيرسـل إليهم رسـولا أن ادخلوا النـار)، قـال ﷺ:(فوالـذي نفسـي بيـده لـو دخلوهـا لكانت عليهم بردا وسلاما، ومن لم يدخلها سحب إليها)(1)

وفي حديث آخر قال ﷺ:(يؤتى يـوم القيامـة بالممسـوخ عقلا وبالهالك في الفترة وبالهالك صـغيرا، فيقـول الممسـوخ عقلا: يا رب لو آتيتني عقلا ما كان ما آتيته عقلا بأسعد بعقلـه مني، ويقول الهالك في الفترة: لو أتـاني منـك عهـد مـا كـان من أتاه منك عهد بأسعد بعهدك مني، ويقول الهالـك صـغيرا:

---

1) رواه النسائي والحاكم وابن مردويه.

يا رب لو آتيتني عمرا ما كـان من آتيتـه عمـرا بأسـعد بعمـره مني، فيقـول الـرب سـبحانه: إني آمـركم بـأمر أفتطيعـوني؟ فيقولـون: نعم وعزتـك فيقـول: اذهبـوا فـادخلوا النـار، ولـو دخلوها ما ضرهم، فتخرج عليهم قـوابس (1) يظنـون أنهـا قـد أهلكت ما خلق الله عز وجل من شـيء، فيـأمرهم فـيرجعون سراعا يقولون: خرجنا يا رب وعزتك نريـد دخولهـا، فخـرجت علينا قوابس ظننا أنها قد أهلكت ما خلق اللـه عـز وجـل من شيء، فيأمرهم الثانية، فيرجعون كذلك فيقولون مثل قـولهم فيقول الله عز وجل سبحانه: قبـل أن تخلقـوا علمت مـا أنتم عاملون وعلى علمي خلقتكم وإلى علمي تصـيرون ضـميهم، فتأخذهم النار)

ومنها قوله ﷺ:(إذا كان يوم القيامـة جـاء أهـل الجاهليـة يحملـون أوثـانهم على ظهـورهم، فيسـألهم ربهم عـز وجـل فيقولون: لم ترسل إلينا رسولا ولم يأتنا لك أمر، ولو أرسلت إلينا رسولا لكنا أطوع عبادك، فيقول ربهم: أرايتم إن أمرتكم بـأمر تطيعونـه؟ فيقولـون: نعم، فيـأمرهم أن يعـبروا جهنم فيدخلونها فينطلقـون حـتى إذا دنـوا منهـا سـمعوا لهـا تغيظـا وزفـيرا فـيرجعون إلى ربهم فيقولـون: ربنـا أخرجنـا منهـا، فيقـول: ألم تزعمـوا أني إن أمـرتكم بـأمر تطيعـوني، فيأخـذ على ذلك من مواثيقهم فيقول: اعمدوا لهـا فينطلقـون حـتى إذا رأوها فرقوا فرجعوا فقالوا: ربنا! فرقنا منهـا ولا نسـتطيع أن ندخلها، فيقول: ادخلوهـا داخـرين)، قـال رسـول اللـه ﷺ: (فلو دخلوها أول مرة كانت عليهم بردا وسلاما)(2)

وفي المدرسة الشيعية، ورد في صحيحة هشام عن أبي عبد الله، قال: (ثلاثة يحتجَّ عليهم: الأبكم، والطفل، ومن مات في الفترة، فترفع لهم نار فيقـال لهم: ادخلوهـا، فمن دخلهـا كانت عليه برداً وسلاماً، ومن أبى قال تبارك وتعالى: هذا قـد

---

1) قوابس: القبس: الشعلة من النار. النهاية 4/4.

2) رواه البزار بإسنادين ضعيفين.

أمرتكم فعصيتموني)[1]، ومثله روي في صحيحة زرارة عن أبي جعفر، وغيرها من الروايات[2].

وهذه الأحاديث لا تعني أن الكل سيسقط في الامتحان، وإنما تعني أن هناك ناسا سيسقطون فيه مثلما حصل في الدنيا.

وقد قبلنا هذه الأحاديث بطرقها المختلفة، بناء على اتفاق الأمة عليها من جهة، وعلى انسجامها مع العدالة والرحمة الإلهية من جهة أخرى.

وقد ذهب كبار المحدثين من المدرستين إلى صحتها، وقد رد ابن كثير على من شككوا فيها بقوله:(إن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح كما قد نص على ذلك كثير من أئمة العلماء، ومنها ما هو حسن، ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح والحسن، وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها)[3]

أما ابن القيم فقد أيدها بجملة وجوه، لا بأس من إيراد بعضها هنا[4]:

1. منها أن هذه الأحاديث كثرت بحيث يشد بعضها بعضا، وقد صحح الحفاظ بعضها.

1() الكافي3/249.

2() انظر: بحار الأنوار:5/290.

3) تفسير ابن كثير: 5/58.

4) أحكام أهل الذمة: 2/1147.

2. ومنها أن غاية ما يقدر فيه أنه موقوف على الصحابي، ومثل هذا لا يقدم عليه الصحابي بالرأي والاجتهاد، بل يجزم بأن ذلك توقيف لا عن رأي.

3. ومنها أن هذه الأحاديث يشد بعضها بعضا فإنها قد تعددت طرقها، واختلفت مخارجها، فيبعد كل البعد أن تكون باطلة على رسول الله ﷺ، زيادة على أنه قد رواها أئمة الإسلام ودونوها ولم يطعنوا فيها.

4. ومنها أنه وإن أنكرها بعض المحدثين، فقد قبلها الأكثرون، والذين قبلوها أكثر من الذين أنكروها وأعلم بالسنة والحديث.

ويضاف إلى هذا التأييد الروائي، ما يدل على توافقها مع العدالة والرحمة الإلهية، وما يجمع على أساسه كل النصوص السابقة، وكل الأقوال المبنية عليها.

أما اتفاقها مع العدالة، فحتى لا يتأسف العاقل على أنه لم يكن مجنونا، أويتأسف البالغ على انه لم يمت صبيا، وهذا ما نطق به القرآن الكريم ودلت عليه قواعد الشرع، قال ابن القيم:(فهي تفصيل لما أخبر به القرآن أنه لا يعذب أحد إلا بعد قيام الحجة عليه، وهؤلاء لم تقم عليهم حجة الله في الدنيا، فلا بد أن يقيم حجته عليهم، وأحق المواطن أن تقام فيه الحجة يوم يقوم الأشهاد وتسمع الدعاوى وتقام البينات ويختصم الناس بين يدي الرب وينطق كل أحد بحجته ومعذرته فلا تنفع الظالمين معذرتهم وتنفع غيرهم)[1]

أما اتفاقها مع الرحمة، فإن الله تعالى يكلف هؤلاء بعد معاينتهم لأمر الآخرة، ويكون التكليف حينها مع شدته هينا.

أما اجتماع النصوص على أساسها، فلأن من هؤلاء من

---

1) أحكام أهل الذمة: 2/1149.

يطيع الله، فيدخل الجنة، ومنهم من يعصيه، فيدخل النار، وبذلك كله وردت النصوص، قال ابن كثير:(وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها. وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض)(1)

والاعتراض الثاني الذي قد يوجه لهذا القول هو ما ساد اعتقاده من أن الدار الآخرة دار الجزاء لا دار التكليف، فكيف يكلف هؤلاء بالعمل؟

ومع أن لهؤلاء أحوالهم الخاصة التي قد لا يشاركهم فيها غيرهم إلا أن الأدلة متظافرة على أن هذا الاعتقاد السائد ليس على عمومه، وقد قال تعالى: يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (القلم:42)، وقد ثبت في الحديث أن المؤمنين يسجدون للّه يوم القيامة، وأن المنافق لا يستطيع ذلك ويعود ظهره كالصفيحة الواحدة طبقاً واحداً، كلما أراد السجود خر لقفاه(2).

وفي الحديث الآخر في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجاً منها، أن اللّه يأخذ عهوده ومواثيقه أن لا يسأل غير ما هو فيه، ويتكرر ذلك مراراً، ويقول اللّه تعالى:(يا ابن آدم ما أغدرك!) ثم يأذن له في دخول الجنة(3).

زيادة على ذلك ما ثبت في النصوص الكثيرة من الامتحانات والأسئلة التي يتعرض لها أهل القبور.

وقال نقل المجلسي عن الصدوق قوله: (إن قوماً من أصحاب الكلام ينكرون ذلك، ويقولون: إنه لا يجوز أن يكون في دار الجزاء، تكليف. ودار الجزاء للمؤمنين إنما هي الجنة. ودار الجزاء للكافرين إنما هي النار. وإنما يكون هذا التكليف

---

1) تفسير ابن كثير: 5/58.

2) رواه البخاري.

3) الحديث طويل رواه البخاري ومسلم.

من الله عز وجل في غير الجنة والنار، فلا يكون كلفهم في دار الجزاء، ثم يصيِّرهم إلى الدار التي يستحقونها بطاعتهم أو معصيتهم، فلا وجه لإنكار ذلك)[1]

أما الاعتراض الثالث، فهو تصور استحالة أن يكلفهم اللّه دخول النار، لأن ذلك ليس في وسعهم؛ فغير صحيح لأن ذلك في وسعهم من جهة، وهو مع مشقته لا يختلف كثيرا عن الكثير من التكاليف التي يطلب بها الفوز بسعادة الأبد:

ومنها أن الله تعالى يأمر العباد يوم القيامة بالجواز على الصراط، وهو جسر على جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة، ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم كالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل، والركاب، ومنهم الساعي ومنهم الماشي، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم المكدوش على وجهه في النار، وليس ما ورد في أولئك بأعظم من هذا بل هذا أطم وأعظم.

ومنها ما ثبت في السنّة بأن الدجال يكون معه جنة ونار، وقد أمر ﷺ المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحدهم من الذي يرى أنه نار فإنه يكون عليه برداً وسلاماً[2]، وهذا يشبه إلى حد كبير هذا الامتحان الذي تعرض له هؤلاء.

ومنها أن الله تعالى أمر بني إسرئيل أن يقتلوا أنفسهم، فقتل بعضهم بعضاً حتى قتلوا فيما قيل في غداة واحدة سبعين ألفاً، يقتل الرجل أباه وأخاه وهم في عماية غمامة أرسلها اللّه عليهم، وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل [3]،

1() بحار الأنوار، ج5 ص290..

2) الحديث طويل، وهو مروي في أكثر أصول السنة، وبهذا اللفظ راه أبو داود وابن ماجه.

3) كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة:54)

وهو لا يقل مشقة على النفوس مما تعرض له هؤلاء.

ومنها أن الكثير من الأوامر التي أمر الله تعـالى بهـا في الدنيا نظير الأمر بدخول النار (فإن الأمر بإلقـاء نفوسـهم بين سيوف أعدائهم ورماحهم وتعريضـهم لأسـرهم لهم وتعـذيبهم واسترقاقهم لعله أعظم من الأمر بدخول النار)(1)

زيادة على ذلك كله، فإن أن أمـرهم بـدخول النـار ليس عقوبة لهم، وكيف يعاقبهم على غير ذنب؟ (وإنما هو امتحـان واختبار لهم هل يطيعونه أو يعصونه فلو أطاعوه ودخلوهـا لم تضرهم وكانت عليهم بردا وسلاما، فلما عصـوه وامتنعـوا من دخولها استوجبوا عقوبة مخالفـة أمـره، والملـوك قـد تمتحن من يظهر طاعتهم هل هو منطو عليها بباطنه فيأمرونـه بـأمر شاق عليـه في الظـاهر، هـل يـوطن نفسـه عليـه أم لا؟فـإن أقدم عليـه ووطن نفسـه على فعلـه أعفـوه منـه، وإن امتنـع وعصى ألزموه به أو عاقبوه بما هو أشد منه)(2)

ومن هذا الباب أمر الله تعـالى الخليـل ﷷ بـذبح ولـده، ولم يكن مـراده تعـالى من ذلـك سـوى امتحانـه على مـدى امتثاله وتسليمه وتقديمه محبة اللـه على محبـة الولـد، فلمـا فعل ذلك رفع عنه الأمر بالذبح.

بل إن عباد النار ـ مع كفـرهم ــ يتهـافتون فيهـا ويلقـون أنفسـهم فيهـا طاعـة للشـيطان، ولا يقولـون: ليس ذلـك في وسعنا مع تألمهم بهـا غايـة الألم، (فعبـاد الـرحمن إذا أمـرهم أرحم الـراحمين بطاعتـه باقتحـامهم النـار كيـف لا يكـون في وسعهم وهو إنما يأمرهم بذلك لمصلحتهم ومنفعتهم)(3)

بل إن اقتحامهم النار المفضية بهم إلى النجاة لا تختلـف

1) أحكام أهل الذمة:2/1154.

2) أحكام أهل الذمة:2/1152.

3) أحكام أهل الذمة:2/1155.

عن الكي الذي يحسم الداء، أو هي بمنزلة تناول الداء الكريه الذي يعقب العافية.

فليس أمرهم بدخول النار من باب العقوبة في شيء، لأن (الله تعالى اقتضت حكمته وحمده وغناه ورحمته ألا يعذب من لا ذنب له، بل يتعالى ويتقدس عن ذلك كما يتعالى عما يناقض صفات كماله، فالأمر باقتحام النار للخلاص منها هو عين الحكمة والرحمة والمصلحة، حتى لو أنهم بادروا إليها طوعا واختيارا ورضي حيث علموا أن مرضاته في ذلك قبل أن يأمرهم به لكان ذلك عين صلاحهم وسبب نجاتهم، فلم يفعلوا ذلك ولم يمتثلوا أمره، وقد تيقنوا وعلموا أن فيه رضاه وصلاحهم، بل هان عليهم أمره وعزت عليهم أنفسهم أن يبذلوا له منها هذا القدر الذي أمرهم به رحمة وإحسانا لا عقوبة)[1]

وبهذه الوجوه جميعا يمكننا أن نفهم جيدا قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (الانبياء:47)

وقوله عند ذكر دقة الموازين الإلهية:﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (6) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)﴾ (الزلزلة)

ولا نملك بعد كل هذا إلا أن نكل الأمر لله من قبل ومن بعد، فهو العدل الرحيم، وقد قال مخاطبا رسوله ﷺ:﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (آل عمران:128)

---

1) أحكام أهل الذمة:2/1156.

القسم الرابع

التنويريون .. وتمجيد الملاحدة

تمجيد الملاحدة وأثره في نشر الإلحاد

يتصـور البعض أننـا نبـالغ عنـدما نتحـدث عن هوكينـغ أو غيره من الملاحدة الـذين لم يكتفـوا بإلحـادهم، وإنمـا راحـوا يساهمون في نشره، وبث المغالطات العلميـة لطرحـه، فهم يتصورون أن تمجيد هؤلاء بسـبب مواقـف وقفوهـا، أو علـوم نشروها، أو خدمات قـدموها، لن يتسـبب في نشـر أفكـارهم الخطيرة.. وهذا غير صحيح، والواقع لا يدل عليه.

ومن الأمثلة القريبة على ذلك أن طروحـات الفيلسـوف الكبـير المعـروف [اللـورد برترانـد راسـل] لم تكن لتنتشـر، وتؤدي دورها في نشر الإلحاد بين الطبقات العامـة والمثقفـة لولا مساهمة الكثير من البلهاء الطيبين في الدعاية له بسبب بعض مواقفــه الإنسـانية، مثـل رفضــه التجنيـد في الحــرب العالميــة الأولى، ومثــل تحريضــه المواطــنين الإنجلــيز على العصيان، وقد تحمل السجن نتيجة لـذلك، إضـافة إلى تأليفـه قرابــة ســبعين كتابــاً في الفلســفة والرياضـيات والسياســة والأخلاق والاجتماعيــات، إضــافة لتكريمــه بجــائزة نوبــل في الأدب..

فقد كان لكل تلك الصفات والمواقف والتكريمات أثرها الكبير على ذلـك الجيـل، وعلى الأجيـال الأخـرى إلى عصـرنا الحاضر.

ومثله تلك الدعايات المجانية التي قـام بهـا الكثـير نحـو داعية الوجودية والإلحـاد الأكـبر جـان بـول سـارتر (1905 - 1980) الفيلســوف والــروائي والكــاتب المســرحي، بحجــة مدافعته عن الثورة الجزائرية في الكثـير من كتاباتـه، ونقـده السياســة الاســتعمارية الفرنســية بــالجزائر في العديــد من مقالاته ومسرحياته، وبخاصة في The Condemned of Altona والتي عبر فيها عن السخط الأخلاقي ضـد اضـطهاد السـكان المسلمين، وتعذيب الأسرى منهم على يد الجيش الفرنسـي،

وعن رفضـه للفظـائع الـتي ارتكبهـا النـازيون في الجبهـة الشرقية.. بالإضافة إلى العديد من المقابلات المهمة مع قادة ومناضـلين سياسـيين بـارزين مثـل: جيفـارا، وجمـال عبـد الناصر.. بالإضافة إلى رفضه تسلم جائزة نوبـل عـام 1964، وتعليله سـبب رفضـه الجـائزة قـائلاً: (هـؤلاء الـذين يقـدمون التشـريفات سـواء كـانت وسـام شـرف أو جـائزة نوبـل لا يملكـون في الحقيقـة تقـديمها)، ووصـفه الجـائزة بأنهـا (سياسية، مثلها مثل جائزة لينين - جـائزة عالميـة اسـتحدثها السوفيت لتكريم المفكرين - ولو عرضـت علي جـائزة لينين أيضا سأرفضها)

لكنهم لم يعلموا أن تلك الدعاية المجانيـة لم تكن لتلـك المواقـف فقـط، وإنمـا كـانت أيضـا لتلـك الأفكـار الوجوديـة الخطيرة التي ركزت عليها كل كتاباته ومواقفـه، والـتي عـبر عنها بقوله: (إن وجود الله يعطل وجودي أنـا، فالأفضـل أن لا يكون الله موجودًا حتى أُوجد أنا)، وقوله عن الـذين يعتقـدون بوجود الله: (إنهم المؤمنون الجبناء القذرون)

ودعواته المختلفة إلى إجابة كل ما تمليه الشهوات على الإنسان.. ونبذ كل التقاليد والتعاليم الاجتماعيـة.. ومـا تواطـأ عليه البشر من أخلاق..

ومن عباراتـه المشـهورة الـتي لا تـزال تتـداول قولـه: (اركب رأسك أيها الإنسان إلى حيث تشاء ساعة تشاء، وكمـا تشـاء.. لأن الضـمير والأخلاق والتقاليـد ليسـت سـوى سـتار صفيق يحجب عنك حقيقة وجودك)

وقوله: (انطلق: أيها الأحمق الغبي في عمل مـا تريـد أو تشتهي وتهوى، مهما كان ذلـك في اعتبـار النـاس شـرًا، دون أن يكون لأحد عليك سلطان، فأنت الذي تصـنع فكـرة الخـير بحسب مزاجك، وأنت الـذي تصـنع فكـرة الشـر، وأنت الـذي تخلق فكرة الحق وفكـرة الباطـل، وأنت الـذي تخلـق فكـرة

الحسن وفكرة القبيح)[1]

هذان مجرد نموذجين.. والنماذج على ذلـك أكـثر من أن تحصى.. فتحضير القيادات الاجتماعية أول خطوة يبــدؤها من يريد أن ينشر أي فكرة، أو يدعو إلى أي ضلالة.

ولهذا.. فإن العاقل هو الذي يدرس جيدا كل موقف يريد أن يقفه، وكل شخص يريـد أن يشـهد لـه، أو يـدعو إليـه.. ولا تكفي في ذلـك مواقفـه السياسـية، ولا خدماتـه الاجتماعيـة.. فالقضية أخطر من ذلك.

لكن للأسف بعض الناس ينظرون إلى الأمـور من زاويـة واحدة، ويتصورون أن أعـداء هـذه الأمـة يشـتغلون في جهـة واحدة.. وهذا خطأ منهجي.. فهم يشتغلون في كـل الجهـات، وعلى كل الصعد.

ولهذا لم نكن نناقش ما يقول، وإنما نسعى بكـل جهـدنا أن نفهم ما يقول، ثم نعتقد رغما عنـا، وإلا اعتبرنـا من حولنـا من زمـرة المتخلفين الرجعـيين الـذين لم يرتقـوا في سـلم التطور الإنساني إلى مداه الأعلى.

[1]() نقلا عن: كواشف زيوف، عبدالرحمن الميداني، ص 359-377)

لســت أدري السـبب الـذي يجعلـني أشـعر بكثـير من الأسف والحزن والاشمئزار عند رؤيتي لصور [تشي غيفـارا]، وهي معلقة على الصدور والجدران ووسائل النقـل وفي كـل محل.. وعندما أسـتمع إلى تلـك الحنـاجر، وهي تتحـدث عنـه بكل احترام وتعظيم وتقديس.

وهذا ليس لكوني من المعادين لهـذه الشخصـية، فأنـا لا أعرف عنها الكثير، لا أعرف إلا أنـه شخصـية ثوريـة كـان لهـا دورها في خدمة بلـدها وشـعبها، وأنهـا أصـبحت بسـبب ذلـك أيقونة ورمزا للثورة..وهذا ما آلمني..

فقد كان يمكنني أن أقبل تحول [تشي غيفارا] إلى رمـز للثــورة في أي بلـــد من بلاد العـــالم، وبين أي شـــعب من شعوبها.. وكان يمكن أن أقبل بأن تعلـق صـوره ويقـدس في كـل تلـك البلاد إلا بلادنـا الإسـلامية.. لأننـا بتعليقنـا لصـوره، وتمجيدنا له، واعتبارنا إياه رمزا كبيرا، نلغي الكثير من الصور والرموز والأبطال.. لأن للنفس الإنسانية مساحة محدودة في تقبل الأبطـال.. فلا تسـتطيع أن تجمـع بين الكثـير منهم.. بـل إنها كلما تأثرت ببطل راحت تمحو غيره.

والمشكلة الأكبر أنها عندما تتـأثر ببطـل من الأبطـال، لا تتأثر به في الناحية التي برزت فيها بطولتـه فقـط، بـل تتـأثر بنواحيه الأخرى، والتي قد تكون انحرافا أو ضلالة أو فســادا.. بل إنها قد تضيف إلى تأثرها كل شيء حتى طريقــة تصـفيف البطل لشعره، وطريقة مشيته وحديثه وكل شيء يرتبط به.

وهذا مـا جعـل من الحـاملين لمشـعل الثـورة في بلادنـا الإسلامية، ولفترة طويلة، من أكثر الناس بعدا عن الدين، بل كـان منهم من يعتقـد أن الـدين أفيـون الشـعوب.. لسـبب بسيط، وهو أنه تأثر بأولئك الثوار الشيوعيين أو غيرهم، فراح لا يكتفي بتقليـدهم في ثـورتهم فقـط، وإنمـا يضـيف إليهـا

تقليدهم في إلحادهم وكفرهم بكل القيم الدينية.

ولو كنا نعـدم أبطـالا وثـوارا لكـان في ذلـك العـذر لكـل أولئــك المتــأثرين.. لكن المشــكلة هي أن لنــا من الثــوار والأبطال ما يقف كل ثوار الـدنيا أمـامهم موقـف التلميـذ من أسـتاذه، بـل موقـف السـفح من الجبـل، والفـأر من الأسـد.. فأين أبطالنا العظام، وأين أولئك الأقزام؟

لكن تجاهلنــا لهم، وتكبرنــا عليهم، وانشــغالنا بمــذاهبنا وطوائفنا صرفنا عنهم، ليهيئ الأرضية لأولئك الذين وإن قبلنـا ثوريتهم، فلن نقبل أخلاقهم ولا دينهم ولا سلوكهم.

ومن أقوى الأمثلـة على ذلـك.. والـذي تمـنيت لـو علـق اسـمه في كـل محـل، ووضـع على كـل رايـة، وثبت في كـل صدر.. وأنشدت لـه الأناشـيد.. ومثلت فيـه الأفلام.. وسـميت باســمه الســاحات.. إمامنــا العظيم، زعيم كــل ثــوار الــدنيا، وأســتاذهم الأكــبر [الإمــام الحســين] الــذي هــو مدرســة في الثورة، ومدرسة في كل القيم الرفيعة..

فالتعلق به وحده كاف لأن يحقق كل الأغراض.. أغراض الثورة على الظلم.. وأغراض الثـورة على النفس.. وأغـراض الترقي إلى الملأ الأعلى..

فالثوري الذي ينطلق من الإمام الحسين يختلف اختلافـا جذريا عن الثوري الذي ينطلـق من [تشـي غيفـارا].. فـالأول ينطلق باسم الحق.. وبوسـائل الحـق.. لتحقيـق الحـق.. كمـا عبر الإمام الحسين عن ذلك بقوله: (إني لم أخـرج أشـراً، ولا بطراً ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الاصـلاح في أمـة جـدي، أريـد أن آمـر بـالمعروف وأنهي عن المنكـر فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن رد علي هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق، وهو خير الحاكمين)

وأما الثاني، فيخلـط الحـق بالباطـل.. ويصـعب التفريـق بينهمـا.. وهـذا مـا حصـل لثوراتنـا الـتي اختلـط فيهـا الحـق والباطل، والحرية والاستبداد، فلم نل منها شيئا.. لأن وجهتهـا

لم تكن صحيحة، وأبطالها لم يكونوا حقيقيين.

فإن شئنا أن نبدأ ثورة حيقيقية على أنفسنا الأمارة بالسوء الأول.. فلنذهب.. ولنتتلمذ على الإمام الحسين.. فهو الحقيق بأن تمتلئ بحبه قلوبنا ومشاعرنا وعواطفنا.. وكيف لا نفعل ذلك، وقد قال رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح الذي اتفقت عليه الأمة جميعا:(حسين مني وأنا منه، أحب الله من أحب حسينا)[1]، وقال فيه، وهو يشير إليه: (من أحب هذا فقد أحبني)[2]

لكن الطائفية المقيتة جعلتنا نقدم [تشي غيفارا] وغيره على الإمام الحسين.. ولهذا لا يعتب أحد على من يعلق صوره، أو يصيح بحبه، أو ينشد فيه الأشعار.. لكن الدنيا تقام لو فعل ذلك أحد من الناس مع الإمام الحسين.. ولهذا كله أتأسف.. وأدعوكم أن تتأسفوا معي.

[1] رواه الحاكم في المستدرك.

[2] رواه الطبراني.

فليكن لكم في المسيح أسوة

من المشاهد العظيمة الواردة في القرآن الكريم، والتي يمكن أن نستفيد منها ـ بشـرط التـدبر والتأمـل المتجـرد من كل ذاتية ـ الموقـف الـذي أخـبر اللـه تعـالى فيـه عن حـديث المسيح عليه السلام مع الله تعـالى في شـأن الـذين اتخـذوه إلها من دون الله، أو مع الله.

وتظهر قيمة ذلك المشهد عنـد مقارنتـه بتلـك المشـاهد المزورة الـتي راح يرسـمها بعضـهم لسـؤال اللـه لعبـاده في الآخرة، والتي يتـألون فيهـا على اللـه، ويسـيئون الأدب معـه، ويطالبونـه بلهجـة حازمـة شـديدة بـأن يطبـق مـا ذكـره من رحمته الـتي وسـعت كـل شـيء.. وكـأن اللـه تعـالى مـؤتمر بأوامرهم، وليسوا هم المؤتمرين بأوامره..

في ذلـك المشـهد يظهـر المسـيح عليـه السـلام بمثـل صورته التي عرفناه بهـا في الـدنيا.. صـورة العبـد المتواضـع العـارف الرقيـق الممتلئ بكـل ألـوان الأدب.. والـذي يعـرف قـدره، فلا يجـاوزه، ويعـرف قـدر ربـه، فيحفظـه، ويـوقره، ويقدسه.

عندما سأله الله عن أولئك الذين عبدوه من دون اللـه.. تنصل بكل أدب منهم، بـل تـبرأ إلى اللـه من فعلهم.. ثم بين أن شهادته عليهم كانت في الدنيا، أما بعد توفيـه، فقـد خـرج الأمر من يده، وبقي بيد الله.

وبعد أن بين عذره، راح ينطـق بهـذه الحكمـة العرفانيـة التي تحتاج منا أن نتأملها، لنتأدب مع الله، ونترك له الدينونـة المطلقة، ولا نجاوز حدودنا وما أتيح لنا.. لقد قال ــ كمـا ذكـر القـرآن الكـريم ــ:﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَـهِيدًا مَـا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَـهِيدٌ (117) إِنْ تُعَـذِّبْهُمْ فَـإِنَّهُمْ عِبَـادُكَ وَإِنْ تَغْفِـرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 117، 118]

هكذا بكل أدب خاطب ربه سبحانه وتعالى، فقد ترك الأمر إليه، فلم يقترح عليه شيئا.. بل قال بكل أدب: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118]

حتى أنه عند ذكر المغفرة لم يقل: (فإنك أنت الغفور الرحيم).. وإنما قال: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، أي (إن تعذب ـ يا إلهى ـ قومي، فإنك تعذب عبادك الذين خلقتهم بقدرتك، والذين تملكهم ملكا تاما، ولا اعتراض على المالك المطلق فيما يفعل بمملوكه. وإن تغفر لهم، وتستر سيئاتهم وتصفح عنهم فذلك إليك وحدك، لأن صفحك عمن تشاء من عبادك هو صفح القوى القاهر الغالب الذي لا يعجزه شيء. والذي يضع الأمور في مواضعها بمقتضى حكمته السامية)[1]

هكذا خاطب الله تعالى بكل أدب ورقة وتواضع وعبودية، ولو أن هؤلاء المتألين على الله تُرك لهم الخطاب، وقد فعلوا من حيث لا يشعرون، لقالوا: (يا رب ارحمهم.. فقد كانوا جهلة.. وكانوا يحبونني كثيرا.. وقد رأوا من المعجزات التي حصلت على يدي ما جعلهم ينبهرون، ويتصورون أني إله.. فلذلك اعذرهم يا رب العالمين، فأنت أرحم الراحمين.. ورحمتك وسعت كل شيء)

أو يقولون له ــ كما يقول بعض من يزعم لنفسه العرفان ـ: (يا رب هؤلاء لم يشركوا.. وإنما رأوا تجلي صفات كرمك في فراحوا يعبدونني.. فلذلك لم يكن يعبدونني أنا، بل كانوا يعبدونك أنت)

أو يقولون له ـ كما يقول بعض من يزعم لنفسه التنوير ــ: (يا رب هؤلاء طيبون جدا، وقد ملأوا حياة البشرية بالخدمات الجليلة.. فهم الذين اكتشفوا الكهرباء والغاز.. وهم الذين وفروا للبشرية التي خلقتها كل وسائل الرفاه والراحة.. فلذلك اعف عنهم.. بل ارحمهم.. بل أدخلهم

---

[1] () التفسير الوسيط لطنطاوي (4/ 351)

الجنة.. بل ضعهم في جواري في الفردوس الأعلى)

أو يقولون له ـ كما يقـول شـحرور، وبعض من يزعمـون لنفسـهم أنهم قرآنيـون ــ: (يـا رب المسـألة بسـيطة جـدا.. فالإيمـان مجـرد قضـايا فرعيـة جزئيـة.. وأنـا كـان همي في رسالتي إليهم هـو نشـر قيم السـماحة والاعتـدال والبعـد عن التطرف.. وقد طبقوا الكثير من ذلك.. فارحمهم)

أو يقولون له ـ كمـا يقـول ذلـك الخطيب الألمعي الـذي يريد أن يحافظ على جمال صورة الله في الغرب ــ: (يـا رب ارحمهم.. وارحم حـــتى الملاحـــدة.. فإنـــك إن فعلت ذلـــك سيحبونك.. وسيقدسونك.. فما الفائـــدة في أن تلقي بهم في جهنم أو تعذبهم؟.. أليس من الأفضل لك أن تـدخلهم جنتـك.. فهي لا تكلفك شيئا.. وأنت أرحم الراحمين)

هـذه نمـاذج افتراضـية عن سـوء أدبنـا مـع اللـه.. ونحن نسـمعها كـل حين من هـؤلاء الـذين لا يملكـون ذرة أدب مـع ربهم.. ولو عقلوا، وعادوا إلى كتاب ربهم، وتعلموا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الأدب والتواضع وتوقير الله وتعظيمه.. لكفوا عن كل ذلك.

الملاحدة.. والخنازير البرية

عاتبني بعض القراء الكرام على تشبيهي لهوكينغ وبعض الملاحـدة ممن صـنفتهم ضـمن [الملاحـدة الطبـائعيين] في كتابي [ما قاله الملاحدة ولم يسجله التاريخ] بالخنازير البرية، ورأى أن ذلك نوع من السباب والشتائم الـتي لا تليـق بمثلي، ولا بأي مؤمن، مع أني ذكرت في مقدمـة الكتـاب أنـه روايـة رمزية تحاول أن تصور الحقائق بلغة علمية ورمزية في نفس الوقت.

وقـد عـبرت عن سـر اختيـاري للخنـازير البريـة لهـؤلاء الطـائعيين الملاحـدة على لسـان [ديمـوقريطس] اليونـاني.. الفيلسوف، صاحب [المذهب الذري].. بقولـه: (هـذا مـا كنت أعتقـده، ومـا كنت أمليتـه.. ومـا حولـني إلى هـذه الصـورة الخنزيرية وطباعها القذرة.. فأنا في حياتي لم أمارس سـوى ما تمارسه الخنـازير من الفتـك بـالمزارع، وإفسـاد الحقـول، وتخريب العقول.. لقد أعطاني الله من الفـرص، وأرسـل لي من الحجج، ما كـان يمكن أن يحافـظ على إنسـانيتي.. لكـني صـرفت نظـري عن ذلـك كلـه، ورحت إلى ثيـاب الخنـازير أتقمصها.. وإلى وظائفها أؤديها)

وهكذا وضـعت رمـوزا مختلفـة لكـل صـنف من أصـناف الملاحـدة، مقتـديا في ذلـك بمـا ورد في القـرآن الكـريم من تشبيهات ورموز، كقوله تعالى في ذلك الذي أوتي العلم لكنه لم يعمـل بـه، وخالفـه، وأخلـد إلى الأرض: ﴿ فَمَثَلُـهُ كَمَثَـلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِـكَ مَثَـلُ الْقَـوْمِ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا فَاقْصُـصِ الْقَصَـصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: 176]

وقوله في الذين يحملون الكتب ويحفظونها، ولا يعملون بما فيهـا: ﴿مَثَـلُ الَّذِينَ حُمِّلُـوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَـا كَمَثَـلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَـاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الجمعة: 5]

وقوله في غيرهم من الذين لا يسمعون ولا يبصرون الحقائق الواضحة: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: 44]، فقد اعتبرهم أضل من الأنعام.

ولذلك فإن ذلك التشبيه الرمزي المتناسب مع واقع علماء الملاحدة الذين أبصروا التصميم العظيم للكون، ومع ذلك غضوا أبصارهم عنه، وراحوا يشوهون الحقائق، ويصرفون الناس عنها، هو [الخنزير البري] لكونه لا يهتم بأن يأكل ما يحتاج إليه من ثمار، وإنما يخرب الحقول والمزارع.. فلا ينتفع هو، ولا ينتفع غيره، كما قال قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: 26].. كما يفعل الملاحدة تماما.

لكن الفرق كبير بينهما، فالخنزير حيوان غير مكلف، ولا يحاسب على تصرفاته، بل هو يفعل ما تمليه عليه طبيعته التي خلق عليها، ولذلك لا لوم عليه.. وفوق ذلك؛ فإن هذا الخنزير عارف بربه مؤمن له مسبح بحمده، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: 44]

وقد روي عن الإمام زين العابدين أنه كان يقول: (ما بهمت البهائم عنه فلم تبهم عن أربعة: معرفتها بالرب تبارك وتعالى، ومعرفتها بالموت، ومعرفتها بالأنثى من الذكر، ومعرفتها بالمرعى الخصب)[1]، بل ورد في الحديث الشريف النهي عن اتخاذ الدواب منابر، وعلل رسول الله ﷺ ذلك بقوله: (فرب مركوبة خيرا أو أكثر ذكرا لله تعالى من راكبها)[2]

لذلك، فإنه إن جاز لي أن أعتذر عن ذلك التشبيه، فإني

---

(1) الخصال، الشيخ الصدوق، ص260.

(2) رواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه.

أعتذر للخنازير البرية العارفة بربها، والـتي لم تمـارس إلا مـا تمليه عليها طبائعها التي خلقت عليها.

وهي فوق ذلك لا ذنب لها، ولم تتسبب في كفر أحد من الناس، ولا إلحاده، ولا نزع نـور الإيمـان عنـه، ولم يكن لـديها من القـوى العقليـة مـا كـان لأولئـك الملاحـدة الـذين غضـوا أبصـارهم عن الحقـائق، وراحـوا يعبثـون بهـا بكـل اسـتعلاء وكبرياء.

ما خطورة طروحات هوكينغ الإلحادية؟

مع اهتمامي الشديد بطروحـات الملاحـدة عـبر التـاريخ، وخصوصا المختصين منهم في علوم المادة، لم أجد أطروحـة أكثر جرأة ودجلا وتعنتا وكـبرا من الطروحـات الـتي تبناهـا أو أخرجها هوكينغ.. ولعل ذلك كان السبب في الشـهرة الكبـيرة التي نالها.. وسأحاول إثبات ذلك الآن.. وأرجو من التنــويريين الجدد أن يصبروا، ويتأكدوا قبل أن يحكموا، فلعل ذلك يخفف عنهم ذلك الغلو في تقديس شخص لم ينل شهرته إلا بسـبب مقولاته الخادمة للإلحاد.

ولبيــان ذلــك أذكــر أن المقــولات الإلحاديــة منــذ عهــد ديموقريطَسْ، ذلك الفيلسوف اليوناني المادي صاحب المذهب الذرّي إلى الوقت الذي اكتشف فيه الانبثاق الكوني ـ إما بسبب نظرية الانفجار العظيم، أو بســبب القــانون الثــاني للــديناميكا الحراريــة ـ وملاحدة الفيزيائيين يسـتندون للحالـة الثابتـة للكـون، وكونـه قديما لا يحتاج إلى موجد يوجده من عدم.

ولذلك كان المؤمنون منهم يشعرون بحــرج عظيم، وهم يناقشـون حاجـة الكـون إلى خـالق، خاصـة مـع قـول أكـثر الفلاسفة بقدم العالم..

ولهذا نجد صـدمة كبـيرة أصـابت الكثـير من الفيزيـائيين بعد ورود الأدلة الكثيرة على نظرية الانفجار العظيم..

ومن ذلك موقف بعضـهم[1]، وهـو عـالم الكوسـمولوجيا والرياضـيات البريطـاني المـادي (أرثـر إدنجتن) (ت1944م)

---

[1] انظر هذه النصوص والتوثيقات المرتبطة بها في كتاب: فمن خلق الله؟: نقد الشبهة الإلحاديـة [إذا كـان لكـل شـيء خـالق، فمن خلـق اللـه؟] في ضـوء التحقيـق الفلسفي والنقد الكوسمولوجي، د. سامي عامري، مركز تكوين للدراسات والأبحاث، 2016.

الذي اهتزّ لهذا الكشف، وذكر أنّ أصـل الكـون هـو (فسـلفيًا أمر بغيض.. وأنّه يبدو أنّ البداية تقـدّم صـعوبات لا تُقهر إلّا إذا اتفقنا أن ننظر إليها بصراحة تامة كأمر فوق طبيعي)

وهكذا كان موقف (روبـرت ويلسـن) مكتشـف (إشـعاع الخلفية الكونيـة الميكـروي) مـع (بنزيـاس)، والـذي كـان من أنصـار الحـال الثابتـة عن أثـر نظريـة الانفجـار العظيم على قناعاته وعقائـده: (لقد أحببت فلسـفيًا نظرية الحـال الثابتـة، وعليّ بوضوح أن أتراجع عن ذلك)

وقـال (ألان سـنداج) (ت.2010م) الـذي لُقِّب بـأبي (الكوسمولوجيا الرصديّة المعاصرة)، وهو من أدقّ من قدّموا تقديرًا علميًا لعمر الكون ـ ([بدء الكون بانفجار] نتيجة غريبة.. لا يمكن أن تكون صحيحة)، لكنه بعد ثبوب الأدلـة لم يجـد إلا إلى أن يتحوّل في آخر حياته إلى الإيمان بالله.

أما (هويل)، فقد عبر بصراحة عما يحمله ثبـوت الانبثـاق الكـوني من انتصـارات للمؤمـنين، فقـال في كتـاب مدرسـي ألّفه سنة 1975م: (الكثيرون مسرورون بقبول هذا الموقـف دون البحث عن تفسير فيزيـائي للبداية الحـادة للجسـيمات.. يُنظر إلى البداية الحـادة عمـدًا على أنّها فـوق فيزيائيـة، أي خارج الفيزياء.. يبدو هذا النمط من التفكير مُرْض للكثـير من الناس لأنّ [شيئًا ما] من خارج الفيزياء بالإمكان إضـافته إلى بدايـة الـزمن.. لقـد وضـعت كلمـة [إله] مكـان [شـيء ما] بمخادعة لفظية.. لا أعتقد أنّنا بحاجة إلى استدعاء الميتافيزيقا لحلّ أيّ مشكلة بإمكاننا أن نفكّر فيها)

أمـا (دنيس شـياما) (ت 1999م)، وهـو أسـتاذ (هوكنـغ) في الفيزياء، وأحد كبار المناصرين لـ (نظريـة الحـال الثابتـة) مع زميله (هويل)، فقد تحوّل عن مذهبه بعد اكتشاف (إشعاع الخلفيـة الكونيـة الميكـروي) ليصـبح من أهم المنـافحين عن (نظرية الانفجار العظيم)

وقد أقرّ أنّه قد لعب دورًا في الدفاع عن (نظرية الحال الثابتة) لأنّها كانت جذابة بصورة كبيرة لدرجة أنه تمنّى أن تكون صحيحة، (لكن لما تراكمت الأدلة؛ اتّضح بجلاء أنّ اللعبة قد انتهت، وأنه يجب التخلّص من نظرية الحال الثابتة)

وهكذا نرى الكثير من ملاحدة الفيزيائيين يقعون في مواقف حرجة بسبب ثبوب الانبثاق الكوني إما بسبب نظرية الانفجار العظيم أو بسبب القانون الثاني للديناميكا الحرارية.. ولهذا اضطر بعضهم للإيمان والتراجع عن الحالة الثابتة للكون، واضطر آخرون للبحث عن نماذج أخرى بديلة تحاول أن تسد حاجة الكون إلى موجد خارجي.

كما عبر عن ذلك عالم الفيزياء الفلكية (كريستوفر إشام)، فقال: (ربّما أفضل حجة لصالح الطرح القائل إنّ (الانفجار العظيم) يؤيّد الإيمان بالله هو التململ الواضح الذي قوبل به من طرف بعض الفيزيائيين الملاحدة. وقد أدّى ذلك إلى ظهور أفكار علمية، مثل (الخلق الدائم) أو (الكون المتذبذب)، وقد تمّ تقديمها بحماسة تفوق بكثير قيمتها الحقيقية ممّا يلزم المرء بأن يرى دوافع نفسيّة أعمق بكثير من الرغبة المألوفة للمنظّر لدعم نظريّته)

وورد في مقال نشر في مجلّة [New Scientist]: (اعتقد علماء الكوسمولوجيا أنّ عليهم الالتفاف وراء المشكلة.. لقد حاولوا على مرّ السنوات الماضية إثبات عدة نماذج مختلفة للكون تتفادى الحاجة إلى بداية، مع الاستمرار في اشتراط انفجار عظيم. يبدو الآن من المؤكّد أنّ الكون كانت له بداية)

بعد هذا العرض الموجز لمواقف علماء الفيزياء والكون من الانبثاق الكوني نتساءل عن موقف هوكينغ، أو ما الذي فعله هوكينغ حتى ينقذ الموقف الإلحادي؟

وقبل أن نجيب عن ذلك نحب أن نذكر هنا مقولة للكوسمولوجي الشهير اللاأدري (ألكسندر فلنكن) سنه 2012م في عيد ميلاد [هوكينج] السبعين، والذي ناقش فيه

العلماء أهم نظريات نشأة الكـون، حيث قـال: (لقـد قيـل إن الحجة هي التي تقنع العقلاء والدليل هو الذي يقنع حـتى غـير العقلاء.. لم يعـد بإمكـان علمـاء الكـون، بعـد أن قـامت الآن الأدلة، أن يتخفوا وراء إمكانية وجود كون أزلي. لم يعد هنـاك مهرب، عليهم أن يواجهوا مشكلة البداية الكونية)

والدور الـذي قـام بـه هوكينـغ لإنقـاذ الموقـف الإلحـادي يتمثل في أمرين، أحدهما شاركه فيه غيره، والثاني انفرد بــه لوحده.

أما الأمر الأول، فهو أنه مثلما حاول داروين باستماتة أن يستبدل تفسير (الخالق) بخرافة التطور الصدفي والعشوائي في الكائنـات الحيـة، فقـد حـاول هـوكينج اسـتبدال تفسـير (الخالق) بخرافة الأكوان المتعددة الصدفية والعشـوائية لكي يبرر ظهور كوننا الغاية في الدقة من بينها.

ولذلك افـترض في كتابـه [التصـميم العظيم] بحسـابات رياضية معقدة ـ كما توصف ـ ليهـرب من الاعـتراف بالخـالق إلى وجود 10 أس 500 كـون.. وذكـر أن هـذا العـدد الضـخم يتناسـب مـع نظريتـه M الـتي سـتجمع كـل قـوانين الوجـود لتمكننا من فهم كل شيء بعيدا عن الخالق.

وهــذا العــدد الضــخم للأكــوان.. أي 10 وأمامهــا 500 صـفر.. لم يخترعـه أحـد سـواه.. وللأسـف صـار شـعارا من شعارات الملاحدة، أو كما عبر عن ذلك [ريتشارد داوكنز] في حواره مع [ستيفن واينبرج] مبينا سبب اعتمـاد هـذه النظريـة والاهتمام بها، وهو كونها وسيلة لنفي الإلـه، وقـد قـال معـبرا عن ذلـك: (إذا اكتشـفت هـذا الكـون المـدهش المعـد فعليـا بعناية.. أعتقد أنه ليس أمامك إلا تفسيرين اثنين.. إمـا خـالق عظيم، أو أكوان متعددة)

ونحب أن ننبه إلى أن هـوكينج نفسـه كـان قـد أقـر في كتابـه الأول [مـوجز لتـاريخ الـزمن] بحقيقـة الضـبط الـدقيق للكـون، وخصوصـا الثـابت الكـوني وضـبط مقـدار الجاذبيـة

الـرهيب، ولم يبـق أمامـه لتـبرير الإلحـاد إلا اخـتراع فكـرة الأكوان المتعددة الكثـيرة جـدا والعشـوائية ليكـون كوننـا هـو الوحيد من بينها الذي خرج بهذه الصورة.

وأما الأمـر الثـاني، وهـو أخطـر من الأول، وهـو محاولـة هوكينغ تجاوز نظرية الانبثاق الكوني، ببيان أن الكون حتى لـو كان له بدايـة فإنـه لن يحتـاج إلى الخـالق، ذلـك أن القـوانين الكونية وحدها كفيلة بخلق الكون، وهذا ما لم يقله غيره.

وقـد عـبر عن ذلـك بقولـه: (تمامـا مثلمـا فسـر دارون ووالاس كيـف أن التصـاميم المعجـزة المظهـر في الكائنـات الحية من الممكن أن تظهر بدون تدخل قـوة عظمى، فمبـدأ الأكـوان المتعـددة من الممكن أن يفسـر دقـة القـوانين الفيزيائية بدون الحاجة لوجود خالق سخر لنا الكون.. فبسبب قانون الجاذبية فالكون يستطيع ويمكنه أن ينشيء نفسـه من اللاشيء.. فالخلق الذاتي هو سبب أن هناك شيء بدلا من لا شيء، ويفسر لنا لماذا الكون موجود، وكذلك نحن)[1]

ونحب أن نشـير هنـا إلى أن قـول الرياضـي والفلكي المعروف [بيير سيمون لابلاس] حين سأله نابليون عن مكـان الله في نظامه الميكانيكي الخاص بالأجرام السـماوية، فقـال له بكل ثقة: (يا سـيدي لسـت بحاجـة إلى هـذا الافـتراض)[2] كان مبنيا على الحالة الثابتـة للكـون، أي أنـه قـال ذلـك قبـل الانفجار العظيم..

وهكـذا حين نقـارن بين نيـوتن ــ وهـو رائـد العلمـاء في عصور النهضة، بل ربما في كل العصور، ومع كونه عـاش في الزمن الذي كان يعتقد فيه بالحالة الثابتة للكون ـ مع هوكينـغ نجد الفرق الكبير بينهما، فقـد قـال نيـوتن متحـدثا عن كتابـه

---

[1] المرجع سابق.

[2] نقلا عن العلم في منظوره الجديد لروبرت م .أغروس و جورج ن. ستانسيو، ترجمة كمال خالايلي، طبع سلسلة عالم المعرفـة، ورقمـه في السلسـلة (134)، ص 54.

[برينسيبا ماثيماتيكا] الذي يعد من أعظم الكتب العلمية، وأكثرها تأثيرا في مسار التطور العلمي، ولا سيما في الفيزياء: (لقد كتبت هذا الكتاب وأنا أضع نصب عيني أن يكون سبيلا إلى مساعدة الناس على أن يؤمنوا بالله المعبود، ولن يسعدني شيء أكثر من تحقيق هذه الغاية)، ومن أقواله المأثورة: (يكفي أن أنظر لإبهامي حتى أكون مؤمنا بالله)

أما أعلام الفيزياء المتأخرون، فقد ذكر مؤلفا كتاب [العلم في منظوره الجديد] [1] الكثير من النماذج الدالة على تحولهم إلى الإيمان مقارنة بالفيزيائيين الكلاسيكيين.

ومن أمثلتهم .كما يذكر الكاتبان - الفيزيائي ادموند ويتيكر الذي نقلا عنه قوله: (ليس هناك ما يدعو إلى أن نفترض أن المادة والطاقة كانتا موجودتين قبل الانفجار العظيم، وأنه حدث بينهما تفاعل فجائي. فما الذي يميز تلك اللحظة عن غيرها من اللحظات في الأزلية، والأبسط أن نفترض خلقا من العدم، أي إبداع الإرادة الإلهية للكون من العدم)

ومثله الفيزيائي ادوارد ميلن الذي انتهى بعد تفكره في الكون المتمدد إلى هذه النتيجة: (أما العلة الأولى للكون في سباق التمدد فأمر إضافتها متروك للقارئ، ولكن الصورة التي لدينا لا تكتمل من غير الله)

وهكذا صرح كبار أعلام الفيزياء الحديثة من أمثال [فيرنر هيزنبرج] صاحب مبدأ اللاحتمية أو الارتياب الذي عبر عن ذلك بقوله: (كنت طوال حياتى مدفوعا الى تأمل العلاقة بين العلم والدين ولم أجد فى أى وقت مهربا من الاقرار بدلالة العلم على وجود الاله)

---

[1]() وهو من الكتب المهمة التي ترد على الإلحاد، وتذكر مواقف العلماء في المجالات المختلفة، وذاك فى شكل موازنة بين مقولات النظرة العلمية القديمة والنظرة العلمية الجديدة، ويعرض المؤلفان روبرت م. أغروس وجورج ن..

وقال: (ما الذى يحكم حركة الابرة المغناطيسية لتستقر تجاه الشمال والجنوب، إنه نظـام مبهـر تحكمـه قـوة حكيمـة قادرة، قوة لو اختفت من الوجـود لاجتـاحت الجنس البشـرى مصائب رهيبة مصائب أسوأ من الانفجارات النوويـة وحـروب الإبادة)

ومثلـه قـال [اروين شـرودنجر] مؤسـس علم [ميكانيكـا الموجات]: (إن الصورة التى يرسمها العلم للوجود من حولنا قاصرة للغاية، فبالرغم من الحقائق الكثيرة التى يقـدمها لنـا ويصيغها فى القوانين التى تحكم الوجود يقـف العلم كـالأبكم أمام الأمور القريبة من قلوبنا والتى تهمنا حقيقة)

ويقـول [مـاكس بلانـك] العـالم الألمـاني صـنو أنشـتاين والحائز على نوبل 1918م ومؤسـس فيزيـاء الكم: (لا يمكن أن نجد تعارضا حقيقا بين العلم والدين فكلاهما يكمل الآخـر، إن كلا من الدين والعلم يحارب فى معـارك مشـتركة لا تكـل ضد الادعاء والشك والتسلط والالحاد من أجـل الوصـول الى معرفة الإله)

ويقول: (العِلم الطبيعي لا يسـتطيع حـل اللغـز المُطلـق للطبيعة، وذلك لأنه في التحليل الأخير نكون نحن أنفسنا جزء مِن الطبيعة، وبالتالي جزء من اللغز الذي نحاول حله)

ويقـول [بـول ديـراك]، وهـو من كبـار مؤسسـى فيزيـاء الكم: (إن الالـــه خـــالق حســـيب اســـتخدم أرقى مســـتويات الرياضيات فى تصميم الكون ووضع قوانينه)

ولهـذا نـرى كبـار الفيزيـائيين المعاصـرين، ومنهم زملاء لهوكنيغ نفسه ينحون عليه باللائمة بسبب اسـتعماله الفيزيـاء لإرضاء الـنزوات الإلحاديـة، فهـذا الفيزيـائي الشـهير [راسـل ستانارد] يقول في مقاله في الجارديان: (إن فلسـفة هـوكنج هو تحديدا مـا أعارضـه فهي كمـا وصـلتني مثـال واضـح على التعـالم .سـاينتزم- فطـرح أن العلم هـو مصـدر المعلومـات الوحيد وأننا لدينا فهم كامل لكل شـيء هـو هـراء بـل وهـراء

خطير أيضا فهو يشعر العلماء بالكبر والغرور بشكل مبالغ فيه)

ويقول البروفسور جون بولكنجهورن من أشهر علماء الفيزياء النظرية: (إنها - يقصد الأكوان المتعددة .ليست فيزياء إنها في أحسن الأحوال فكرة ميتافيزيقيه ولا يوجد سبب علمي واحد للإيمان بمجوعة من الأكوان المتعددة...إن ماعليه العالم الآن هو نتيجة لإرادة خالق يحدد كيف يجب أن يكون)

ويقول الفيزيائي الشهير [روجرز بنروز]، وهو الذي أثبت مع هوكنج حدوث الإنفجار الكبير مُعلقا على كتاب هوكينج [التصميم العظيم]: (على عكس ميكانيكا الكم فإن النظرية M لاتملك أي إثبات مادي إطلاقا)

ويقول البروفيسور بول ديفيز الفيزيائي الإنجليزي في الجارديان منتقدا هوكنج بشدة: (تبقى القوانين المطروحة غير قابلة للتفسير.. هل نقبلها هكذا كمعطى خالد؟ فلماذا لانقبل الله؟ حسنا وأين كانت القوانين وقت الإنفجار الكبير؟ إننا عند هذه النقطة نكون في المياه الموحلة)

ويقول الفيزيائي وعالم الفضاء [مارسيلو جليسر]: (ادعاء الوصول لنظرية نهائية يتنافى مع أساسيات وأبجديات الفيزياء والعلم التجريبي وتجميع البيانات، فنحن ليس لدينا الأدوات لقياس الطبيعة ككل فلا يمكننا ابدا أن نكون متاكدين من وصولنا لنظرية نهائية وستظل هناك دائما فرصة للمفاجآت كما تعلمنا من تاريخ الفيزياء مرات ومرات. وأراها إدعاء باطل أن نتخيل أن البشر يمكن ان يصلوا لشيء كهذا..أعتقد ان على هوكنج أن يدع الله وشأنه)

ويقول الفيزيائي بيتر ويت من جامعة كولومبيا: (لست من أنصار إدخال الحديث عن الله في الفيزياء لكن إذا كان هوكنج مصرا على دخول معركة الدين والعلم فما يحيرني هو إستخدامه لسلاح مشكوك في صلاحيته أو فاعليته مثل

النظرية M)

ويقول ويليام كريج الفيلسوف الأمريكي ساخرا: (لا شيء جديد علميا في هذا الكتاب بالمره ولكن نقاش فلسفي بحت خصوصا في الثلث الأول، وهو شيء غريب إذا علمنا أن هوكنج في أول صفحة من كتابه يقول إن الفلسفة قد ماتت)

ويقول فيلسوف الفيزياء [كريج كالندر] في جامعة كاليفورنيا ساخرا: (منذ ثلاثين عاما صرح هوكنج بأننا على أعتاب نظرية كل شيء، وبحلول عام 2000 وحتى الآن في عام 2010 لاشيء.. لكن لايهم فهوكنج رغم ذلك قرر أن يفسر سبب الوجود بالرغم من عدم وجود النظرية.. إن ما يتحدث عنه هو مجرد حدس غير قابل للاختار أبدا)

ويقول الدكتور [هاميش جونستون] محرر موقع عالم الفيزياء: (توجد فقط مشكلة صغيرة وهي ضحالة الدليل التجريبي للنظرية M.. بمعنى آخر فهناك عالم كبير يخرج بتصريح للعامة يتحدث فيه عن وجود الخالق إعتمادا على إيمانه بنظرية غير مثبته.. إن الفيزياء بحاجة لدعم العامة حتى لاتتأثر بتخفيض النفقات وهذا سيكون صعبا جدا إذا ظنوا أن معظم الفيزيائيين يقضون وقتهم في الجدال عن ما تقوله نظريات غير مثبته عن وجود الخالق)

وأما الصحفي العلمي جون هورجان كتب مقالا بعنوان [البهلوانية الكونية] صف النظرية M التي يعتمد عليها هوكنج بالحثالة، وقال: (هوكنج نفسه قال باستحالة اختبار نظريته.. أن تضع نظرية لكل شيء فأنت لديك لاشيء.. أن يكون خلاصة بحثه هو النظرية M غير القابلة للإثبات.. إننا نخدع انفسنا إن صدقناه)

ويقول بروفيسورالرياضيات [جون لينوكس]: (إن قول أن الفلسفة قد ماتت خطير جدا خصوصا عندما لا تتوقف أنت نفسك عن استخدامها...ولأن هوكنج لديه فهم مغلوط

لكل من الفلسفة والدين فهو يريدنا أن نختار بين الله وقوانين الفيزياء.. إن القوانين الفيزيائية لايمكن أن تخلق شيئا فهي مجرد الوصف الرياضي للظواهر الطبيعية.. فقوانين نيوتن للحركة لن تدفع كرة البلياردو على الطاولة بدون لاعب يضربها، فالقوانين لن تحرك الكرة فضلا عن خلقها.. إن ما يقوله هو خيال علمي بحت.. من أين جاءت الخطة الكونية التي تحدث عنها هوكنج؟ إنها ليست من الكون فمن جعلها تعمل إن لم يكن الله؟.. إن محاولة العلماء الملحدين الهروب من فكرة الخالق يجعلهم يعزون الوجود لأشياء أقل مصداقية كالطاقة والقوانين أوالكتل.. بالنسبة لي كلما زاد فهمي للعلم كلما زاد إيماني بالله لتعجبي من اتساع وتعقيد وتكامل خلقه)

ثم ضرب الأمثلة على إيمان كبار العلماء عبر التاريخ بوجود الخالق، فقال: (إسحق نيوتن بعدما إكتشف قانون الجاذبية وألف أهم كتاب علمي في التاريخ (برينسيبا ماثيماتيكا) قال إنه يأمل أن يساعد أصحاب العقول (أولى الألباب) أن يؤمنوا بالله.. وكانت قوانين آينشتين الرياضية مثار اندهاشه الدائم وإيمانه بوجود قوة حكيمة جبارة خلف هذا الكون (وإن لم يؤمن بإله الكتاب المقدس)... وآلان سانداج المعروف بالأب الروحي لعلم الفلك الحديث الحائز على أرفع الجوائز قال: إن الله هو التفسير لمعجزة الخلق)

هذه اقتباسات من أكبر علماء العصر في المجالات التي تخصص فيها هوكينغ، وللأسف لا يعرفهم هؤلاء التنويريون، ولا يهتمون بهم، ولا يترحمون عليهم إذا ماتوا، لسبب بسيط وهو أن الإعلام الملحد لم يتبناهم، ولم يقم بالدعاية لهم..

الغرب.. والتلاعب بالعواطف

من المهـارات الكـبرى الـتي يتقنهـا الإنسـان الغـربي عموما، وساسته ومثقفوه خصوصا قـدرة التلاعب على أوتـار العواطف.. وتبادل الأدوار فيهـا.. وهي تضـاهي بنفس القيمـة والمقدار مهارتنا في استعمال عواطفنا والخضوع لها، وتحييد العقل بأنواعه عند التعارض معها.

ويحضرني في هـذا مـا ذكـره لي بعضـهم أن الاسـتعمار الفرنسي كان يدخل القرية، فيعتقل شبابها، ويصادر ثرواتها.. وقبل انصرافه يوزع جنـوده بعض الحلـوى على أولاد القريـة، فيصيح عجائزها قائلين: ما شاء الله.. كم هم لطيفـون هـؤلاء الفرنسيون.

وهذا ما يحصل لنا الآن بالضبط.. لكن الـذي يصـيح ليس عجائزنا، وإنما مفكرونا ومثقفونا والنخبة منا.. فأمريكا تفعـل ما تفعل.. تدمر الأخضر واليابس.. وتزرع فينا وفي أرضنا كل ألوان السموم.. ثم تذهب إلى كل قطرة من بترولنا وخيراتنا لتستلبها رغم أنوفنـا.. ثم إذا مـا رأت الأحقـاد بـدأت تتسـرب إلينـا بسـببها أرسـلت لنـا ممثلـة رقيقـة، أو صـوتا حانيـا، أو دبلومسيا ذكيـا ليمسـح عن قلوبنـا مشـاعر الكراهيـة، ويعيـد بوصلتنا إلى قبلة البيت الأبيض من جديد.

وهذا ما يفعلونه هذه الأيام مع هوكينـغ.. فمـع أن لـديهم الكثـير من دعـاة الإلحـاد بأنواعـه المختلفـة إلا أنهم اختـاروا شخصية هوكينغ خصوصا، ولمعوها تلميعـا عظيمـا، وأعطوهـا بعدا إنسانيا رفيعا.. وصوروه بصورة الجبـار الـذي تحـدى كـل الإعاقات.. ليصيح بقـوة بمثـل مـا صـاح بـه نيتشـة عن مـوت الإله.. وصـوروه بصـورة المسـاند للشـعب الفلسـطيني، بـل بصورة المقـاوم للكيـان الصـهيوني.. وكـل ذلـك ليمـرروا لنـا مشروعهم التدميري من خلاله، ومن خلال الكوفيـة المـزورة التي ألبسوه إياها.

والإلحاد هو المشروع الغربي الجديد لأمتنا.. وهو خطــير جدا، لأنه يريد أن يستل الجوهرة التي تنبع منها كل فضــائل.. جوهرة الإيمان بالله.. ذلك أنهم رأوا أنهم مهما فعلوا بنا نعود من جديد بسبب تلـك الجـوهرة الثمينـة إلى وعينـا وحقيقتنـا، فلـذلك راحـوا يهونـون من شـأنها.. ويسـاوون بين الملحـد والمؤمن.. بل يجعلون الملحد أفضل من المؤمن.

وبما أننا قد عطلنا عقلنا المجرد الذي يعتبر الإيمـان هـو قمـة قمم المعرفـة.. ومن لم يـؤمن باللـه، فـإن علومـه لا تساوي شيئا.. بل إن أبسط مؤمن بالله أكثر علما وأكبر عقلا من كـل ملاحـدة الـدنيا.. وبمـا أننـا عطلنـا عقلنـا المؤيـد والمسـدد، والـذي دلنـا من خلالـه الـوحي المقـدس على أن الجاهل بالله والمنكر له جاهل مهما أوتي من العلم.. ذلك أن علومـه جميعـا لا تسـاوي شـيئا أمـام إنكـاره لهـذه الحقيقـة العظيمة.

وقد قال تعالى عن أولئك المشركين المتباهين بعلومهم أمام الرسل عليهم الصلاة والسـلام: ﴿ فَلَمَّا جَـاءَتْهُمْ رُسُـلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَـاقَ بِهِمْ مَـا كَـانُوا بِـهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [غافر: 83]

والفرح هنا بمعنى التكبر والخيلاء والبطر.. وهو متحقــق في واقعنا للأسف مع المسلمين المستلبين حضاريا وفكريـا.. حـتى أنـه إذا قـرئت على أحـدهم الآيـة من القـرآن الكـريم، والحاوية لكل المعجـزات، وكـل حقـائق الوجـود، تجـده ينفـر منها، ويؤولها ويعطلها، فإذا ما قـرئت عليـه كلمـات أعجميـة، راح ينبهر بهـا، ويلغي بهـا مـا بقي لـه من عقـل.. وكـل ذلـك تفكير عاطفي لا حظ له من العقل المجـرد، ولا المسـدد، ولا المؤيد.

وأخيرا.. صار هوكينغ شهيدا

لم يكتف التنويريـون الجـدد.. أولئـك المسـتلبون فكريـا وحضاريا وإيمانيا.. بالترحم على هوكينغ، وسكب الدموع عليه وإقامة المآتم والتابينيات عنه وعن روحه.. وإنما راح بعضـهم يحوله شهيدا.. بل يحوله آية من آيات الله التي يباهي الله بها عباده.. ووليا من أوليائه القديسـين.. ويوشـك أن يـأتي بعض رجال الأعمال ليبني له قبة، ويؤسس له مـزار.. وقـد تتحـول بسببه واشنطن أو نيويـورك أو أي مدينـة تحظى بجسـده، أو ببعض آثاره إلى مدينة مقدسة.

هذا الكلام ليس مبالغة، بـل هـو حقيقـة.. وقـد أفرزهـا ـ للأسف ـ من لم نتوقع منـه إلا ذلـك.. وهـو [محمـد شـحرور] ذلك الذي يزعم أنه تنويري وقرآني، وهو يخـرج لنـا كـل حين مـا يثبت المسـافات الهائلـة بينـه وبين كليهمـا.. فالحقـائق القرآنيـة واضـحة جـدا، ولا تحتـاج إلى كـل تلـك التلاعبـات اللفظية التي يمارسـها هـو وأمثالـه، وهي مـا جعلتهم يلـوون أعناق النصوص المقدسة لتنسجم مع كل مـا يريدونـه، أو مـا تفرزه أهواؤهم.

كتب محمـد شـحرور في مقـال لـه تحت عنـوان [إني جاعــل في الأرض خليفــة].. وهــو مقــال يغــزو الشــبكات الاجتماعية، وينتشـر بينهـا انتشـار النـار في الهشـيم.. يقـول: (رغم أني كمؤمن موقن بوجود الله، أختلـف مـع هوكينـغ في هذه الجزئية تحديداً، إلا أنـه بنظـري شـهيد، بغض النظـر عن إيمانه أو عدمه، فالهدف من وجودنا يحققـه أمثالـه، وبـدونهم سنبقى غافلين)

ونلاحظ شحرور من خلال هذه الكلمات كيـف يهـون من [وجود الله] الذي هو أساس العقائد، حيث أصبح عنده مجــرد جزئية بسيطة يمكن التنازل عنها.. وذلك يعني ـ حسبما يصور ـ أن الإنسان يمكن أن يمارس دوره في الخلافـة من غـير أن يعتقد وجود الله.. ومن غير أن يؤمن به طبعـا.. فـالوجود هـو

الأساس لكل العقائد.

بل إنه رفعه إلى رتبة الشهادة، وهي ليست شهادة التضحية ـ بحسب قصد شحرور ـ وإنما هي تلك الشهادة التي وصف الله بها رسله عليهم الصلاة والسلام فقال عن المسيح: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: 159]، وقال عن رسول الله ﷺ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: 41]

وبذلك تحول هوكينغ ـ عند شحرور ـ إلى ما يشبه الأنبياء عليهم السلام، ذلك أنه لا فرق بينه وبينهم سوى في تلك الجزئية البسيطة التي لا قيمة لها في موازين الحياة.. جزئية الإيمان بالله.

ثم يترقى شحرور في الرفع من مكانة هوكينغ ليذكر أنه غاية الغايات.. وأنه لولاه ما خلقت الأفلاك.. (فالهدف من وجودنا ـ كما يقول ـ يحققه أمثاله، وبدونهم سنبقى غافلين)

ثم يورد ـ للتلاعب بمشاعر القراء ـ مقارنة بين إبراهيم عليه السلام ذلك الأواه المنيب، وهوكينغ.. فكلاهما في نظره واحد.. وليس من فرق بينهما سوى في جزئية الإيمان..

والدليل على ذلك ـ كما يصوره هو أن (الإنسان هو وجود فيزيولوجي (بشر) مضافاً له كم معرفي (الروح)، وهذه الروح هي التي ميزته عن باقي المخلوقات، فكلما زاد الكم المعرفي زادت إنسانية الإنسان وابتعد عن المملكة الحيوانية)، وبما أن هوكينغ له كم معرفي كبير ـ كما يذكر شحرور ـ مقارنة بغيره، فهو صاحب روحانية أكبر، ووظيفته في الكون تابعة للمدى الذي وصلت إليه روحانيته.

هذه مجرد قصاصات من الغثاء الذي وقع فيه المستلبون فكريا وحضاريا وإيمانيا.. أولئك الذين يتلاعبون بالقرآن الكريم، وبكل المقدسات لأجل إرضاء نزوات الهوى التي ينفخها الشيطان فيهم.

وأنا شخصيا أفضـل الملحـد الجـاد، أو اللاديـني الواضـح على أمثـال هـؤلاء المتلاعـبين الـذين لا يختلفـون عن أولئـك الشعراء الذين يتبعهم الغاوون، وفي كل واد يهيمون..

فالوضـوح علامـة الصـدق.. والصـدق قـد يكـون مركبـا للوصـول إلى الحقيقـة.. أمـا الغمـوض، فهـو وسـيلة النفـاق والخداع.. وهما في الدرك الأسفل من النار.

عالم الأفكار وعالم الأشخاص

من خلال مساجلاتي السابقة حول هوكينغ رأيت أكثر المنبهرين به لا ينطلقون من حقائق علمية، ولا من دراسة متأنية لأطروحاته وأفكاره، بل بعضهم لا يعرفها أصلا، ولم يسمع بها أبدا.. وربما لم يعرف الشخص إلا من خلال ذلك التهويل الإعلامي المرتبط به.

وعندما أتيحت له الفرصة للنظر إليه اكتفي بالنظر إلى شخصه وإعاقته، وانشغل بمشاعره الأليمة نحو إعاقته الجسدية عن الألم على إعاقته الفكرية التي هي أحوج إلى الحزن منها من الإعاقة الجسدية.

وهذا ما يبين مدى التخلف الذي نعيش فيه.. فنحن ننبهر بالأشخاص، لا بالأفكار، ونعيش عالم الأجساد، لا عالم الأرواح.. ولذلك يستعمل الغرب معنا وسائل الإثار الجسدية أكثر مما يستعمل وسائل الإقناع الفكري.. لأننا ببساطة نستعمل مشاعرنا أكثر مما نستعمل عقولنا.

ولهذا راح يعزف بواسطة شخص هوكينغ على الكثير من الأوتار..

أولها هو انبهارنا بالغرب وخصوصا أمريكا وتطورها العلمي الذي جعلها تحول من إنسان معاق لا قدرة له على الكلام ولا الحركة إلى باحث وكاتب وفيزيائي ورياضي وفليسوف.. وعبقري زمانه.. والانبهار بأمريكا هو المقدمة للسقوط في مشاريعها، والتحول إلى أداة من أدواتها.

وثانيها هو الانبهار بالشخص نفسه.. بإعاقته وعبقريته وتحديه.. والغفلة عن أفكاره الخطيرة جدا.. فلذلك يقدمون له الدعاية المجانية.. التي هي مقدمة للدعاية لأفكاره.

وثالثها.. وهو أخطر الجميع هو تهوين أمر الإيمان بالله.. واعتباره قضية ثانوية لا قيمة لها.. فالإنسان عندهم هو الذي

يلبي شهواتهم ويقـدم لهم الكثـير من اللعب الـتي ينشـغلون بها، حتى لو حطم إيمان الملايين من الناس.

فمشــكلة هوكينــغ ليس في كونــه ملحــدا.. وإنمــا في استغلاله لمجال تخصصه للدعوة للإلحاد.. فقـد كـان يخـاطب الجماهير المعجبة بشخصة قائلا: لا حاجة لكم للإيمان باللــه.. فقــد دل العلم على أنــه يمكن وعن طريــق قــوى بســيطة كالجاذبية أن تتخلق الأشياء من غير حاجـة إلى خـالق.. وهـذا ما خالفه فيه كل الفيزيائيين الذين لم تتح لهم فرصة الإعاقـة حتى يسمع الناس أفكارهم، ويقتنعوا بها.

وهــو في ذلـك يشــبه الطــبيب الــذي يغــري المرضــى بالســموم الــتي تقتلهم.. والمرضــى لا يملكــون إلا طاعتــه.. لكونه طبيبا ومتخصصـا.. ولا يتكلم في الظـاهر إلا على ضـوء تخصصه.

هــذه هي مشــكلتنا.. ولــذلك اســتطاع الغــرب أن يملي علينا حربه الناعمة.. التي لا تشمل فقط تخريب البنيـان، بـل تتعداه إلى تخريب الإنسان.

أرجو من الصادقين الـذين جربـوا عـواطفهم أن يجربـوا عقولهم.. وأن ينظروا إلى المسألة من زاوية أعمـق.. فأنـا لا أتحدث عن هوكينغ المعاق.. وإنمـا أتحـدث عن هوكينـغ الـذي تحــدى اللــه.. وراح يلغيــه من الوجــود.. واتبعــه على ذلــك الجماهير الكثيرة من الناس.

أخبروني عن خدمات هوكينغ للإنسانية

كل الـذين جـادلوا في هوكـنيغ بعلم أو بغـير علم راحـوا يذكرون خدماته الجليلة للإنسانية.. ولست أدري هل يعون ما يقولون أم أنهم مجرد مغردين لمـا يقـال.. لا يفهمـون معنـاه ولا فحواه.. وإنما يكتفون فقط بتلك الألفاظ المنمقة والجمل المزخرفة التي لا معنى لها لديهم.

وأنا أسألهم هنا عن المرض الذي شخصه، والدواء الـذي اكتشفه، والذي حفـظ صـحة البشـرية، وطـور طبهـا، وقـاوم الأدواء الـتي تفتـك بهـا، مثلمـا فعـل آلاف الأطبـاء المجاهيـل الـذين جعلهم اللـه وسـائل لحفـظ الصـحة، وحفـظ الحيـاة، وجمالها.

فكم من طـبيب اخـترع كبسـولة دواء كـانت سـببا في حفظ صحة الملايين من البشر.. ومع ذلك لم يسمع به أحـد.. ولا ترحم عند وفاته أحد.. ولا بكت عليه عين.

فإن لم يكن له اكتشافات من هذا النوع، فليخبروني عن التقنيات التي طورها.. وهل ساهم في خدمة الإعلام الآلي أو الذكاء الصـناعي؟.. وهـل صـمم الـبرامج النافعـة؟.. أو وضـع النظريات العلمية المفيدة لتطوير التقانات؟

فإن لم يفعل ذلك.. فهل كان مهندسا حفـظ البنيـان من الزلازل والبلايا؟.. أو كان عالم بيئة وضع الخطط لحمايتهـا؟.. أو كان فلكيا عرفنا بأسرار الكون وجماله؟

فـإن لم يفعـل كـل ذلـك فليخـبروني عن الخدمـة الـتي قـدمها.. فأنـا من خلال مطـالعتي الواعيـة والدقيقـة لكتبـه وأفكـاره وطروحاتـه لا أرى إلا أن كـل مـا طرحـه لا يسـاوي كبسولة دواء، أو تخطيط معماري، أو اختراع مهندس.

فإن كنت مخطئا.. وقد أكون كذلك.. فأخبروني أنتم عن

هـذه الخـدمات الإنسـانية الـتي تمجـدونها، وتلغـون الآخـرين بسببها، ولو كانوا من طينتكم وأهل بلدكم، وتذكرونه.

وأنا أجزم أنه لو كان في بلادنا العربية أو الإسلامية رجل مثله.. وأتى بمـا أتى.. وكتب مـا كتب.. فلن يلتفت لـه أحـد.. ولن يسمع به.. بل قد ينال منا السخرية.

وأنا أعـرف الكثـير من الفيزيـائيين العـرب والمسـلمين الـذين لم يسـمع بهم أحـد.. وعنـدما مـاتوا لم يـترحم عليهم أحد.. لكون ذلك الإعلام المؤدلج لم يتحـدث عنهم، ولم يشـد بهم.

فهؤلاء الذين يزعمون كل ذلك لا يعرفـون المطالعـة ولا البحث العلمي، وإنمـا هم ضـحايا الإعلام الـذي يسـيرهم كمـا يشاء، ويحدد لقلوبهم مواضع المحبة والبغض، ومواضع الرضا والغضب.

الرحمة والترحم.. والمصادرة على المطلوب

تحضرني ـ وأنا أقرأ الكثير من الـردود اللينـة على [ولي اللـه الصـالح هوكينـغ!؟]، والقاسـية علي وعلى أمثـالي من المتطرفين ــ قـول الشـاعر متهكمـا من بعض العقـول الـتي يحاورها:

أقول له زيداً، فيسمعُ خالداً   ويكتبهُ عمْراً، ويقرأه سـعدا

وقول الشاعر الآخر:

يَعِي غَيْرَ مَا قُلْنَا وَيَكْتُبُ غَيْرَ مَا   وَعَاهُ وَيَقْرَأُ غَيْرَ مَا هُوَ كَاتِبُ

وهكــذا حــال هــؤلاء.. وهــذا حــال مصــادرتهم على المطلوب.. فبعضهم يذكر لي أن رحمـة اللـه واسـعة.. وأنهـا يمكن أن تسـعه.. وأننـا نحجـر على اللـه حين نمنعـه من أن يلقي رحمته على من يشاء.. ولست أدري هل خالفته أنـا في هذا، أو قلت شيء يضاد هذا.

كل الذي قلته أن الترحم والترضـي والاسـتغفار وغيرهـا معان شرعية، ونحن نحتاج إلى النصوص المقدسة التي تـبين لنا الموقف السليم منها، مـا دمنـا نـؤمن بهـذه النصـوص، ولا نعطيها ظهرنا، فهي كلام الله المقدس الذي لا يأتيـه الباطـل من بين يديه ولا من خلفه.. وهي تعبر عن مراد الله منا.

وقد نصت هذه النصوص صـراحة، وبطـرق قطعيـة على حرمة ذلك.. فالله تعالى ذكر عن إبراهيم عليه السلام توقفـه عن الاستغفار لقريبه بسبب كونه صار عدوا لله، بشـركه بـه، والشـرك أدنى مرتبـة من الإلحـاد، قـال تعـالى: ﴿وَمَـا كَـانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَـهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: 114]

وهكذا نرى نهي الله تعالى للمؤمنين عن الاستغفار للمشركين مع قرابتهم الشديدة، فقال: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: 113]

وهكذا نرى نهي الله تعالى عن الاستغفار للمنافقين، قال تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 80]، ونهى عن الصلاة عليهم أو القيام عند قبورهم، فقال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: 84]

وفي كل هذه الآيات الكريمة تعليل للنهي بعدم الإيمان أو الكفر.. وفيها بيان للعذاب الشديد الذي يحيق بهؤلاء..

أفنحن أعلم أم الله؟.. أم أننا أكثر تسامحا من الله، وأرحم بعباده منه؟.. أم أننا نعقب على الله وننتقده؟

أنتم أيها المتسامحون جدا بالخيار بين أن تلغوا حقائق القرآن.. أو تعتبروها نصوصا تاريخية.. أو أن تطبقوا ما ورد فيها من معان.. وهي محل اتفاق بين الأمة جميعا.. وبدعة الترحم على غير المسلمين لم تحصل إلا في عصرنا.

أما رحمة الله فمسألة أخرى.. ولا دخل لنا فيها.. والرحمة ليست كالترحم.. وعند مناظرة من ينهى عن الترحم لا يصح أن نرد عليه بالرحمة.. وإلا تحققنا بما يقال عن أولئك الذين يفهمون ما يحلو لهم، لا ما يسمعون.

دعوا لله جنته وناره.. ورحمته ونقمته

تصور البعض إنكـاري للـترحم على هوكينـغ أنـني أطلب منهم أن يدعو عليه أو على غيره.. وأنا لم اقل هــذا، ولم أدع إليه.. ولكني ذكرت أن الجنة والنـار للـه.. والرحمـة والنقمـة حقه ومن صلاحياته التي لا يجوز لنا التدخل فيها..

بل إن الله تعالى، وفي صريح القـرآن الكـريم ينهى عن ذلك.. فقد قال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَـاتَ أَبَـدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَـرُوا بِاللَّهِ وَرَسُـولِهِ وَمَـاتُوا وَهُمْ فَاسِـقُونَ﴾ [التوبــة: 84]، وقــال: ﴿اسْــتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْــتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 80]

وقــال عن رحمتــه وكونهــا مختصــة بمن تــوفرت فيهم شروط معينة أهمها وأساسها الإيمان: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِـهِ مَنْ أَشَـاءُ وَرَحْمَتِي وَسِـعَتْ كُـلَّ شَـيْءٍ فَسَـأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُـونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: 156]

فهـل من الأدب بعـد هـذا أن نفـرض إرادتنـا على اللـه، ونلزمه بأن يرحم أحدا لم يأذن برحمتـه، أو يـدخل الجنـة من لم يتوافق مع سننه؟

هذه أحكام الله التي وضحها في كتابـه المقـدس.. وهي ليسـت أحـاديث يمكنكم أن تجـادلوا فيهـا.. والأدب مـع اللـه يقتضي منا مراعاة مراداته.

والمشــكلة الأكــبر ليس في هــذا.. وإنمــا في خــداع البسطاء بأن رحمة الله التي ذكر أنه كتبهـا لمن تـوفرت فيـه شـروط معينـة.. يمكنهـا ان تشـمل غـيرهم.. وأن كلام اللـه تعالى بذلك لغو لا قيمة له.

عــودوا إلى القــرآن الكــريم.. وتــدبروه.. وإن شــئتم أن

تتحرروا.. فتحرروا وفق ضوابطه لا وفق أهوائكم.. وإن شئتم أن تعطوا شيئا لأحد من الناس فـاعطوه مـا تملكـون لا مـا لا تملكـون.. وأنتم لا تملكـون رحمـة اللـه ولا جنتـه.. فلـذلك لا تكذبوا على الناس ولا على أنفسكم.

سؤال للذين ترحموا على هوكينغ

رأيت من خلال بعض المنشــــورات تلــــك العواطــــف الجياشة والرقة العجيبة نحو هوكينغ سواء من بعض السنة أو الشـيعة.. وخصوصـا المتحـررين من كليهمـا.. وأنـا أدعـو كلا الطرفين، لأن يجلسوا مـع أنفسـهم، ثم يضـعوا أمـامهم هـذه التساؤلات:

لو أن هوكينغ ـ يا معشر السنة المتحـررين ــ سـخر من الصحابة واستهزأ بهم.. هل ترى موقفكم منـه سـيكون نفس الموقف؟

وأنتم كذلك ـ أيها المتحررون من الشيعة ـ لو ان هوكينغ سخر من الإمام علي أو الحسين أو غـيرهم من الأئمـة.. هـل سيكون موقفهم منه نفس الموقف؟

للأسف صار [الله] عندنا آخر شيئ، فهو أهون عندنا من الصـحابة ومن الأئمـــة ومن كـــل المقدســات الــتي لم تنــل قدسيتها الا بسبب نسبتها لله..

بل صارت جنة الله التي كتبهـا لعبـاده الصـالحين مرتعـا خصبا لكل من يحلو لنا إدخالـه إليهـا.. وصـارت رحمتـه الـتي كتبها للمحسنين من عباده مشاعا نوزعه لمن نحب منهم.

لا تجيبوني عن سؤالي.. واسألوا أنفسكم فقط.. وأجيبوا أنفسكم فقط.. فالله هو الديان.. ولست انا ولا غيري.

هوكينغ والدعاية الإعلامية

يردد الكثير هذه الأيام بـوعي أو بغـير وعي أصـداء تلـك الدعاية المجانية لهوكـنيغ بحجـة أنـه خـدم الإنسـانية.. وكأنـه الوحيـد الـذي خـدمها.. وكـأن كـل تلـك الجحافـل من الجنـود المجهولين من الأطبـاء والمهندسـين والبيولوجـيين والتقنـيين والمعماريين والأدباء والفنانين وغيرهم كثير لم يفعلوا شـيئا.. وهم لم يلتفتـوا لهم أصـلا، وكـأنهم غـير موجـودين.. لسـبب بسـيط، وهـو أن القنـوات الإعلاميـة الغربيـة لم تتبنـاهم، ولم تبثت دعايتها الإعلامية للإشهار بهم.

ولنسلم جدلا بـذلك.. ولـو أني شخصـيا لا أسـلم بـذلك.. فأكثر ما طرحه هوكينغ يدخل ضمن الفيزياء النظرية البحتة.. بل يدخل ضمن الميتافيزياء.. فلا يمكن التثبت ممـا قالـه، ولا تأكيده علميا، ولهذا ـ مع حرصه الشديد على نيل جائزة نوبـل في الفيزياء ـ لم ينلها بسبب بسيط، وهو أن أفكـاره لم تثبت علميا.. وحتى نظرية [إم] هي مجرد طرح خيـالي لا حـظ لـه من المصداقية العلمية..

لا بـأس.. فلنـدع هـذا.. ولنعتـبر هوكينـغ خادمـا صـحيحا، وليس مزيفا.. وأطروحاته علمية لا خيالية.. لكن لننظر للأمـر من زاوية أخرى.. وهي سـبب الشـهرة الـتي نالهـا بين عـوام النـاس.. ومـا أسـهل أن نعـرف ذلـك.. يكفي فقـط أن نكتب اسـمه على النت ليـبرز لنـا كـأكبر شخصـية فيزيائيـة حديثـة تصرح بالإلحاد، وتضع المبررات لـه.. بـل تتصـور أنـه بإمكـان قانون الجاذبية لوحده أن يغـني الخلـق عن الخـالق.. ولـذلك نـال حظـه واهتمامـه من الملاحـدة الجـدد، فهـو أيقونـة من أيقونـاتهم الكـبرى، وهم يجـادلون بـه، ويحـاجون المؤمـنين بأطروحاته.

وأنـا لا يهمـني إلحـاده أو إيمانـه، فكثـير من العلمـاء ملاحـدة، ولكن إلحـادهم بقي حـبيس نفوسـهم.. لكن هـذا الرجل كان يصرح به في كل المناسـبات، ويـدعو لـه، ولـذلك

فإن الدعاية له هي دعاية لأفكاره، والعوام الذين يتأثرون بـه، سيسرعون لا محالة لكتبه يقرؤونها، وللمواقع التي تشـيد بـه يطالعونهـا، وبـذلك نقـدم لهم ولـه تلـك الدعايـة المجانيـة الخطيرة.

بقي موقفـه من القضـية الفلسـطينية أو غيرهـا، وهـذه مسألة أخرى.. هناك آلاف من المجاهيل الـذين اهتمـوا بهـذه القضية، والـذين مزجـوا بينهـا وبين عـدم دعـوتهم للإلحـاد أو الانحراف عن القيم الإنسانية، وهم أولى منا بأن نؤدي أدوارنا الدعائية لهم.

ثم لـو أننـا لـو تأملنـا الكثـير من أعلام الإلحـاد كبرترانـد رسل وجول بول سارتر وغـيرهم، نجـد لهم مواقـف إنسـانية محترمـة.. فهـل نقـوم بالدعايـة لهم كـذلك بسـبب تلـك المواقف؟

لست أدري ما أقول لهـؤلاء المتطـوعين من الإعلامـيين الـذين تخلـوا عن مبائـدهم من كـون أمريكـا هي الشـيطان الأكبر.. وهي حقيقة شيطان أكـبر لا بسـبب تصـديرها للعنـف والحرب الناعمة والصلبة للعالم فقـط، وإنمـا بسـبب نشـرها لتلك القيم المنحرفة والأفكار الضالة وكل من يمثلها.. ولعـل هذه أخطر بكثير من تلك.. فتلـك تهـدم البنيـان، وهـذه تهـدم الإنسان.

هل من دموع على الفيزيائيين الذين اغتالهم الغرب؟

أدعو الذين سالت دموعهم البارحة على ستيفن هو كينغ باعتباره فيزيائيا كبيرا ـ كما يذكرون ـ ألا ينسوا أولئك العلماء الفيزيائيين الكبار الذين لا يقلون عنه شأنا، بـل قـد يفوقونـه، أولئك الذين أمضوا أعماهم في أبحاث الذرة والطاقة النووية السـلمية، وراحـوا يسـتثمرونها بطـرق علميـة منهجيـة تفيـد بلادهم والبشرية جميعا.

أولئك العلماء الذين جمعــوا بين البحث العلمي، واليقين العقائدي.. والذين تجاهلهم الإعلام الذي راح يعطي كل وقتـه وجهده لتلميع صورة ملاحـدة الفيزيـائيين، وتحقـير المؤمـنين منهم.

وأحب في هذه المناسبة أن أذكـر بعضـهم لعـل الـدموع التي سالت البارحة من أجل هوكينغ تسـيل أيضـا على هـؤلاء العلمـاء الـذين لم يكتـف الغـرب بتجـاهلهم ولا تحقـيرهم ولا غض الطرف عنهم، وإنما راح يغتالهم وهم في زهـرة قـوتهم العلمية.

ومن هؤلاء مجيد شهرياري، أحد المسؤولين عن برنـامج إيران النووي، الذي قتل في يوم وقع فيـه تفجـيران، أحـدهما كان يسـتهدف رئيس هيئـة الطاقـة الذريـة السـابق فريـدون عباسـي الـذي نجـا بحياتـه، والآخـر أودى بحيـاة شـهرياري شمالي العاصمة.

ومنهم أسـتاذ الفيزيـاء وخـريج جامعـة شـريف الإيرانيـة مسعود علي محمدي الذي اغتيل عام 2010 إثر انفجار وقــع بالقرب من منزله في العاصمة طهران.

ومنهم مصـــطفى أحمـــدي روشـــن آخـــر العلمـــاء المسـتهدفين وأصـغرهم، فقـد اغتيـل عن عمـر ينـاهز اثـنين وثلاثين عاما، وهو أحد المسؤولين عن موقـع نتـانز لتخصـيب

اليورانيوم والواقع بالقرب من أصفهان وسط البلاد، إذ ألصق مجهولـون عبـوة ناسـفة على سـيارته أودت بحياتـه وبحيـاة السائق الذي كان إلى جانبه.

وغـيرهم كثـير من الإيرانـيين واللبنـانيين والمصـريين.. ومنهم سـمير نجيب.. وهـو عـالم ذرة مصـري، وأسـتاذ في جامعة ديترويت بالولايات المتحدة، والذي اغتيـل عنـدما قـرر العودة إلى بلاده بعـد حـرب 1967، وفي ليلـة سـفره وأثنـاء قيادته سيارته اصـطدمت شـاحنة كبـيرة بهـا فتحطمت ولقي مصرعه على الفور، وانطلقت سيارة النقل بسائقها واختفت، وقيد الحادث ضد مجهول.

ومنهم رمال حسن رمال.. وهو عالم لبناني، الـذي قتـل عـام 1991 في مختـبر للأبحـاث في فرنسـا، والـذي وصـفته مجلة [لو بوان] الفرنسـية بأنـه (أحـد أهم علمـاء العصـر في مجال الفيزياء)، وقـد تعـرض للتهديـد حين حـاول الفـرار إلى بلده الأصلي، ولم توجد آثار عضوية على جثته.

ومنهم نبيـل فليفـل.. وهـو عـالم فلسـطيني من مخيم الأمعري بالضفة الغربيـة، درس الطبيعـة النوويـة ولم يتجـاوز ثلاثين سنة من عمره، رفض كل العروض التي انهـالت عليـه للعمـل في الخـارج، وفجـأة اختفى ثم عـثر على جثتـه في منطقة بيت عور غربي رام الله سنة 1984.

ومنهم إبراهيم الظاهر.. وهـو عـالم ذرة عـراقي حاصـل على دكتـوراه في هـذا الاختصـاص من إحـدى الجامعـات الكندية.

ومنهم سميرة موسى، المولودة سـنة 1917، وهي أول عالمـة ذرة مصـرية ولقبت باسـم «ميس كـوري الشـرق»، وهي أول معيدة في كلية العلوم بجامعـة فـؤاد الأول، جامعـة القـاهرة حاليـا.. والـتي حصـلت على شـهادة الماجسـتير في موضوع التواصل الحراري للغـازات، وسـافرت في بعثـة إلى بريطانيـا درسـت فيهـا الإشـعاع النـووي، وحصـلت على

الدكتوراة في الأشعة السينية وتأثيرها على المواد المختلفة.. وقد دعيت بعد شهرتها العلمية إلى السفر إلى أمريكا في عام 1952، حيث أتيحت لها فرصة إجراء بحوث في معامل جامعة سان لويس بولاية ميسوري الأمريكية، وتلقت عروضاً لكي تبقي في أمريكا لكنها رفضت وقبل عودتها بأيام استجابت لدعوة لزيارة معامل نووية في ضواحي كاليفورنيا، وفي طريق كاليفورنيا الوعر المرتفع ظهرت سيارة نقل فجأة؛ لتصطدم بسيارتها بقوة وتلقي بها في وادي عميق.

ومنهم [مصطفى مشرفة] عالم الفيزياء المصري، وأول عميد مصري لكلية العلوم، وقد دارت أبحاثه حول تطبيقه الشروط الكمية بصورة معدلة تسمح بإيجاد تفسير لظاهرتي شتارك وزيمان. كذلك، كان أول من قام ببحوث علمية حول إيجاد مقياس للفراغ، حيث كانت هندسة الفراغ المبنية على نظرية «أينشين» تتعرض فقط لحركة الجسيم المتحرك في مجال الجاذبية، كما أضاف نظريات جديدة في تفسير الإشعاع الصادر من الشمس، والتي تُعد من أهم نظرياته وسبباً في شهرته وعالميته؛ حيث أثبت د. مشرفة أن المادة إشعاع في أصلها، ويمكن اعتبارهما صورتين لشيء واحد يتحول إحداهما للآخر.. وقد قتل مسموما سنة 1950، ويقال بأنها أحدى عمليات جهاز الموساد الإسرائيلي.

ليت الذين تباكوا على هوكينغ أيقونة الإلحاد الأكبر في الفيزياء الحديثة أن يذرفوا بعض الدموع على هؤلاء، وألا يكونوا ضحايا الإعلام الذي يزين ما يشاء، ويشوه ما يشاء، ويغفل عمن يشاء.

هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب بمقالاته المتنوعة أن يوضح للقراء الكرام ذلك التطرف الجديد الذي لبس لباس التنوير، وراح لا يكتفي بمواجهة التطرف الديني، وإنما يقابله بتطرف لا يقل عنه خطرا، وهو التطرف التنويري، الذي يهدف إلى تفريغ الإسلام من جميع محتوياته، وقد قسمته إلى أربعة أقسام:

القسم الأول**:** التنويريون.. والمؤامرات العالمية**:** وقد تناولت فيه بعض الحجج والبراهين والوثائق الدالة على عناية بعض الدوائر العالمية بتشجيع هذا النوع من التنوير، لبث الشبه والفتن والتشكيكات بين المسلمين، حتى لا يبقى لهم من الإسلام إلا ذلك الشعار المفرغ من كل معنى.

القسم الثا**ني:** شخصيات .. ومشاريع تنويرية**:** وقد تناولت فيه نماذج عن شخصيات مختلفة من الحداثيين والقرآنيين وكل من تعلق بهم ممن يدعون التنوير**.**

القسم الثالث: التنويريون.. وهدم القيم: وقد تناولت فيه بعض مظاهر الهدم للقيم الإسلامية، والأسس التي تقوم عليها، وأول ذلك الإسلام نفسه، والذي حوله هؤلاء التنويريون إلى معنى هلامي يمكن أن يتحقق من دون رعاية لشرائع وعقائده وأخلاقه.

القسم الرابع: التنويريون .. وتمجيد الملاحدة: وقد تناولت فيه ما دفعني إلى كتابته، وهو ذلك التمجيد الذي ارتبط بهوكينغ، والترحم عليه، على الرغم من إلحاده الذي صرح به، بل دعا إليه.